الشذرات

في

اللغة والأدب

والتاريخ والتربية

تأليف

عبدالله بن حمد الحقيل

الشذرات

في

اللغة والأدب

والتاريخ والتربية

تأليف

عبدالله بن حمد الحقيل

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعـة الأولى
١٤١٠هـ - ١٩٩٠م

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

﴿ سبحانك لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾

• • •

﴿ اللهم انفعنا بما علَّمتنا ، وعلِّمنا ما ينفعنا ، وزدنا علما ﴾

• تقـديـــــــم •

بقلم الأستاذ : **محمد حسين زيدان**

ولعلي كنت حريصاً وما زلت على استقبال الوفاء بالوفاء.. فوجدتها فرصة أن أكتب تقديماً على صورة من التقريظ للكتاب «الشذرات في التاريخ واللغة والأدب والتربية» ألّفه الأستاذ الصديق الأديب «عبدالله ابن حمد الحقيل» .

فقد استقرأت مافيه، فإذا بي أعرف التزاوج بين الرجل الأسلوب، والأسلوب الرجل، فقليل من الكاتبين يتمتعون بالتزاوج، فأسلوب أخي عبدالله الحقيل على القرطاس هو هو أسلوبه مع الناس وللناس أدباً وخلقاً رفيعاً.. فاستقامة الأسلوب حرفاً على قرطاس، يستقيم معه أسلوب العشير، والصاحب، والصديق حينما يتكلم مع أحد الناس، فهذا التزاوج لا نجده في الكثيرين، بعضهم يعجبك ما يكتب، وتبتعد عنه إذا ما تعاملت معه.. وهذا الكتاب «الشذرات» أسأل عن الوازع الذي حمل المؤلف أن يكتب هذه المواضيع ألأنه أديب ؟ هذا لا يكفي، وإنما هو الأديب ابن الصحراء لا يستجير من رمضائها بنار الجفوة لوطنه وأهله.. وإنما هو يستعير من وجدانه الشغف بالأدب والتاريخ، فصحراؤنا أدب وتاريخ، فالكلمة الفصحى في اللغة الشاعرة نبعت من هذه الصحراء، وتاريخ المجد، ومجد التاريخ عبقرية هذه الصحراء، فلا بد أن يكون ابنها الأديب عبدالله الحقيل حقلاً خصباً يانعاً تجنى ثمراته من شذراته.. فجاء كتابه هذا روضة يانعة غناء جمع بين العطر وشذاه .

أهنئ نفسي به صديقاً عزيزاً، وأهنئه حين حافظ على الرجل الأسلوب والأسلوب الرجل، فكان مثلاً رائعاً في خلقه وأدبه وحُسن تعامله، فما أحوجنا إلى هذا النوع الفذ من الرجال ..

• مقدمـــــة •

الحمد لله وحده، وبيده الخير والعون والتوفيق، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والرسل، وعلى سائر النبيِّين والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين، وبعد :

يضم هذا الكتاب بين دفَّتيه موضوعات تتناول بعض قضايا التراث والأدب والتاريخ والتربية، وقد كُتبت على فترات متفرِّقة، ومنها ما حاضر به المؤلف في بعض المناسبات والمؤتمرات آثرت جمع شتاتها، ونشرها للمشاركة بجهد المقل في حياتنا الثقافية والفكرية..

وفي هذه الصفحات يجد القارئ أن موضوعات الكتاب تنقسم إلى أربعة أقسام ، حيث يضم القسم الأول مجموعة من البحوث التاريخية، أما القسم الثاني فهو عن قضايا التراث العامة والدعوة لجمع مواده المتفرقة، كما اشتمل القسم الثالث على التربية والتعليم ، والقسم الرابع على موضوعات في اللغة والأدب . وعسى أن يجد القارئ فيها الفائدة والإمتاع.. كما أرجو الإغضاء عما يوجد من نقص أو نسيان، وهو ما جبل عليه كل إنسان، يشفع لي الإخلاص ونشدان الخير.. ولا أنسى في هذا المقام ما قاله العماد الأصفهاني «إني رأيت أنه لا يكتب إنسان كتاباً في يومه إلا قال في غده لو غير هذا لكان أحسن، ولو زيد كذا لكان يستحسن، ولو قدم هذا لكان أفضل، ولو ترك هذا لكان أجمل.. وهذا من أعظم العبر وهو دليل على استيلاء النقص على جملة البشر»..

وأرجو من الله التوفيق والسداد وهو الهادي إلى أقوم طريق..

«عبدالله بن حمد الحقيل»

القسم الأول

في التاريخ

• اهتمـــام المؤرخيـن بالجزيـــرة العربيـــة •

الجزيرة العربية مهد الحضارات وكانت ولاتزال مهد البطولات وموطن المفاخر ومنطلق الرسالات السماوية الخالدة ومهوى أفئدة العرب والمسلمين . وإلى جانت ذلك فلقد كان لموقعها الحيوي أثر في العناية والاهتمام بها من جانب الأوربيين القدامى حيث بدأ اهتمامهم وزيارتهم لها منذ القرن الخامس عشر الميلادي ، وكان لتلك الرحلات أهداف متنوعة ، كما جاءت كتاباتهم متباينة من حيث الالتزام بالموضوعية والحياد ، وما اشتملت عليه من معلومات وانطباعات.. ولا شك أن تلك الكتابات كانت موضع اهتمام عدد من الباحثين المعاصرين عن تاريخ الجزيرة العربية ، فقد ترك أولئك الرحّالة كتابات أفادت بعض الباحثين حيث درست جوانب مختلفة من تاريخنا ..

وقد ترجم قسم كبير من تلك الرحلات والدراسات التاريخية إلى العربية ، وكانت تعكس اهتمام الأوربيين المتزايد بالشرق عندما بدأت البوادر الأولى لصراعاتها من أجل السيطرة والتوسع فيما وراء البحار ، وقد بدأته أسبانيا والبرتغال وهولندا وفرنسا وبريطانيا كقوى بحرية استطاعت الوصول إلى الشرق العربي والجزيرة العربية والخليج العربي ، وكانت تلك الرحلات لا تخلو من مهام استطلاعية وعوامل سياسية واقتصادية أخرى ..

ومن يستعرض كتب الرحّالة الغربيين يجد الكثير ولعل من أبرزها كتاب جاكلين بيرين «اكتشاف جزيرة العرب» والذي ترجم إلى العربية في بيروت منذ خمسة وعشرين عاماً ، كذلك الرحّالة «بدول» والذي نشر كتابه في لندن سنة ١٩٧٦م والكابتن ج.فورستر سادلير وكذا جيفور بالغريف وفيلبي واليزابيث مونرو وهاملتون وهونكه زيفريد وكذا لود وقيجوفارتيما من (مدينة البندقية) ١٥٠٣ – ١٥٠٨ م الذي قام

برحلة من البندقية للقاهرة ثم سوريا والحجاز واليمن ثم فارس والهند ، وكارستون نيبور (دنماركي) ١٧٦٢م كان رئيساً للبعثة الملكية الدنماركية التي قامت برحلة إلى جدة، اليمن، مسقط، الاحساء، وهو الوحيد الذي عاد حياً من أفرادها إلى بلاده .

وريتشارد بيروتون (بريطاني) ١٨٥٣م قام برحلة إلى ينبع والمدينة، مكة، جدة . وجوزيف بتس (بريطاني) ١٦٨٧م رحلة للقاهرة، مكة، المدينة، وجان لويس بيركهارت (سويسري) ١٨١٤م، مكة والمدية، ووليام بالجريف (بريطاني) ١٨٦٢-١٨٦٣م رحلة إلى نجد وشرق شبه الجزيرة العربية، وكارلو جوارماني (إيطالي) ١٨٦٤م رحلة إلى شمال نجد، وكولونيل لويس بلى (بريطاني) رحلة من الكويت إلى نجد والرياض، تشارلز دوتي (بريطاني) ١٨٧٦-١٨٧٨م، وسط وغرب شبه الجزيرة العربية، وموريس تاميسيير (فرنسي) ١٨٣٣م رحلة إلى الشرق زار فيها الحجاز وعسير، والسيدة/ آن بلنت وزوجها (بريطانيان) ١٨٧٩م رحلة إلى حائل ونجد، و ج.ج. لوريمر (بريطاني) دليل الخليج نشر سنة ١٩٠٨م . وغيرهم كثير ، ومهما تكن غايات تلك الرحلات وأهدافها فقد احتلت الجزيرة العربية مكانة بارزة منها ، وذلك بسبب أهميتها وشهرتها التاريخية المعروفة وموقعها الاستراتيجي المهم .

ولا غرو فقد حظيت الجزيرة العربية باهتمام كثير من المؤرخين والرحّالة من القدماء والمحدثين الذين قاموا بتأليف كتب تاريخية وبحوث ودراسات تتعلق بتاريخ جزيرة العرب وأبرز معالمها وما خفي من تاريخها وآثارها، وقد تصدى لذلك طائفة من الباحثين والمستشرقين والمؤرخين والرحّالة كما جرى تحقيق كثير منهم للكتب والمخطوطات والمؤلفات القديمة، ولا يخفى على القارئ الكريم الجهد والمعاناة في تحقيق ونشر المخطوطات وكتب التراث والمراجع التاريخية.. ومن واجبنا أن نتعرف على كل ما يكتب عن بلادنا وتاريخنا وآدابنا وتراثنا لننتفع بما يكون منه مفيداً

ونافعاً ونعيره الاهتمام اللائق به ونخرجه منشوراً نشراً علمياً خاصة وأن معظم ماكتبه هؤلاء يتعلق بالتاريخ والجغرافيا .

وإلى جانب كتب الجغرافيا والتاريخ هناك عدد من الرحّالة الذين زاروا الجزيرة العربية بقصد الحج أو التعرف على المعالم والآثار، فسجلوا ما شاهدوه ودوّنوا انطباعاتهم ومشاهداتهم في كتب قديمة وحديثة، وبذلك تركوا لنا ثروة أدبية من المعلومات التاريخية والجغرافية . ومن ذلك عدد كبير من علماء الغرب من مستشرقين وغيرهم ممن استهوتهم الرحلات لهذه البلاد رغم صعوبتها وقسوة الحياة فيها، فهاموا في صحرائها رغبة في التعرف على وهادها وشعابها وجبالها وأماكنها التاريخية .

وكذلك لا ننسى في هذا المقام بعض الرحّالة من الرواد المسلمين الذين حاولوا التعرف عليها والكتابة عنها، فقد اشتملت رحلة ابن بطوطة على الكثير من المعلومات خلال مجيئه لأداء فريضة الحج، فهو رائد في هذا المجال، وذلك في عام ٧٢٥ هـ .. ولقد لاقى وهو في طريقه الكثير من المواقف والمتاعب، إذ ذكر أنه وصل للحج بعد رحلة مفعمة بالمشاق في المغرب والشام وكان يتنقل في جزيرة العرب ويطوف بين أرجائها ثم يحج بعد ذلك، فلقد أمضى خمساً وعشرين سنة يتجوّل فيها في ربوع العالم ويطوف بالممالك والأمصار ويصف مختلف أنواع الحياة من قرى ومزارع وطرق وجبال وحياة للناس.. ويصف كل شيء رآه وشاهده من بيوت ودكاكين كما ذكر لقاءاته مع القضاة والأمراء والعلماء والأدباء والحكماء..

ومن هنا تأتي رحلته ووصفه لجزيرة العرب من المصادر العلمية والتاريخية لأنها تحمل في طيّاتها وبين ثناياها وصفاً تفصيلياً للحياة في تلك العصور إذ كان يصف كل ما يراه ويعلّق على كل ما يشاهده من غرائب وعجائب..

ولقد زار اليمن وتحدث عنه بشيء من التفصيل والوصف الطويل كما قام

بزيارة لعمان وتجوّل في ربوعها وتحدّث عن جبالها وبلدانها ومرابعها ومياهها وآثارها العريقة ومعالمها التاريخية.. كما زار منطقة الخليج وتحدّث عن الغوص على اللؤلؤ وعن الغوّاصين وحياتهم.. وعن سفنهم ومراكبهم، كما زار نجداً وتحدّث عن مرابعه وتاريخه وآثاره وأطال الحديث عن الأماكن التي زارها وقدّم معلومات ومشاهدات مختلفة..

ومن الرحّالة المشهورين ابن جبير فقد قام برحلته المعروفة سنة ٥٧٩ هـ حيث قدم لأداء فريضة الحج ، وقد وصف ما شاهده في رحلته مبتدئاً بمدينة جدة ثم ارتحل منها إلى مكة المكرمة ووصفها بإسهاب وتفصيل وغادرها إلى المدينة المنورة ووصفها وصفاً شاملًا حيث مكث بها عدة أيام، ثم تجوّل في بلاد نجد حتى وصل إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية.. وكذلك الرحّالة ناصر خسرو في القرن الخامس الهجري حيث زار العديد من المناطق والبلدان..

وكذلك من الرحّالة المشهورين محمد بن محمد العبدري سنة ٦٧٩ هـ ، وقد كان قدومه لتأدية فريضة الحج ، وغيرهم من الرحّالة والجغرافيين ممن تشتّت كتبهم وضاعت في مختلف مكتبات العالم ..

وما أجدر جامعاتنا اليوم ومراكز البحث والتوثيق والمخطوطات أن تعمل على تجميع ذلك التراث وتحقيقه كما أن هناك كتباً مخطوطة قديمة وحديثة هي في حاجة إلى النشر والتحقيق، ووضع الفهارس الكاملة لها وتبويبها وشرح غامضها وتحقيق نصوصها وغير ذلك مما يتوخى من نشر الكتب التاريخية لأنها بمثابة وثائق تاريخية وجغرافية واجتماعية عن الجزيرة العربية في تلك القرون السالفة حيث أن أولئك الرحّالة قد تجوّلوا في سائر أنحائها وعنوا بوصف ودراسة معالمها الجغرافية وعلمائها ومآثرها وآثارها وما هم عليه من علم ومعرفة وإدراك..

وبعد.. فلقد استأثرت الرحلات باهتمام كثير من طبقات مثقفي العالم قديماً، وحديثاً، وعني بها أعلام بارزون عبر أطوار التاريخ فتركوا لنا ثروة تعتبر من أهم روافد الثقافة والمعرفة والتاريخ من خلال تطوافهم في البلاد وما قضوه من سنوات طوال بين الفيافي والوديان والشعاب والأكام وسط الأهوال والمخاوف والمتاعب والمعاناة في بعض المواقع والبقاع والجبال..

ومع هذا وذاك فتاريخنا يحفل بعدد كبير من الرحّالة كالبكري والمسعودي والهمداني والأصفهاني والزمخشري والأصمعي وياقوت وغيرهم ممن حرصوا على وصف أحوال الأمم وتاريخها وبقيت آثارهم معالم يستفاد منها..

وهكذا تعتبر كتب الرحلات من مصادرنا المهمة لدراسات تاريخ بلادنا، لأن أهميتها لا تكمن في عددها الضخم وإنما في مادتها الغزيرة التي درست جوانب مختلفة وممتعة..

ولقد ظهرت بعض الدراسات التي اعتمدت أو ترجمت قسماً منها إلى العربية وما زال الكثير من تلك الدراسات التي تغطي بعض المراحل التاريخية تحتاج إلى مزيد من الاهتمام، حيث ينقصها الدقة إذ تعتمد على أخبار الآحاد حتى تخرج للقارئ بصورة واضحة عن تاريخ تلك المراحل وعن الحياة الفكرية والعمرانية.. وهكذا فتراث الأمة هو تاريخها..

وميض من سيرة الملك عبدالعزيز(*) :

• ظاهـــرة توطيـــن الباديـــة •

الملك عبدالعزيز عظيم من عظماء تاريخنا العربي والإسلامي . وليس في وسع الكاتب أن يحيط بأبعاد شخصيته وأعماله وعبقريته وسداد رأيه. وبفضل الله وعونه وتوفيقه استطاع أن يؤسس بنياناً شامخاً. ويقيم صرحاً أساسه التقوى واتباع الدين الإسلامي الصحيح. ويضع نهضة حضارية مازال أبناء هذا الوطن يسعدون في ظلها.. وكان اهتمام جلالته ببناء الإنسان يدل على اتخاذ المنهج الصحيح في تكوين قواه الفاعلة وهو يدل على حكمة عظيمة تميّز بها جلالته، ولقد كتب الكثيرون عن شخصية الملك عبدالعزيز ، وعن جوانب بارزة من شخصيته وما تتميز به من سمات ومزايا وقدرة وعبقرية. فقد وهبه الله مواهب عقلية وخلقية، وكان همه توحيد هذه البلاد[1] وجعل كلمة لا إله إلا الله هي العليا، وبناء دولة عربية إسلامية تعيد لهذه البلاد وجهها الصحيح، ويقيم صرحاً شامخاً أساسه التقوى واتباع الدين الإسلامي الصحيح ، حيث شيّد بناءه على الأخلاق والدين ، وجعلها غاية وهدفاً.. ولقد أكد ذلك جلالة الملك فهد في لقائه في جامعة الإمام حيث قال : «الشرف الأكبر هو قيام هذه الدولة كياناً وتكويناً على القاعدة الإسلامية» لقد جمع هذا الكيان بعد أن كان متفرقاً، ووحده بعد أن كان مشتتاً .

إن عبدالعزيز مازال ذِكره حياً في النفوس، فهو حي بأعماله الجليلة

(*) بحث قدم للمؤتمر العالمي عن تاريخ الملك عبد العزيز المنعقد بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية في الفترة من ١٩/٣/ إلى ١٤٠٦/٣/٢٣ هـ .

(١) انظر عبدالمنعم الغلامي، الملك الراشد جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز آل سعود، دار اللواء، ١٤٠٠ هـ ، ص ٩٠ .

التي تمثلت في بناء هذا الكيان الكبير.. المملكة العربية السعودية.. ولقد حمل أبناؤه الراية من بعده، يعملون لهذه الأمة في إرساء قواعد المجد والتقدّم والرّقي .

ومهما كتب الباحث فإنه لن يستطيع أن يحصي الإنجازات التي عملها، وملاحم بطولاته التي غايتها إعلاء كلمة التوحيد، وجمْع أبناء هذه البلاد على كلمة الحق.. والوحدة الشاملة، لقد نذر حياته في سبيل الدفاع عن مباديء الإسلام، وانتشاره وتوفير الأمن والطمأنينة لهذه الأمة بعد فترة من التمزّق والخوف والانقسامات والفُرقة.. تلك الأهداف التي حرص الملك عبدالعزيز على تحقيقها وما زالت حيّة في أذهان أبناء شعبه.. ولقد كان عبدالعزيز ذا قلب كبير ممتلئ بالحب لأبناء شعبه فكان ذلك دافعه إلى بث مباديء العدل والانصاف بينهم ، وتوفير أسباب الحماية والرعاية للجميع.. يقول المؤرخ الانجليزي المشهور «ارمسترونج» في كتابه المعروف «سيّد بلاد العرب» كان عبدالعزيز كبير القلب ، نديّ الكف ، جسوراً لا يعرف الصّبر عنده حدوداً ، عليماً بنفوس العرب ، حكيماً في معاملة القبائل ، وقد أوتي المزايا والخصال التي يعجب العرب بها[٢]..

ولقد كان الملك عبدالعزيز يقول : «إننا نحمد الله على جمع الشمل وعلى جعل الحُكم في هذه الديار بكتاب الله وسنّة رسوله» وكان يقول: «يجب علينا أن نكون عند حُسن الظن بنا فلا نتفرّق ونتحاقد، لأن ذلك من أسباب هلاكنا» وكان رحمه الله مشهوراً بالتديّن والوَرَع، ونُصرة الضعيف، والأخذ بيده، وغير ذلك من القيم الأخلاقية السامية، والمُثل العربية الإسلامية الأصيلة .

---

(٢) "Lord of Arabia" Ibn Saud By A.C. Armstrong .

إن في حياة الملك عبدالعزيز وفي سيرته وفي أخلاقه وفي عبقريته وفي سجاياه وفي فتوحاته وحروبه مورداً ثراً لا ينضب معينه، ولو دقّق كل باحث ومحقق فسيجد في سيرته وانتصاراته العسكرية والأخلاقية مورداً صافياً، ومنهلاً عذباً وما زالت صدور الكثيرين ممن عاصروا الملك عبدالعزيز زاخرة بالذكريات والقصص والروايات، وفي كل مجلس أسمع قصصاً وبطولات متعددة الأطراف، لم يُكتب عنها بعد، تفيض بالخُلق الرفيع والمُثل النبيلة والشّيم العربية الأصيلة « ولقد إمتلأت نفس عبدالعزيز بالتدين ، والأسوة الحسنة ، التي اقتبسها من سيرة النبي ﷺ ، والخلفاء الراشدين ، وسائر عظماء المسلمين رضي الله عنهم بما قرأ من تلك السير »[٣] ..

ولقد قال لي مرة أحد شيوخ القبائل خلال جولاتي التفتيشية على المدارس: إن حسنات عبدالعزيز وفضائله لا يعرفها ويذكرها إلا من عاش في ذلك العصر المليء بالخوف والتناحر والعداء، فقد كانت كل قبيلة تغزو القبيلة الأخرى، وتأخذ مالها وتستبيح دمها.. وكان الحاج وغيره يتعرّض للنهب والسّلب من قُطّاع الطرق..

ولهذا كان لشخصية (عبدالعزيز) من القوة والفعالية في النفوس ما أشاع ووطّد الأمن، وثبّت الإخلاص والولاء لجلالته، وتغلّب فيه على كثير من الصعاب لتحقيق نهضة جبارة .

أجَل لقد وحّد عبدالعزيز هذه الجزيرة وأعاد لها الأمن والاطمئنان وحظي بالحب والتقدير ولقد قيل :

لا يحكم الناس في عصر تعيش به إلا الذي لقلوب الناس يمتلك

لقد حرص الملك عبدالعزيز على نُصرة الدين والحفاظ على العقيدة الإسلامية تحت شعار التوحيد الإسلامي وتوثيق عُرَى الدين وتوحيد كلمة المسلمين والتأليف بين قلوبهم .

---

(٣) د . عبدالعزيز شرف ، ومحمد إبراهيم شعبان «عبدالعزيز آل سعود وعبقرية الشخصية الإسلامية» ص ١٧٠ ، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ ، دار المعارف بالقاهرة .

حتى كانت هذه المملكة المترامية الأطراف المتحدة الأجزاء ولقد خلد الشاعر ابن عثيمين بقصائده تاريخ مُوحد ومُؤسس هذه المملكة وباني نهضتها إذ يقول :-

بكم هدى الله ماضينا وآخرنا فأنتم رحمة نلنا بها الأملا
يحصى الحصى قبل أن نحصي فضائلكم
ديناً ودنيا وإحساناً ومنتحلا

ويقول واصفاً الملك عبدالعزيز بالجد والشجاعة والعزيمة :

ذاك الإمام الذي كادت عزائمه تسمو به فوق هام النسر والقطب
عبدالعزيز الذي ذلت لسطوته
شوس الجبابر من عجم ومن عرب
ليث الليوث أخو الهيجاء مسعرها السيد المنجب ابن السادة النجب

لقد كان طيّب الله ثراه لا يملك – عندما خرج من الكويت – إلا إرادته الفولاذية وقلبه الكبير جنباً إلى جنب مع شجاعته التي قهر بها عدداً لا يُحصى من أبرز رجال عصره، وكرمه الذي طبع عليه دمه ولحمه[٤] .

ولم يكن الملك عبدالعزيز قائداً عسكرياً فحسب حيث استطاع بنفر قليل أن يفتح البلدان ويدك الحصون ويقاوم الأعداء، بل كان زعيماً حضارياً – يمثل الإنسان في نظره قيمة حضارية قمّتها الاحترام والتقدير ، ولعل ذلك الاتجاه هو أبرز وأسمى جهود جلالته ، دلالة على اتباعه للمنهج الصحيح في تكوين قواه الفاعلة ، وهو يدل على حكمة عظيمة تميّز بها جلالته ، وكان همّه الأكبر أن يجد أبناء وطنه وقد

---

(٤) فهد المارك، من شيم الملك عبدالعزيز، الطبعة الثانية، سنة ١٤٠٠هـ، جـ ١، ص ٢٠٣-٢٠٤ .

أخذوا أماكنهم في قيادة أمتهم على أسس من الدين الإسلامي، وبذلك تصفو النفوس ويتبوّأ الإنسان المسلم مكانه الصحيح وسط ذلك العالم ..

ومن هنا كانت أولى خطواته الإصلاحية هي تحضير وتوطين البادية فعندما يقف الإنسان أمام حياة البادية لدراستها يجد نفسه إزاء موضوعات قد تكون متناقضة لأول وهلة، حيث اختلف الكثيرون في تفسير حياة البدوي وصفاته، فبينما نجد البعض قد ذهب إلى وصفه بالقوة وتحمله المشاق[٥] نجد البعض الآخر يذهب بالمقارنة بين البدوي وبين من سبقوه في المضمار الحضاري إلى وضعه في حالة من التفوّق والسموّ نظراً لما اكتسبه من صفات لا تزال البشرية ترنو إليها لتحقيق قدر منها كالحرية والمساواة والإخاء[٦] فالمساواة مطلقة بين الأخ وأخيه في حدود الحقوق والواجبات التي تحددها القبيلة، فلا نزاع هناك ولا أطماع بينهما إلا من أجل الاحتفاظ بالثروة التي يتربّع على قمّتها الخيل والإبل[٧] .

فحياة الترحال موضع فخر البدوي اتخذها سجيّة لحياته اليومية واضعاً هذه الانطلاقة غير المحدودة نموذجاً حياً تميّزه عن أولئك المقيّدين بقيود التمدّن، ويعتبر نفسه لذلك أكثر سعادة منهم إن لم يعتبرهم أدنى مستوى منه .

ومن طبائع البدو أنهم يقيمون وزناً لكل صادق قول، فالقول السديد والحجّة القوية أشد تأثيراً في طبائعهم الشديدة الإحساس المتّقدة الذهـن[٨] .

---

(٥) جاكلين بيرين، اكتشاف جزيرة العرب، ترجمة قدري قلعجي، ص ٣١٩ .

(٦) مجلة الزهراء ، ص ٤٤ ، محرم ١٣٤٤ هـ ، نقلًا عن كتاب مسلمي الأندلس ، لدوزي .

(٧) Davghty Travele in Arabia Desert. PP. 56/57

(٨) ابن خلدون ، كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر ، جـ١ ص١٢ - ١٢٢ .

وقد أصاب الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل آل سعود، هذه الحقيقة وأدرك هذا الواقع الذي يعيش فيه قطاع ضخم من مواطنيه .

يقول الريحاني :

(لقد شاهدت معرض العطاء في الرياض، بل كنت أشاهده كل يوم مدة إقامتي هناك، وأعجب جداً لا لكرم هذا الرجل [الملك عبدالعزيز] بل لإيمانه وثقته بالله، مصدر الخير اللامتناهي، وولي النعم التي لا تزول، وإلا فكيف بدوام يمكنه من العطاء في بلاد لا ثروة لها ثابتة ودائمة)[٩]..

وأمام هذه الاعتبارات فكّر الملك عبدالعزيز -رحمه الله- في مشروع إصلاحي يرمي إلى تأمين حياة مستقرة للبادية حول ينابيع المياه، ومن ثمّ تعليمهم الزراعة واستثمار الإيجابيات الكامنة داخل هؤلاء .

ورأى الملك عبدالعزيز أن خير وأفضل أسلوب لإقناع هؤلاء هو تعليمهم وغرس المباديء الإسلامية الصحيحة في نفوسهم، وأمام قوّة الحجّة الدينية وشخصية الملك عبدالعزيز والدعاة الذين أرسلهم إلى القبائل بدأت ثمار ذلك المشروع تُؤتي أُكلها.. ففي عام ١٣٢٩هـ ١٩١٢م اجتمعت جماعة من قبائل حرب تلقّب بعشيرة (العريمات) في مكان بالقرب من (المجمعة) بلغ عددهم ما يقرب من الخمسين فرداً على آبار الارطاوية الواقعة على الطريق بين الكويت والمجمعة ليكونوا بمثابة نقطة البدء في مشروع توطين البادية، وتكوّنت أول (هجرة) هناك عرفت بـ (هجرة الارطاوية) وسكنها (سعد بن مثيّب من حرب)[١٠] ثم أعطيت لفيصل الدويش وجماعته من مطير .

---

(٩) أمين الريحاني، ملوك العرب، جـ ٢ ، ٩١ .

(١٠) فؤاد حمزة، قلب جزيرة العرب، ص ٣٧٩ .

وتبع الارطاوية (الغطغط) وسكنها بطن من (عتيبة) و هو بطن (برقة) وتوالت بعد ذلك الهجر حتى عدها الريحاني في كتابه (نجد الحديث) بما يزيد على سبعين هجرة[11] علماً بأنها تزيد على ذلك بكثير. وقد وقفت على الكثير منها خلال جولاتي التفتيشية بوزارة المعارف .

وسميت المنازل الجديدة بـ (الهجرة) لارتباطها الديني والاجتماعي والحضاري بمفهوم الانتقال من حال إلى آخر، وقد اكتسب ذلك التعريف في عهد الملك عبدالعزيز مزيداً من الشمول والسعة، عما كان عليه سابقاً .

والأعمدة الرئيسية لإقامة الهجرة ثلاثة أو أربعة عند البعض البئر والمسجد والمسكن، والعامل الأهم في نظرنا هو.. مباديء الدين الحنيف والسير على منهج السلف الصالح .

وعادة يبدأ بناء المسجد، ثم يأتي بعده دور المساكن التي تلتف حوله، ومن ثمّ يبدأ التوسع شيئاً فشيئاً، وقد وضع الملك عبدالعزيز تحت أيدي قاطني الهجرة التسهيلات اللازمة لحياتهم المعيشية كالمال والحبوب والأدوات الزراعية لحراثة الأرض، بالإضافة إلى كل ماهو ضروري للمسجد الذي يمثل مدرسة للهجرة تلقى فيه المواعظ والدروس فإذا استقام أهل الهجرة في مقارهم، تم توزيع الذخيرة عليهم وتسجل أسماء القادرين على الحرب ليكونوا على أُهبة الاستعداد إذا نادى منادي الجهاد. أما أهل الحاجة والضعفاء فلهم أعطيات خاصة بهم مسجلة على أربعة أنواع هي الشرهة والقاعدة والبروة ثم المعونة .

لقد كان التضامن والتآزر مشجعاً على مظاهر الحياة الجديدة بالهجرة،

---

(١١) أمين الريحاني، تاريخ نجد وملحقاته، ص ٢٦٤ – ٢٦٥ .

فإذا أُصيب أحد الأفراد، أو فقدت الأسرة عائلها، كان من الواجب على رفاقه تقديم يد العون إلى أسرته التي تركها، وإذا وقع أحدهم في ضائقة مالية قاموا بجمع المال الضروري له حتى يكفوه شر الحاجة .

لقد أضفت تجربة التوطين في عهد الملك عبدالعزيز نوعاً جديداً من العلاقات بين الأفراد، أساسه الصلة الدينية المتينة، والتآزر من أجل حياة أفضل، والانتقال الحضاري لممارسة الزراعة إلى جلب الرعي، وسلوك طريق التوعية والتثقيف .

وزادت نسبة الأمن في البلاد وأصبحت من إحدى السمات الأساسية التي تميزت بها المملكة منذ عهد الملك عبدالعزيز وحتى وقتنا الحاضر يقول شكيب «ارسلان»

«كنت صاعداً إلى الطائف ومعي عباءة أحسائية سوداء جعلتها وراء ظهري في السيارة، ويظهر أنها سقطت مني في الأرض.. ولم أتنبّه لها فأخذ الناس يمرون ويمرون والعباءة مُلقاة على قارعة الطريق فلا يجرؤ أحد أن يمسّها.. وأخيراً وصل خبرها أمير الطائف فأرسل سيارة أتت بها وأخذ بالتحقيق عن صاحبها، فقيل له أننا نحن الذين مررنا من هناك فجاء الأمير في اليوم الثاني لردها إلينا»[١٢] .

لقد كانت تجربة توطين رائدة في نوعيتها الحضارية والتاريخية وفكرة جديدة سبق بها وقته ومكانه، بنى عليها الملك عبدالعزيز -رحمه الله- بناءً راسخاً، ومثلت لبنة في بناء شامخ، متعدد الأسس وإن كانت النواة الأولى هي الدين الإسلامي الصحيح ، واعتماده على رجال هم جند في وقت الشدّة وأيد قوية وقت السِّلم..

---

(١٢) شكيب أرسلان، الارتسامات اللطاف، ص ١٢٢ .

لقد كان الملك عبدالعزيز حريصاً على الاهتمام بشئون المسلمين ورعاية مصالحهم والسؤال عن أحوالهم، ولذا فقد احتل مكانة كبيرة في نفوس مواطنيه وقلوب المسلمين جميعاً .

وكان سريع الخاطر لطيف الجواب تجسّمت فيه فضائل العرب خاض أكثر من مائة وخمسين معركة وكان عبقرياً تتمثل فيه قوى الصحراء كلها[١٣] .

يقول الدكتور عبدالفتاح حسن أبو علية في كتابه «الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز» ص ١٤٣ حول هذا الموضوع :

لقد تجمعت عدّة عوامل ساعدت على نجاح مشروع الملك عبدالعزيز وإخراجه من حيز الفكرة إلى حيز التنفيذ والعمل ومن أهم هذه العوامل :

أولاً : سذاجة البدو وعاطفتهم، حيث أنهم يصدقون كل شيء ويندفعون في سبيل تحقيق مايعتقدونه اندفاعاً قوياً، وهذا ساعد على نجاح مشروع الملك عبدالعزيز .

ثانياً : إن الحماس الديني الموجود عند البدو البسطاء كان عاملًا قوياً من عوامل نجاح المشروع، فالبدو لا يهتمون بالسياسة، وإنما لديهم إحساس عميق بالأمور الدينية .

ثالثاً : لقد ساعدت إرشادات العلماء الدينيين والمرشدين في إنجاح المشروع .

رابعاً : لقد نجح الملك عبدالعزيز آل سعود في إرساء فكرة بيع القبائل

---

(١٣) حمد الحقيل، عبدالعزيز في التاريخ، الطبعة الحادية عشرة ١٤١٠ هـ ، ص ١٥ .

لجمالها التي هي رمز البداوة، وأن تعتمد على الزراعة بدلًا من الرعي، وتكوِّن مجتمعاً زراعياً مستقراً، بدلًا من مجتمع رعوي متنقل، وساعده في إرساء فكرته هذه جماعته الذين يشرفون على تثقيف البدو وتعليمهم .

خامساً : كثرة عطايا الملك عبدالعزيز ومساعداته لأبناء البادية من الأموال والأرز والحبوب والشاي والبن وبعض التسهيلات اللازمة للزراعة، والواقع أن هجرهم لم تكن هجراً زراعية بالمعنى الحقيقي، وإنما هي على شكل وحدات سكنية بناها البدو حول بئر ماء وبجانبه مسجد، وكان جل اعتماد البدو على عطايا الدولة .

سادساً : إن البدو ملوا حياة الترحال، ولذا وجدت لديهم أسباب قيام نوع من الاستقرار الذي فضّلوه على الترحال، وقد تأثروا في حبهم لحياة الاستقرار بعوامل سنوات المَحَل المتتالية، والجفاف المميت في ديارهم، وهذا معناه القضاء على موارد رزقهم التقليدية، زد على هذا أنهم فضّلوا الاستقرار لأنهم كانوا يجدون مرونة العيش في المدن أكثر من الصحراء .

سابعاً : لقد استطاع الملك عبدالعزيز أن يقنع رؤساء القبائل بالحضور إلى الرياض والدراسة في مسجدها الكبير للأمور الدينية على مشايخ أعدّهم لهذه الغاية، ليعودوا وينشروا هذه التعاليم الدينية بين أفراد قبائلهم .

ويصف لنا «هاريسون Harrison» البريطاني الذي زار الرياض سنة ١٩١٨م حالة الإخوان فيقول : «إن الناس يعيشون للعالم الآخر، مئات يدرسون في المساجد ليكونوا معلّمين

دينيين للبدو بين القبائل، وكانت الرياض مركزهم الديني، ومنها يوزع العلماء إلى أنحاء البلاد ليقوموا بتثقيف البدو هناك .

ثامناً : مرونة نظام الملك عبدالعزيز الخاص بالتوطين، فقد سمح لكل قبيلة كبيرة أن تبقي قسماً من أفرادها في الصحراء يعملون في الرعي، وأما الباقون فيرسلون إلى الهجر للقيام بالأعمال الزراعية، فكانت مرونة النظام وسهولته من العوامل المشجعة للبدو على قبول المشروع .

تاسعاً : وفي اعتقادنا أنه عندما كانت تؤسس الهجر لتوطين الإخوان كان يرافق هذه العملية توزيع الأراضي المجاورة للهجرة على البدو الجدد المقيمين في الهجر الجديدة، وبهذا يكون البدوي قد حصل على حصة من الأراضي لم يكن ليحصل عليها لولا هذا المشروع، ففي رأينا أن هذا كان عاملًا مشجعاً لقبول البدو لمشروعهما لأنه يدرّ عليهم الفوائد الكثيرة ..» .

وهكذا نشر الملك عبدالعزيز العدالة والأمان واستطاع تحضير البادية .. وبناء الدولة بشكل وبإعجاز يدعو إلى الإعجاب[١٤] .

خاتمـة :

حقاً لقد غرس الملك عبدالعزيز في هذه الأرض الطيبة المباركة أعظم وحدة في تاريخ هذه البلاد، فحوَّل ضعفها إلى قوة، وتمزقها إلى كيان كبير قوي راسخ حتى أصبحت المملكة العربية السعودية اليوم نموذجاً رائعاً.. ومثلًا فذاً حقيقياً للوحدة الوطنية. وتابع أبناؤه سياسته الحكيمة بأمانة وإخلاص حتى وصلت البلاد إلى ماوصلت إليه من منجزات حضارية شملت جميع جوانب الحياة..

حقق الله الآمال ووفق الجميع لما يحبه ويرضاه ،،

---

(١٤) محمد عنان السعودية وهموم العرب خلال نصف قرن ص ١٥ .

•أسطورة القرصنة العربية في الخليج(*)•

خلال حضوري مؤتمر اتحاد المؤرخين العرب الذي عقد مؤخراً في أبو ظبي، تحت رعاية سمو الشيخ زايد بن سلطان آل نهيان، رئيس دولة الإمارات العربية المتحدة، نظم المجمع الثقافي زيارات للمشاركين، يشاهدون أثناءها بعض الأماكن، والمعالم، ويقومون بزيارات لبعض الشخصيات الهامة في دولة الإمارات .

قمنا أثناء ذلك بمشاهدة بعض المناطق، والأماكن، والآثار، والمعالم الحضارية، وقوبلنا من أهلها بكل مودة، وحفاوة، وترحاب، أحسسنا أننا بين أهلينا، وأشقائنا الذين جمعتنا وإياهم أواصر الدين، والتاريخ، والدم، الذي ينبض في العروق، مما زاد الشوق إلى امتداد زمن الإقامة، حتى نزداد إحاطة بما في تلك البلاد من معالم حضارية، وكما قال الشاعر :

بلاد بها ما يملأ العين بهجة ويسلي عن الأوطان كل غريب

ومن الشخصيات التي قمنا بزيارتها سمو حاكم الشارقة، الدكتور سلطان بن محمد القاسمي، الذي تلطف بإهدائي نسخة من أطروحته العلمية التي حصل بها على درجة الدكتوراه من جامعة اكسترا، بانجلترا وطبعت باللغة الانجليزية عام ١٩٨٦م وتتكون من ٢٣٣ صفحة من الحجم المتوسط، وأستطيع القول بأن تاريخ الخليج، هذا الجزء العربي العريق بأصالته، وحضارته لم يلق مايستحقه من دراسات المؤرخين،

(*) مجلة الدارة العدد الثالث، السنة الثالثة عشرة، ١٤٠٨ هـ .

والباحثين، والمفكرين، رغم أهميته في الحاضر وامتداد تلك الأهمية إلى الأعماق السحيقة من عمر الزمن .

وأسرة القواسم ذات تاريخ بارز في الخليج، وكانوا من مناصري الدعوة السلفية منذ ظهورها، وكانت سفنهم في الخليج تمثل جزءًا هاماً لأسطول الدولة السعودية - الأولى والثانية - الذي كان كثيراً مايتصدى لخصوم الدعوة، في رأي كثير من المؤرخين .

ومن خلال مطالعتي لهذه الأطروحة، أدركت أننا بحاجة إلى المزيد من الدراسات التاريخية المنهجية، في تاريخ هذه المنطقة، إذ أن مثل هذه الدراسات تسهم بشكل واضح في كشف نواح تاريخية مهمة، وتزيح الستار عن حقائق مدفونة، وغير معروفة تاريخياً .

ولقد انبرى في وقت ما، عدد من المستشرقين، والرحالة، لكتابة ذلك التاريخ ونظراً لعدم قدرتهم على فهم لغتنا الفصحى، وعدم استيعابهم للهجاتنا المحلية، ومدلولاتها، وكذا عاداتنا، وتقاليدنا، وغير ذلك من أمور.. جعلتهم يقعون في أخطاء -إما سهواً، أو عمداً- بل إن كثيراً منهم كانوا يتحيزون في أحكامهم، وآرائهم.. وتحليلهم لتلك الأحداث التي يتعرضون لها بالدراسة.. وتصدر تلك الآراء في كتب تتحدث عن تاريخنا.. والعجيب أن الكثيرين منا كان يعتمد على تلك الكتب كمراجع ومصادر يستقي منها مايود الوصول إليه من معلومات.. وبذلك انتشرت تلك الأخطاء، وأصبحت كأنها حقائق مسلمة.. وكان الأحرى بمن يعتمدون على هؤلاء، أن يعرفوا منذ الوهلة الأولى، وقوع هؤلاء في أخطاء، تكاد تكون بدهية كأسماء الأعلام، والأماكن، والبلدان، وعدم

مقدرتهم على ضبطها، مما يؤدي إلى اضطراب وخلل فيما يبنى على ذلك من معلومات .

ولهذا نهيب بمثقفينا، ومؤرخينا، ومؤسساتنا العلمية أن يأخذوا المسئولية على عاتقهم في إعادة كتابة تاريخ بلادنا، وتمحيصه من الدخيل، والأخطاء، والاهتمام بنشر التراث.. والسّير بخطى وطيدة، ورصينة في هذا الاتجاه..

ولعل ما يملأ النفس غبطة، أن كتاب «أسطورة القرصنة العربية في الخليج» يسير في هذا الاتجاه.. لذا يعتبر أحد روافد المعرفة التاريخية، التي تصحح مسيرة الأفكار المتحيزة إلى وجهتها الصحيحة..

وتعالوا بنا نستعرض مضمون الكتاب..

يحتوي فهرس المحتويات على ما يلي :

١ – الخليج العربي في القرن الثامن عشر..

٢ – اتهامات القرصنة ١٧٩٧-١٨٠٦م .

٣ – الهجوم على رأس الخيمة عام ١٨٠٩م .

٤ – المفاوضات والمعاهدات عام ١٨١٤م .

٥ – تدمير القواسم عام ١٨١٩م..

ثانياً : المصادر :

وثائقيــة :

- **أرشيف الدولة في هولندا .**
- **أرشيف بومباي/ الهند .**
- **مكتبة وزارة الهند .**
- **الأرشيف الوطني للهند .**

- مركز البحوث والوثائق/ أبو ظبي (وثائق بالفرنسية).
- مجموعة وثائق بريطانية أصيلة خاصة .
- وثائق منشورة (بلغات مختلفة) .

ثالثاً : دراسات (كتب منشورة بالانجليزية) :

١ - قراصنة ساحل عمان عام ١٩٦٦ .
٢ - ساحل القراصنة عام ١٩٦٦ .
٣ - إمارات الساحل المتهادن عام ١٩٧٠ .
٤ - بريطانيا والخليج (١٧٩٥/١٨٨٠) عام ١٩٦٨ .
٥ - العراق الحديث في أربعة قرون عام ١٩٢٥ .
٦ - تاريخ بحرية الهند .
٧ - شركة الهند الشرقية (١٧٨٤/١٨٣٤) عام ١٩٤٠.
٨ - تاريخ الاقتصاد الهندي/ كامبروج .
٩ - سادة الشرق: شركة الهند الشرقية وأسطولها .

ويوجد صورة لعدد من اللوحات الزيتية الملونة تصور اجتياح رأس الخيمة والقواسم .

لقد كان الانجليز هم القوة المسيطرة في الخليج العربي في أواخر القرن الثامن عشر وبداية التاسع عشر.. وقد جرى الرأي في تبرير التوسع البريطاني في منطقة الخليج على أنه كان ضرورة حتمية لقمع القرصنة العربية..

وهذا الكتاب يفنّد هذا الزعم، ويتصدى لأسطورة تلك القرصنة، ويؤكد بالأدلة أن خطر القرصنة كان صورة خلقتها شركة الهند الشرقية لأسباب تجارية بحتة.. فقد كانت الشركة عازمة على زيادة نصيبها في تجارة الخليج مع الهند على حساب التجار العرب في المنطقة، خاصة

القواسم في مدخل الخليج.. ولم يكن لرئاسة الشركة في بومباي سفن حربية كافية لهزيمة أسطول القواسم.. ولذا لجأت إلى إقناع الحكومة البريطانية بتكليف الأسطول البريطاني بتحقيق تلك السيطرة..

ومن هذا المنطلق تولت شركة الهند الشرقية تنظيم حملة لتصوير القواسم.. زوراً، على أنهم قراصنة يهددون كل النشاط البحري شمال المحيط الهندي والمياه المجاورة له.. وصار كل حادث يقع لأية سفينة في المنطقة يؤول على أنه هجوم من قراصنة القواسم..

وقد أدت هذه الحملة في النهاية إلى اجتياح رأس الخيمة وتدمير القواسم..

ومن واقع دراسة مكثفة ودقيقة لأرشيف بومباي البريطاني لم يسبق لباحث الاطلاع عليه جاء هذا الكتاب ليقدم صورة جديدة تماماً عن فترة هامة في حياة الخليج... وهو أيضاً يلقي الضوء على أسلوب شركة الهند الشرقية وطريقتها في فترة دقيقة من توسع الأمبراطورية البريطانية..

ولقد قام جون جوردون لوريمر منذ إثنين وثمانين عاماً بتأليف موسوعته الكبرى عن الخليج الذي عربه قسم الترجمة في مكتب أمير قطر، وطبع باسم «دليل الخليج» في قسمين : تاريخي، وجغرافي، وكل قسم سبعة مجلدات ، ومنذ ذلك الحين أصبح التشويه المتعمد لتاريخ شبه الجزيرة العربية سائداً لم يتصد له أحد، ونقل المؤرخون عن لوريمر، دون رويّة وتبصر وتفكير، كل ماساقه من أخبار، وما توصل إليه من قناعات عن الخليج وأهله .

ولوريمر كان موظفاً مدنياً في حكومة الهند البريطانية قضى معظم حياته الوظيفية في الهند ، وإن إعداد الدليل الشهير الذي ارتبط اسمه به في الهند، عقب رحلة قام بها اللورد للخليج عام ١٩٠٣م.. كان الهدف

الأساسي منه هو أن يكون هناك، تحت يد مندوبي بريطانيا وواضعي سياستها في كل من الخليج والهند ولندن، كتاب يمكن تداوله عن البلاد والمصالح البريطانية التي سوف يتعاملون معها.. وكان لابد من توافر أسانيد وثائقية تدعم النفوذ البريطاني في المنطقة وتبرر وجوده وتوسعه ، في وقت بلغ فيه التوتر الدولي مداه ، وتصارعت أطماع القوى الاستعمارية الكبرى على خيرات الشعوب..

كان من المستبعد أن يلتزم لوريمر، الموظف البريطاني في حكومة الهند البريطانية، بالحياد والموضوعية، في دراسته لسياسة بلاده وفي رواياته –نقلًا عن وثائق بريطانية سابقة– التي تضمنها الجزء التاريخي من الدليل .

لقد وضعت الحكومة البريطانية في الهند تحت تصرف لوريمر كماً هائلًا من الوثائق التي تخدم موضوعه لكن منهجه كان انتقائياً إلى أقصى حد، وبالشكل الذي يخدم هدفه، فاستطاع بذلك نسج أكاذيب وشائعات على أنها حقائق لا تقبل الشك..

وقد أدت ترجمة هذا المؤلف الكبير إلى اللغة العربية إلى رواج وجهة النظر الاستعمارية البريطانية في موضوعات يتصدى لأحدها اليوم سمو أمير الشارقة الدكتور سلطان القاسمي وهو مسألة القرصنة العربية في الخليج وذلك في كتابه، «**أسطورة القرصنة العربية في الخليج**» الذي صدر بالانجليزية عام ١٤٠٦ هـ وهو يمثل أطروحته للدكتوراه .

يقـول سمو أمير الشارقة في مقدمة كتابه :

«لقد حاول مؤيدو الاستعمار البريطاني ترويج الفكرة بأنه في أواخر القرن الثامن عشر وخلال العقدين الأولين من القرن التاسع عشر ، اندفع

عرب الخليج بحماس بالغ، خاصة القواسم، في موجة قرصنة عارمة ضد التجارة الدولية ليس في الخليج وحده، لكن في البحر الأحمر أيضاً، وفي بحر العرب والمحيط الهندي .

وأصحاب هذه الحجة يريدون منا الاعتقاد بأن عرب الخليج قد نالوا الخلاص من تلك الأفعال الشائنة بفضل الجهود الطيبة لشركة الهند الشرقية البريطانية، التي كان تدخلها في الخليج لحفظ القانون والنظام. أما ما نتج عن ذلك من سيطرة بريطانية على الخليج لمدة قرنين من الزمان فقد اعتبروه التزاماً ألقى على عاتق بريطانيا دون أن تسعى إليه..» .

ويوضح الدكتور القاسمي رأيه في نفس المقدمة تفنيداً للحجة البريطانية :

وفي رأيي أن شركة الهند الشرقية كانت عازمة على زيادة نصيبها في تجارة الخليج بأية وسيلة.. وكانت أية زيادة في نصيب الشركة لابد وأن تكون على حساب العرب من أهل الخليج وهم : العتوب والعمانيون والقواسم»... «وقد أدركت حكومة الشركة في بومباي أن أي تصد لمخططاتها في الخليج سوف يأتي من جانب القواسم.. لكنها كانت على دراية جيدة أن سفنها الحربية ليست نداً لأسطول القواسم القوي..» لذلك كان لابد من تعبئة دوائر اتخاذ القرار في كل من حكومتي بومباي والهند بل وفي الامبراطورية نفسها ضد القواسم». وبناء عليه شرع مسئولو الشركة في حملة منظمة لتصوير القواسم،وبالأحرى تشويه صورتهم على أنهم قراصنة، وتمثل أعمال النهب التي يقومون بها تهديداً خطيراً لكل الأنشطة البحرية في المحيط الهندي، والمياه المجاورة له.. وصار كل حادث يقع لأية سفينة في المنطقة يعزى بشكل متعمد إلى قراصنة القواسم.. بهذه الوسيلة تم تنفيذ خطة «الكذبة الكبرى».. وأصبح لقب

«القواسم» بين عشية وضحاها مرادفاً للفظة «قراصنة» بل وأصبح موطن القواسم يسمى «ساحل القراصنة بدلًا من الساحل العربي».. وبذلك صارت الحرب على «القرصنة» هي نداء المعركة لشركة الهند الشرقية البريطانية وإذا حدث ولم تقع هناك أحداث قرصنة فإن الشركة كانت كفيلة بتلفيق وقائع وإلصاقها بهؤلاء «القراصنة» الوهميين.. ولنا أن نستشهد بقول فيليب فرانسيس عضو البرلمان البريطاني في ذلك الحين، في تعليق له في مجلس العموم أثناء مناقشة أمور الشركة في أنه «كلما كان الرئيس العام ومجلس إدارته ميّالين إلى شن الحرب ضد جيرانهم كان من السهل عليهم دائماً تلفيق أية قضية تناسب غرضهم».. وأخيراً تم في عام ١٨٢٠م خلق وضع معيّن في الخليج لا يختلف عن حرب السويس عام ١٩٥٦م مع فارق وحيد هو أن عملية الخليج أدت إلى تدمير القواسم»..

هذا وقد لجأ سمو الأمير الدكتور القاسمي إلى الوثائق البريطانية نفسها في بحثه لرفع هذا الظلم التاريخي الفادح الذي ألصقه المؤرخون بالقواسم. وروّجه لوريمر في موسوعته الضخمة «دليل الخليج» وكذلك كل من سار على نفس منواله في البحث والكتابة المتحيّزة .

كانت أهم المصادر الوثائقية التي اعتمد عليها الدكتور القاسمي في دراسته هي أرشيف بومباي الذي تجاهله الباحثون الأوربيون، أو لم يهتموا بوجوده ويرجع ذلك كما يقول الدكتور إلى طغيان شهرة أرشيف مكتبة حكومة الهند البريطانية على ماعداه.. وقد اكتشف الدكتور أن أرشيف بومباي هو «أغزر مادة وأكثر اكتمالًا من وثائق مكتبة حكومة الهند، وبخاصة ما يتعلق منها بوثائق الفترة التي تعني بها هذه الدراسة»..

ولنا أن نعرف مدى الجهد العلمي الكبير الذي بذله الدكتور القاسمي إذا علمنا أن وثائق أرشيف بومباي تقع في سبعة آلاف مجلد أقدمها يرجع

تاريخه إلى عام ١٦٣٠م وتشمل يوميات شركة الهند الشرقية، التي كان نشاطها التجاري هو المقدمة للاستعمار البريطاني للهند طوال أربعة قرون.. كذلك عثر الدكتور على وثائق عربية ومراسلات عربية بين الزعماء العرب ومسئولي الشركة في ذلك الحين .

إن كتاب سمو أمير الشارقة الدكتور سلطان محمد القاسمي يعد إضافة كبرى للمكتبة العربية، وقراءة جديدة لحقبة هامة من تاريخ الخليج كانت أسلحته فيها العلم والحس الوطني والعمل الدؤوب، فاستطاع من وقائع الوثائق التي أغفلها أصحاب الهوى والغرض من المؤرخين والباحثين أن يمحو الزيف الذي لحق بتاريخ فترة معيّنة من حياة الخليج العربي..

على هذا الجهد المتميّز نحيّيه ونتمنى أن نرى المزيد من الدراسات التاريخية الأصيلة والجادة.. حقق الله الآمال...

• دارة الملك عبدالعزيز •

ودورها في دعم البحث العلمي(*)

الحمد لله والصلاة والسلام الأتمان الأكملان على نبينا محمد وعلى آله وصحبه ومن سار على نهجه :

السيد الرئيس .

السيد الكاتب الأول لوزارة الثقافة .

السيد الأمين العام .

أيها العلماء الأجلاء .

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

باديء ذي بدء :

أنتهز هذه الفرصة لأتقدم بوافر الشكر وجزيل الثناء لوزارة الثقافة على ترحابها وضيافتها وتوفير كافة المستلزمات لتنظيم هذا اللقاء وعقد هذه الندوة .

وهذا ليس أمراً جديداً على هذا البلد الكريم الأصيل المضياف الذي عرف بتاريخه المجيد الذي تناقلت أخباره الركبان قديماً وحديثاً، فلكم تألق عالِم وأديب ومفكر ومؤرخ من هذه الديار فأسهم إسهاماً كبيراً في خدمة العلم والأدب والثقافة واللغة والتاريخ ونشر الثقافة العربية الإسلامية والدفاع عنها والذب عن حياضها ونشرها في جنوب أوروبا وغرب أفريقيا، وما زلنا نحمل في أعماقنا دَيناً لأولئك الأسلاف من علماء

(*) محاضرة ألقيتها في مدينة فاس بالمغرب خلال المؤتمر الذي عقدته الأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية في مدينة فاس في الفترة من ١٤٠٣/٥/١ إلى ١٤٠٣/٥/١٣ هـ الموافق ١٩٨٣/٢/٢٣ إلى ١٩٨٣/٢/٢٦م .

المغرب الذين كانت لهم المصنفات الفائقة من أعلام البيان وأساطين المعرفة وهو شيء لا يغيب عن أذهاننا أبداً .

ولا أريد أن أكرر وأجتر أموراً معروفة ولكن لابد من الإشارة والإشادة بذلك.. كما يسرني أن أحيي هذه المدينة التي نجتمع في رحابها فهي العاصمة العلمية إذ تمثل تاريخاً جليلًا ومجداً إسلامياً رفيعاً وذكريات إسلامية خالدة فهي إحدى أمهات المدن الإسلامية الشهيرة الذكر ومنها نبغ أولئك الأفذاذ من علماء النحو والتاريخ والأدب والتفسير والحديث وأصول الفقه الذين أثروا اللغة العربية بروائع البيان فجزاهم الله خير الجزاء .

إن الصِّلات بين المشرق والمغرب صِلات تاريخية قديمة وثيقة على الدوام وتزداد مع الأيام تبلوراً وتفاعلًا ورسوخاً.. وبعد ..

تشهد المملكة العربية السعودية نهضة شاملة في جوانب الحياة كلها، ويحظى التعليم بنصيب وافر في هذه النهضة، حيث أولته حكومتنا –وفقها الله– عنايتها، فواكب التعليم تلك النهضة المباركة في مراحله المختلفة في المدارس والجامعات بما يلبي حاجات العصر .

ولقد كان التعليم ولا يزال، عماد نهضة الأمم، فهو المصباح الذي ينير لها الطريق، ويبصّرها بموطيء قدميها، ويشد أزرها في حلبة الصراع الدولي، حتى تحتل مكانة مرموقة في سلم العز والمجد والسؤدد .

وتميّز التعليم في بلادنا، بأنه تعليم يحمل رسالة، ورسالته تستقي أهدافها من الرسالة العظمى التي أكرم الله بها البشرية في بعثة رسولنا محمد ﷺ ، لبناء الحضارة الإنسانية على هدى من الله وبصيرة، تسخّر ما أودعه الله في كائناته من طاقات لترسيخ دعائم الإيمان، وإقامة العمران

البشري الذي يرعى القيم والفضائل، ويوجّه الحياة وجهة رشيدة تجنبها مزالق الهوى والانحراف، حتى يستقيم أمرها على جادة الحق .

وحفاظاً على مكانة المملكة المرموقة في أنحاء العالم الإسلامي، وتقديراً لمسئوليتها في القيام على دين الله وتحكيم شريعته، واضطلاعاً بأعباء الدعوة الإسلامية داخل المملكة وخارجها، فقد كانت العناية بالدراسات الإسلامية والعربية موضع عناية فائقة .

وخلال السنوات الأخيرة تزايد عدد التلاميذ، واتسعت قاعدة التعليم مما اقتضى التوسع في عدد المدارس لاستيعاب الدارسين، وجرى تنظيم جديد في المناهج والخطط الدراسية، والاستعانة بالوسائل التعليمية، والاستفادة من تجارب استخدام الوسائط الإعلامية من أجل بناء حضاري يتناول أجيال الغد الذين هم أمل الأمة وذخيرتها .

لقد زاد عدد المؤسسات التعليمية بأنواعها ومستوياتها المختلفة في المملكة حتى جاوز الاثنى عشر ألف مدرسة ومعهد تعليم، كما زاد عدد الطلبة والطالبات الذين يتلقون العلم في هذه المدارس عن مليوني ونصف طالب وطالبة، بما في ذلك أعداد الطلبة والطالبات غير السعوديين من أبناء البلاد العربية والإسلامية الشقيقة الذين يتلقون العلم في مدارسنا . أما أعداد المعلمين والمعلمات فقد زادت هي الأخرى حتى أصبحت تقارب المئة ألف معلم ومعلمة..

ولا شك أن هذا التقدم والنمو في التعليم إنما يعكس الاهتمام الكبير والمتواصل الذي توليه حكومتنا الرشيدة للتعليم، والتخطيط الحكيم الذي تعمل على وضع أهدافه في خطط التنمية الوطنية .

ويشمل التعليم العام بالمملكة المراحل التالية : -

المرحلة الابتدائية، المرحلة المتوسطة، المرحلة الثانوية .

وتسبق المرحلة الابتدائية مرحلة أولية (الروضة) تعرف بالمرحلة التمهيدية أو الحضانة أو تعليم الطفل .

وللتدريس في المدارس الابتدائية يجري إعداد المدرسات في معاهد إعداد المعلمات من المستوى الثانوي، بينما يجري تدريب المدرسين في معاهد إعداد المعلمين والكليات المتوسطة للمراحل الابتدائية، وللتدريس في المستوى الثانوي يجري إعداد المدرسين والمدرسات في كليات التربية..

وثمة أنواع عديدة من التدريب لإعداد المدرسين، منها مدارس تحفيظ القرآن التي تقوم بإعداد مدرسي الدين، ومعاهد التربية البدنية والفنون الجميلة، ومراكز الدراسات التكميلية للمعلمين، ودورات اللغة الانجليزية، كما يوجد أيضاً كليات متوسطة ومراكز علوم ورياضيات..

وإلى جانب التعليم العام بالمملكة يوجد التعليم الفني، التعليم التجاري، التعليم الزراعي، التعليم الخاص.. وكذا تعليم الكبار..

التعليم العالي :

ويتوّج هذه النهضة التعليمية بالمملكة في الوقت الحالي، وجود سبع جامعات، فضلًا عن الكليات التي تشرف عليها الرئاسة العامة لتعليم البنات .

هذه الجامعات السبع هي :

١ – جامعة الملك سعود بالرياض .

٢ – جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية بالرياض .

٣ – الجامعة الإسلامية بالمدينة المنورة .

٤ – جامعة الملك عبدالعزيز بجدة .

٥ – جامعة الملك فيصل بالدمام .
٦ – جامعة الملك فهد للبترول والمعادن بالظهران .
٧ – جامعة أم القرى بمكة المكرمة .

ولا شك أن جامعاتنا تعتبر شاهد صدق على النهضة التعليمية القائمة في بلادنا بما تخرّج منها في الأعوام المتتابعة، وشاركوا في نهضتها المباركة في شتى مناحي الحياة، فأثبتوا كفاءتهم العلمية والعملية، وجنت الأمة على أيديهم أطيب الثمار .

والدراسات العليا – وهي التي تمثل قمة التعليم في أي جامعة – قد نهضت في جامعاتنا نهوضاً طيّباً بفضل من الله تعالى ثم بما قدّمته من أبحاث علمية تتسم بالجدّة والأصالة وما أنجبته من باحثين بمرحلتي «الماجستير»، و «الدكتوراه» يضارعون في مستواهم أقرانهم في الدول الأخرى .

ودارة الملك عبدالعزيز باعتبارها واحدة من مراكز البحث العلمي بالمملكة قد تجاوزت الإقليمية إلى العالمية حين شاركت ولا تزال في العديد من المؤتمرات والمهرجانات الدولية على الصعيدين العربي والعالمي .

فالدارة هي التي تمثل المملكة في عضوية المجلس الدولي للوثائق وفروعه الإقليمية، وذلك بمقتضى الموافقة السامية رقم ٢٢٥١١ وتاريخ ١٣٩٥/٧/٢٠ هـ كما أن الدارة عضو في الأمانة العامة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية، والتي تضم في عضويتها كلا من المملكة العربية السعودية، والكويت، والعراق، والامارات العربية المتحدة، والبحرين، وقطر، وعمان، والجمهورية العربية اليمنية، وتقوم الأمانة العامة لتلك المراكز بعقد اجتماع دوري سنوي تقريباً تستضيفه إحدى تلك الدول حيث عقدت ست دورات حتى الآن، من

بينها الدورة الخامسة التي استضافتها الدارة في ١٤٠١/٦/١٦هـ ، كما ساهمت الدارة في كثير من الندوات والمؤتمرات العلمية التي عقدت داخل المملكة وخارجها، ومن ذلك على سبيل المثال ندوة دراسات الشرق الأوسط التي عقدت بلندن ١٣٩٥هـ ، والندوة العالمية الأولى لدراسة تاريخ الجزيرة العربية التي نظمتها جامعة الملك سعود عام ١٣٩٧هـ، ومهرجان التراث الإسلامي الذي أقيم بلندن عام ١٣٩٦هـ، ومؤتمر الدراسات التاريخية لشرق الجزيرة العربية، الذي عُقد بقطر عام ١٣٩٧هـ، وندوة المدن العربية التي عُقدت بالمدينة المنورة في عام ١٤٠١هـ، وكذلك مؤتمر المائدة المستديرة للأرشيف الدولي الذي عُقد بباريس عام ١٣٩٨هـ، والمؤتمر الخامس للجنة العالمية للدراسات ماقبل العهد العثماني والفترة العثمانية المنعقد بتونس في العام الماضي ١٤٠٢هـ.

وتجاوزت الدارة أيضاً حدود المحلية حيث انتشرت إلى آفاق عربية وعالمية عبر مجلتها التي أصبحت تحظى بعناية القرّاء وبخاصة الباحثين والمتخصصين لافي المملكة العربية السعودية وشقيقاتها من الدول العربية فحسب، بل في الدول الغربية، والأمريكية، والآسيوية، والإفريقية، فهي مجلة تعنى بالتراث وتبرزه بشكل رفيع المستوى، صدر العدد الأول منها في غرة ربيع الأول عام ١٣٩٥هـ، ثم توالى صدورها بعد ذلك بلا انقطاع، ولقد تخصصت في الأبحاث والدراسات العلمية، وواكبت الأحداث العلمية والفكرية على الصعيدين المحلي والعالمي، وساهمت في المؤتمرات والندوات العالمية، وعايشت الأحداث والمناسبات الوطنية والعالمية وأبرزتها في صورة أعداد تذكارية وخاصة .

لقد تأسست دارة الملك عبدالعزيز في عهد جلالة الملك فيصل –رحمه الله– ، وذلك في اليوم الخامس من شهر شعبان ١٣٩٢هـ– ١٩٧٢م،

بموجب المرسوم الملكي الكريم م/٤٥ ، ومقرها مدينة الرياض .

وقد أنشئت تخليداً لذكرى عاهل الجزيرة العربية المغفور له الملك عبدالعزيز والغرض من إنشائها خدمة تاريخ المملكة وجغرافيتها وآدابها وأعلامها وآثارها الفكرية والعمرانية، وتاريخ الملك عبدالعزيز خاصة، ثم تاريخ الأمتين العربية والإسلامية عامة.. فالدارة منهل ثرىٌ ومنبع علمي غزير تنساب منه ضروب المعرفة لتاريخنا وتراثنا المجيد... وتحرص على دعم حركة البحث العلمي ووضع خطة للبحوث والتنسيق مع مراكز البحوث الأخرى .

• معنى كلمـــة الـــدارة •

الدارة كلمة عربية صحيحة الاستعمال، من معانيها اللغوية أنها كل أرض واسعة بين جبال، وأيضاً ماأحاط بالشيء كالدائرة وهي تجمع على «دارات» ودارات العرب معروفة قديماً، فقد تغنَّوا بها شعراً، وأفاضوا في وصفها بأجمل الأوصاف، لكونها أرضاً سهلة تنبت الطيّب من الأزهار، والنافع من الأشجار، واليانع من الثمار، تنساب منابع المياه من جوفها وتكسوها خضرة يانعة، يجد فيها من يقصدها المأوى، والمغنم، والأمان، والاطمئنان .

ودارة الملك عبدالعزيز بما تقوم به من بحوث ودراسات، وما تقدمه للباحثين وراغبي العلم ورواد المعرفة من مواد ومصادر ومراجع، ووثائق، كأنها البستان قد امتلأ بأزهى ألوان الورود والزهور، والفاكهة، والنبات، والأشجار الوارفة التي يفوح عبيرها في الآفاق، فيجذب شذاه الروّاد من كل صوب، كل يسعى كي يغترف من معينها العذب الفرات، فيحصل من ألوان المعرفة وصنوف العلم مأربه ومبتغاه، فعطاؤها دائم لا ينضب معينه، ذلك لأنه متصل ومقترن باسم الملك عبدالعزيز، رحمه الله .

ثم إن اقتران كلمة «دارة» باسم الملك عبدالعزيز يضفي عليها الذيوع والانتشار، فتستمد الكلمة الحياة من جلال الاسم، فلا تبلى من كثرة الترداد، بل تبقى أبداً متجددة، ولعل في ذلك دلالة وإشارة إلى أن إحياء التراث من أهداف وغاية الدارة .

وفضلًا عما تقدم فإن إطلاق اسم الملك عبدالعزيز على الدارة إنما هو وفاء بحقه على أُمته وشعبه، وتقدير لدوره البطولي الفذّ في توحيد وتأسيس مملكتنا الشامخة في عِزّة وإباء .

• أقســـام الـــدارة •

أولا : الإدارة العامة للشئون الفنية : وتضم الأقسام التالية :

(١) قسم البحوث والنشر :

ويأتي في طليعة أقسام الدارة، باعتبارها واحدة من مراكز البحوث المتخصصة بالمملكة، وقد أنجز هذا القسم الكثير مما لا يتسع المجال لذكره، فقد أنجز في مجال الطباعة والنشر عدداً كبيراً من البحوث والكتب، معظمها طبع على نفقة الدارة، والقليل ساهمت الدارة في طباعته بنصف التكاليف وبيانها كالتالي :

أسماء الكتب :

(١) فهارس كتاب «**عنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر**» **إعداد الأستاذ/ أحمد مرسي .**

(٢) كتاب **لمع الشهاب في سيرة الشيخ محمد بن عبدالوهاب : حققه وعلق عليه الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ**، وجاء في (٢٤٧) صفحة، وهو لمؤلف مجهول تكلم فيه عن بداية الشيخ محمد بن عبدالوهاب، وعن دعوته، وعن توسعها

في الجزيرة العربية ، كما تكلم عن نسب الإمام محمد بن سعود ، وقد افترى المؤلف على الشيخ محمد بن عبدالوهاب وكذب عليه كثيراً مما جعل المحقق يبين كذبه ويرد على اتهاماته ...

(٣) كتاب «**هذا هو كتاب سيرة الإمام الشيخ محمد بن عبدالوهاب** :

المؤلف هو الأستاذ أمين سعيد، طبعته دارة الملك عبدالعزيز سنة ١٣٩٥ هـ جاء الكتاب في (٣٢٨) صفحة، تحدث فيها المؤلف عن حقيقة الدعوة السلفية فدرس حياة الشيخ وسيرته، وسير الدعوة، ورسائل الدعوة ثم تكلم عن أعداء الدعوة، ثم أورد آراء علماء الشرق والغرب فيها وبعد ذلك ألقى الضوء على بعض مؤلفات الشيخ..

(٤) **الملك الشهيد فيصل بن عبدالعزيز ودعوة التضامن الإسلامي للشيخ مناع القطان** .

(٥) **المرأة كيف عاملها الإسلام لمعالي الشيخ حسن بن عبدالله آل الشيخ**..

(٦) **الإصلاح الاجتماعي في عهد الملك عبدالعزيز** :

طبعته دارة الملك عبدالعزيز عام ١٣٩٦ هـ **وهو تأليف الدكتور عبدالفتاح حسن أبو عليه**، وجاء في قسمين، يحتوي على فصول سبعة، بلغت صفحاته (٣٠٣) صفحة .

درس المؤلف في هذا الكتاب أحوال المجتمع في نجد والاحساء والحجاز وعسير قبيل دخول الملك عبدالعزيز، كما تناول دراسة عوامل الوحدة والتفكك في هذه المجتمعات، ومشكلات كل من البدو والحضر، كما قام بدراسة مشروعات توطين البدو والإخوان كمرحلة أولى من مراحل الإصلاح الاجتماعي السعودي، ثم درس

اكتشاف البترول وتطور الناحية الاقتصادية، وأثر ذلك على المجتمع السعودي، وأخيراً تناول دراسة الإصلاح العلمي والثقافي والعمراني في البلاد السعودية..

(٧) **انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خارج الجزيرة العربية :**

ألفه الأستاذ محمد كمال جمعه وطبعته دارة الملك عبدالعزيز سنة ١٤٠١هـ في الرياض، بلغت صفحات الكتاب (٤٠٧) صفحة وجاء في ثمانية فصول درس فيه المؤلف انتشار دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب خارج الجزيرة العربية وأثرها الكبير، حيث تأثرت بها دول وسارت على نهجها حركات إصلاحية، وصلحت بها مجتمعات إسلامية.. لذا نجده يدرس حالة الإسلام والدول الإسلامية في عصر الشيخ محمد بن عبدالوهاب ثم يلقي الضوء على دعوته السلفية، كما أنه درس حركات دينية أقامت دولًا على أسس قريبة من دعوة الشيخ، وذكر المصادر والمراجع التي تكلمت عن الشيخ ودعوته .

(٨) **أضواء حول الاستراتيجية العسكرية للملك عبدالعزيز وحروبه :**

هذا الكتاب يتكلم عن حروب الملك عبدالعزيز، **مؤلفه العميد محمد إبراهيم رحمو** وقد قسَّمه المؤلف إلى فصول خمسة أتت في (١٨٠) صفحة، تكلم فيه المؤلف عن تطور الفكر الاستراتيجي بالجزيرة العربية في عهد الملك عبدالعزيز ودرس خلفية الأحداث العالمية أثناء تكوين الكيان الاستراتيجي للمملكة العربية السعودية، ثم تكلم عن المعارك الحربية للملك عبدالعزيز،

وعقد فصلًا بعنوان دعم الكيان الاستراتيجي درسه من ناحية الموقع الجغرافي والأهمية الاستراتيجية العامة، والأهمية السياسية، والعسكرية والمعنوية..

(٩) **تاريخ الدولة السعودية :**

الكتاب يقع في (٤٨٤) صفحة وطبعته دارة الملك عبدالعزيز **وهو من تأليف الأستاذ أمين سعيد،** أرخ فيه للدولة السعودية من عهد الإمام محمد بن سعود إلى عهد الملك عبدالعزيز رحمه الله، وقد قسَّم هذه الفترة التاريخية إلى ثلاث مراحل.. الأولى تبدأ من تاريخ اللقاء بين الشيخ محمد بن عبدالوهاب والإمام محمد بن سعود عام ١١٥٨ هـ حتى نهاية حكم الإمام عبدالله بن سعود عام ١٢٣٤ هـ والفترة الثانية تبدأ من حكم الإمام تركي بن عبدالله عام ١٢٣٥ هـ حتى نهاية حكم الإمام عبدالرحمن الفيصل عام ١٣٠٩ هـ أما الفترة الثالثة فكانت على يد مؤسس المملكة المغفور له الملك عبدالعزيز عام ١٣١٩ هـ ، والكتاب يعتبر مرجعاً هاماً لتاريخ الدولة السعودية .

(١٠) **مكة في عصر ما قبل الإسلام :**

يقع هذا الكتاب في (٢٢٧) صفحة، وهو من مطبوعات الدارة وقد ألفه **الأستاذ أحمد أبو الفضل عوض الله** وقسَّمه إلى فصول ستة، وهو دراسة لتاريخ مكة تتميز بالتحليل الموضوعي، والمنهج العلمي، وهذه الدراسة تتناول مكة قبيل ظهور الإسلام، نشأتها، اسمها، فضلها، حكومتها، بيئتها الدينية، حياتها الاقتصادية وعلاقاتها بجيرانها والحياة الاجتماعية والفكرية والمعارف والعلوم ولهجتها الفصحى التي بلغت بها القمَّة .

(١١) **الأطلس التاريخي للدولة السعودية :**

وضع مادته التاريخية وخطط رسومه وأشكاله وخرائطه **الدكتور إبراهيم جمعة** وهو مادة تاريخية مدعمة بالوثائق والأسانيد موضحة بالرسوم والخرائط والمصورات وهو ملم بتاريخ شبه الجزيرة العربية ودورها التاريخي والحضاري قديماً وأثرها في مجال العلاقات الإنسانية كوسيط بين الشرق والغرب ومجمل لما كانت عليه الأحوال في نجد واليمامة ووادي حنيفة، وتنافس إمارات الوادي وتفوق إمارة الدرعية على إمارتي العيينة والرياض، وقيام أول دولة عربية موحدة في قلب الجزيرة، كما ألقى الضوء على الدولة التي انبثقت عن اللقاء التاريخي بين الأمير محمد بن سعود والشيخ محمد بن عبدالوهاب، والأدوار التي مرت بها حتى عهد الإمام عبدالرحمن الفيصل عليهم جميعاً رحمة الله .

ثم استعرض عهد جلالة المغفور له الملك عبدالعزيز بن عبدالرحمن الفيصل، وتأسيسه للمملكة وإنجازاته الجبارة في كل المجالات، ثم عهد الملك سعود، وعهد الملك فيصل رحمهما الله .

(١٢) **الكتيب الإعلامي للدارة (الأول)** إعداد قسم البحوث بالدارة :

(١٣) **محمد بن عثيمين : شاعر الملك عبدالعزيز :**

المؤلف : **الأستاذ أحمد أبو الفضل عوض الله** أحد الباحثين في الدارة، طبعته دارة الملك عبدالعزيز عام ١٣٩٩ هـ واحتوى الكتاب على مقدمة وثلاثة فصول .

أورد في المقدمة أهم الدراسات السابقة عن ابن عثيمين، أما

في الفصل الأول فقد درس حياة الشاعر وألقى الضوء على علاقته بملوك العرب، وفي الفصل الثاني ألقى الضوء على فتوحات الملك عبدالعزيز من خلال شعر ابن عثيمين ثم درس أغراض شعره، ودرسه دراسة فنية في الفصل الأخير .

(١٤) **كتاب مثير الوجد في أنساب ملوك نجد: (مخطوط)**

المؤلف **راشد بن علي الحنبلي** المتوفى في نهاية القرن الثالث عشر الهجري وقد حققه **الأستاذ عبدالواحد محمد راغب** أحد الباحثين في الدارة وطبعته دارة الملك عبدالعزيز عام ١٣٩٩ هـ وهو يشتمل على أنساب أئمة وملوك نجد من أفراد الأسرة السعودية ونسب الشيخ محمد بن عبدالوهاب رحمه الله .

(١٥) **دليل الدوريات بالمكتبة** : إعداد مكتبة الدارة :

(١٦) **دليل الوثائق العربية** إعداد قسم الوثائق بالدارة .

(١٧) **دليل الوثائق التركية** إعداد قسم الوثائق بالدارة .

(١٨) **قائمة مختارة بالكتب العربية عن المملكة العربية السعودية ودول الخليج** إعداد إدارة المكتبات بالدارة .

(١٩) **دليل الدارة الثاني** إعداد قسم البحوث بالدارة .

(٢٠) **أعمال الحلقة الخامسة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج والجزيرة العربية** ، إعداد الدارة .

(٢١) **دراسة في الجغرافية الاقتصادية (المملكة العربية السعودية/ البحرين)**..

المؤلف **الدكتور أحمد رمضان شقليه** والكتاب من مطبوعات الدارة لعام ١٤٠٢ هـ وبلغت صفحاته (١٢٨) صفحة والكتاب

عبارة عن أبحاث ثلاثة تحدث فيها المؤلف عن صناعة تكرير النفط في المملكة الغربية السعودية ومشاريعه الإنمائية من حيث أحوال وظروف المتطلبات الجغرافية الطبيعية والبشرية، كما تحدث عن وسائل وطرق صيد الأسماك في شرق المملكة العربية السعودية وفي غربي الخليج العربي، كما تحدث أيضاً عن استخدامات الأرض في جزيرة البحرين وأعطى صورة حقيقية لنشاط سكان البحرين وحكومتهم من خلال حقائق وأرقام كل نشاط من الأنشطة الاقتصادية..

(٢٢) **نفح العود في سيرة دولة الشريف حمود: (مخطوط)**

ألفه الشيخ **عبدالرحمن البهكلي وحققه وعلق عليه الشيخ محمد بن أحمد العقيلي** وطبعته دارة الملك عبدالعزيز سنة ١٤٠٢هـ في الرياض وجاء في (٣٤٣) صفحة .

وهذا الكتاب يسجل لاثنى عشر عاماً من تاريخ جنوب المملكة وشبه الجزيرة العربية بوجه عام، والظروف التي أحاطت بقيام الدولة السعودية الأولى بوجه خاص وأثر الدعوة السلفية في المنطقة .

وقد تعرض المؤلف لنهضة البرتغال الاستكشافية كما تعرض للهولنديين ونشاطهم التجاري كما درس الحالة في الحجاز وجنوب الجزيرة .

(٢٣) **حالة الأمن في عهد الملك عبدالعزيز :**

ألفه **الأستاذ رابح لطفي جمعه** وطبعته دارة الملك عبدالعزيز في الرياض سنة ١٤٠٢هـ جاء الكتاب في (٣٢٧) صفحة وقسَّمه المؤلف إلى ثلاثة أبواب تحتوي على فصول ومباحث

متعددة تحدث فيها عن ظهور بطل الجزيرة المغفور له الملك عبدالعزيز، وعن حالة الأمن في الحجاز ونجد قبل الملك عبدالعزيز وبعده كما تحدث عن عوامل استتباب الأمن في عهد الملك عبدالعزيز وعزى ذلك إلى تطبيق الشريعة الإسلامية والاستقرار السياسي، والوعي الشعبي، والانتعاش الاقتصادي، ووجود جهاز شرطة حازم ومنظم .

(٢٤) **الملك فيصل والقضية الفلسطينية :**

طبعته دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤٠٢ هـ وهو من تأليف **الدكتور سيد عليوه**، وقد أتى الكتاب في خمسة فصول بلغت صفحاتها (١٥٥) صفحة .

والدراسة عرض شامل للقضية الفلسطينية عند الملك فيصل بن عبدالعزيز باعتبارها محور للسياسة الخارجية للمملكة العربية السعودية منذ أن برزت هذه القضية إلى عالم الوجود .

وقد ضم البحث فصولًا خمسة بدأت بالمقومات الأساسية للمشكلة من خلال السياسة العامة للمملكة ومرتكزها الأساسي هو التضامن الإسلامي والعربي في المقام الأول وبلورة هذه الدعوة إلى الواقع العملي ودون الوقوف عند حد النظريات والدعوات.. كما درس أبعاد القضية الفلسطينية ونتائج سياسة الملك فيصل تجاه القضية الفلسطينية، ومسار القضية بعد الملك فيصل .

(٢٥) **علاقة ساحل عمان ببريطانيا «دراسة وثائقية» :**

طبعته دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤٠٢ هـ وألفه **الدكتور عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم** جاء في (٥٠٠) صفحة قسَّمها إلى اثنى عشر فصلًا بالإضافة إلى ستة عشر ملحقاً.. درس فيه

المؤلف صلات الخليج العربي بالعالم الأوروبي في عهد البرتغاليين وبدء النفوذ البريطاني في الخليج، والعوامل التي ساعدت أهل الساحل العماني على مقاومة النفوذ البريطاني كما درس المؤلف معاهدات عام ١٨٠٦م، ١٨٢٠م، ١٨٥٣م، ١٨٩٢م، وتتبع تطور هذه التعهدات وكيف استغلتها بريطانيا في وجه القوى والتيارات المختلفة في المنطقة منذ أوائل هذا القرن الميلادي، كما درس طبيعة العلاقات بين مشيخات الساحل العماني والمملكة العربية السعودية .

(٢٦) **سياسة الأمن لحكومة الهند في الخليج العربي :**

دراسة وثائقية من تأليف **الدكتور عبدالعزيز عبدالغني إبراهيم** وطبعته دارة الملك عبدالعزيز عام (١٤٠٢هـ) أتى الكتاب في سبعة فصول وبلغت صفحاته (٣٢٦) صفحة ناقش فيه المؤلف المجهودات البريطانية للحفاظ على أمن البحر في الخليج العربي، وتطور مسألة الإتجار في السلاح ومكانها في الاستراتيجية الأمنية لحكومة الهند كما ناقش البحث علاقة حكومة الهند بالقوى المحلية والتأثيرات التي أحدثها البخار والبرق في سياسة الهند وبريطانيا .

(٢٧) **عنوان المجد في تاريخ نجد :**

هذا الكتاب من أهم كتب التاريخ التي دونت لتأريخ قيام الدولة السعودية ونموها واتساع مداها وبزوغ فجر الدعوة السلفية وانتشار شمسها وضحاها، وهو **للمؤرخ عثمان بن عبدالله بن بشر ومن تحقيق الشيخ عبدالرحمن بن عبداللطيف آل الشيخ** وأتى في جزئين ، وتأتي أهمية الكتاب في أن المؤلف

معاصر لمعظم الحوادث، وهو سجل دقيق للمواقع والحروب، والكتاب موسوعة حافلة بأسماء القبائل والعشائر وقامت الدارة بعمل العناوين والفهارس التفصيلية الشاملة وأتى في طبعة أنيقة منقحة .

(٢٨) **المرافيء الطبيعية على الساحل السعودي الغربي :**

هذا الكتاب طبعته دارة الملك عبدالعزيز سنة ١٤٠٢ هـ وهو من تأليف **الدكتور محمد أحمد الرويثي** وقد بلغت صفحاته (٧٧) صفحة .

ويتشكل هذا الكتاب من أربعة مباحث تقدم في مجموعها دراسة مقارنة للمرافيء الطبيعية على الساحل السعودي الغربي، وذلك من حيث البعد التاريخي لنشأة هذه المرافيء، والموقع والموضع، ثم دراسة العوامل التي أثرت في توزيعها سواء أكانت هذه العوامل جغرافية أو اقتصادية إلى جانب دراسة تصنيفها ووظائف مدنها وتركيبها المورفولوجي..

(٢٩) **السكان وتنمية الموانيء السعودية :**

طبعته دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤٠٢ هـ وهو من تأليف **الدكتور محمد أحمد الرويثي** ويقع في (٢٨) صفحة وقسَّم المؤلف كتابه إلى مباحث ثلاثة .

تحدث فيها عن الخصائص السكانية لمنطقة الساحل السعودي الغربي من حيث الإحصاءات السكانية، والنمو السكاني وتوزيع السكان والكثافة ثم توزيع السكان حسب النشاط الاقتصادي، كما تعرض للموانيء الحالية، فدرس تطوير الموانيء خلال القرن العشرين ومركز الموانيء على المستوى القومي والإقليمي كما تحدث عن مقومات تنمية الموانيء من حيث اقتصاديات الموقع

والظروف والسكان والموانيء والمواصلات والكتاب موضح بالجداول والخرائط المفهرسة .

(٣٠) **كيف كان ظهور شيخ الإسلام محمد بن عبدالوهاب: (مخطوط)** .

هذا الكتاب الصغير الذي أتى في (١٩١) صفحة من الحجم الصغير، عبارة عن مخطوطة لمؤلف مجهول درسها وحققها **الدكتور/ عبدالله بن صالح العثيمين** وطبعته دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤٠٣ هـ .

درس هذا الكتاب التغير الذي أحدثته دعوة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، في تاريخ الجزيرة العربية وجاء في تسعة وثلاثين فصلًا، وتأتي ميزة هذا الكتاب في أنه قد أُلِّف قبل تاريخي ابن بشر والفاخري لأن الفترة الزمنية التي تناولتها أحداثه لا تمتد إلا لما بعد مقتل الإمام عبدالعزيز بن محمد سنة ١٢١٨ هـ.. بسنوات قليلة..

(٣١) **النفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري:**

هذا البحث نالت به **نوال حمزة الصيرفي** درجة الماجستير في التاريخ وطبعته دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤٠٣ هـ وعدد صفحاته (٢٢٣) وجاء في أربعة فصول .

درست فيه المؤلفة الخليج العربي قبل النفوذ البرتغالي والعوامل التي أدت إلى حركة الكشوف الجغرافية وناقشت فضل البحارة العرب في كشوف البرتغاليين والنفوذ البرتغالي في الخليج العربي في القرن العاشر الهجري وموقف العثمانيين والصفويين.. وتطرقت لمحاولات البرتغاليين للسيطرة على تجارة السلع الشرقية وحملاتهم في جنوب الجزيرة العربية ..

(٣٢) **بلاد الحجاز منذ بداية عهد الأشراف حتى سقوط الخلافة العباسية في بغداد :**

طبعته دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عام ١٤٠٣ هـ ومؤلفه **الدكتور سليمان عبدالغني مالكي** وهو من الحجم المتوسط ويقع في (٢٥٨) صفحة وينقسم إلى أربعة فصول .

عرض فيه المؤلف للناحية السياسية ولتلك الظروف التاريخية التي أدت إلى قيام حركة الأشراف في الحجاز ، كما تناول الأحوال الاقتصادية، فدرس النشاط التجاري والعلاقات الاقتصادية بين الحجاز والمدن الإسلامية ، كما درس الحياة الاجتماعية في بلاد الحجاز متناولًا طبقات المجتمع الحجازي في كل من المدينتين المقدستين ، كما تحدث المؤلف عن الحياة العلمية مبرزاً المراكز العلمية ، وعلى رأسها المسجدان المكي والنبوي الشريف ثم الكتاتيب والمدارس .

(٣٣) **العلاقة بين نجد والكويت ١٣١٩-١٣٤١ هـ :**

المؤلف هو **خالد حمود السعدون** طبعته دارة الملك عبدالعزيز وجاء في خمسة فصول وبلغت صفحاته (٣٨٦) صفحة .

بدأه المؤلف بمداخل إلى فترة الدراسة عام ١٣١٩ هـ فدرس وضع الدولة العثمانية والصراع الدولي على الخليج والأوضاع في نجد والكويت ثم درس مرحلة التحالف المطلق ثم مرحلة الاختلاف ضمن إطار التحالف ، كما عقد فصلًا بعنوان الطريق إلى الوفاق وحل المشاكل .

(٣٤) **السمات الحضارية في شعر الأعشى :**

هذا الكتاب طبعته دارة الملك عبدالعزيز عام ١٤٠٣ هـ ومؤلفته الدكتورة/ **زينب عبدالعزيز العمري** ويقع في (٤٣٨) صفحة وجاء في ثلاثة أبواب .

تحدثت فيه المؤلفة عن الظواهر الحضارية في شعر الأعشى فدرست بيئته ونسبه وقبيلته، وتناولت الجوانب الثقافية والاجتماعية في شعره، ثم تناولت المؤلفة لغة الشاعر، ودراسة القضايا الدلالية عنده، والآثار اللهجية والآثار الأجنبية في الديوان، كما تناولت حضارة العصر في الصورة الشعرية، كما تمثلت في ذهن الأعشى..

(٣٥) **الملك عبدالعزيز في مرآة الشعر** :

طبعته دارة الملك عبدالعزيز بالرياض عام ١٤٠٣ هـ وهو من تأليف **الأستاذ: عبدالقدوس الأنصاري** وجاء الكتاب في (١٣٥) صفحة درس فيه المؤلف القصائد التي قيلت في مدح الملك عبدالعزيز يرحمه الله وقسَّمه إلى قسمين :

شعر الملامح : هو الشعر الذي يصف ويصور ويجسد الشمائل والملامح والمفاخر والمآثر وقد بلغ عدد شعراء هذا النوع تسعة عشر شاعراً .

والنوع الآخر شعر الملاحم : وهو الشعر المعروف بشموله لكل من سيرة البطل الذي نظمت فيه الملحمة الشعرية، وانتصاراته الحاسمة، وقد ولج هذا القسم شاعران كبيران هما: خالد الفرج صاحب ملحمة «أحسن القصص» وبولس سلامة صاحب ملحمة «عيد الرياض» .

(٣٦) **الصهيونية والقضية الفلسطينية** :

هذا الكتاب من تأليف **الدكتور عاصم الدسوقي** وقد طبعته

دارة الملك عبدالعزيز في الرياض عام ١٤٠٣ هـ ويقع في (١٧٢) صفحة من الحجم المتوسط قسَّمه المؤلف إلى أربعة فصول إضافة إلى خمسة ملاحق .

والكتاب يمثل إسهاماً في دراسة الصراع العربي الإسرائيلي ويقوم على مضابط لجنة الشئون الخارجية بالكونجرس الأمريكي خلال الفترة من عام ١٩٤٣ إلى ١٩٤٥م والكتاب يبين كيف أن لجنة المناقشة كانت تسعى إلى كيفية إنقاذ يهود أوروبا من يد النازية الألمانية، ثم فَرْضُ عملية الإنقاذ على الوضع في فلسطين لأولئك اليهود .

(٣٧) **فهرس مكتبة الملك عبدالعزيز: أعدته الدارة**

وما زالت هناك مجموعة من البحوث والدراسات في طريقها للمراجعة والتحقيق، وعمل الدراسات اللازمة عليها قبل دفعها للمطابع قريباً إن شاء الله .

ثانياً – كتب ساهمت الدارة في طباعتها :

١ – النثر الأدبي في المملكة العربية السعودية: للأستاذ الدكتور محمد عبدالرحمن الشامخ .

٢ – الدولة السعودية الثانية: للأستاذ الدكتور عبدالفتاح حسن أبو علية .

٣ – مدينة الرياض: دراسة تاريخية وجغرافية: للأستاذ الدكتور محمد عبدالرحمن الشريف .

٤ – أمجاد الرياض في حياة المغفور له الملك عبدالعزيز (ديوان شعر): للأستاذ الدكتور محمد عيد الخطراوي.

٥ – الأمثال العامية في نجد: للشيخ محمد العبودي .

ثالثاً – محاضرات قامت الدارة بطباعتها :

ولم تأخذ أرقاماً مسلسلة ضمن مطبوعات الدارة، وهي المحاضرات التي ألقاها **سعادة الأستاذ محمد حسين زيدان**، عضو مجلس الإدارة، ورئيس تحرير مجلة الدارة.. وهذه المحاضرات هي :

- بنو هلال بين الأسطورة والحقيقة .
- العرب بين الإرهاص والمعجزة .
- المنهج المثالي لكتابة تاريخنا .
- رحلات الأوربيين إلى نجد وشبه الجزيرة العربية .

(٢) المكتبـــة :

أنشأت الدارة مكتبة، وزودتها – بالمراجع والمصادر والدوريات التي تعين الباحثين والدارسين، والزائرين لها بقصد القراءة والاطلاع وتفيدهم فيما يبحثون.. وقد هيأت الدارة لهم مكاناً ملائماً للقراءة والاطلاع ووفرت لهم متخصصين يقومون على خدمتهم، وتوفير احتياجاتهم من المراجع بل وإرشادهم إلى مايفيدهم من مصادر تخدمهم في موضوع بحثهم.. والعمل على تصوير مايحتاجونه من تلك المراجع إذا لم يكن متوفراً في سوق الكتب.. وقد بلغ عدد المراجع والكتب والمجلدات في المكتبة ٣٠,٠٠٠ ثلاثين ألف مجلد عربي وأفرنجي ، وبلغت الدوريات ٢٢٥ دورية عربية وافرنجية، ويجري تزويد المكتبة بشكل مستمر بالكتب والمراجع التي تخدم الباحثين.. ويتولى جهاز المكتبة من المتخصصين القيام بفهرسة وتصنيف تلك الكتب والمراجع أولاً بأول .

(٣) المركز الوطني للوثائق والمخطوطات :

لقد هيأت الدارة مقراً مؤقتاً للمركز الوطني السعودي للوثائق والمخطوطات والذي انضم للدارة بموجب الموافقة السامية الكريمة رقم ١٢٦٠٨/٥ وتاريخ ١٣٩٦/٥/٢٠هـ، وذلك بتوفير وسائل الحفظ والصيانة، وعمل الفهرسة والتصنيف اللازمين، كما تم جمع كثير من الوثائق الانجليزية والتركية التي تتعلق بتاريخ المملكة.. وكذلك يتم جمع المخطوطات أو تصويرها مما له علاقة بتاريخ المملكة وتراثها.. والتراث الإسلامي بشكل عام.. وقد بلغ مالدى الدارة من وثائق ٢٨٥١ وثيقة عربية، ٥٠٠٠ وثيقة تركية، ٦٥٠٠٠ وثيقة انجليزية من بينها ٤٥٠٠٠ وثيقة على ميكروفيلم .

وبلغت المخطوطات ١٣٠٠ مخطوطة، منها على ورق ومنها على ميكروفيلم، ويجري ترجمة الوثائق التركية والانجليزية، كما يجري تصنيف جميع الوثائق وفهرستها وتبويبها لوضعها أمام الباحثين للاستفادة منها فيما يدرسونه أو فيما يعدونه من اطروحات علمية .

ومما يلاحظ زيادة الإقبال على الدارة من قبل الباحثين وطلاب الجامعات السعودية الذين يعدون اطروحات لنيل الدرجات العلمية وذلك لما لمسوه من مساعدتهم، وتزويدهم بالكتب والمراجع، وتمكينهم من الاطلاع على الوثائق، وتصوير المراجع الغير متوفرة في المكتبات الأخرى . وكثير منهم يشيدون بدور الدارة في مساعدتهم في مقدمة رسائلهم واطروحاتهم العلمية..

(٤) قسم التصوير :

تم إنشاء قسم للتصوير يحتوي على أحدث الآلات والمعدات والأجهزة الضرورية، واللازمة للتصوير الفوتوغرافي، والتسجيلي، والوثائقي، والاستنساخ الميكروفيلمي، بحيث أصبح يزوّد الدارة بكل احتياجاتها ويساهم في نشاطها، وخاصة تصوير الوثائق والمخطوطات، واستنساخها، وتسجيل أفلام وثائقية .

(٥) قاعة الملك عبدالعزيز التذكارية :

وتعتبر مرجعاً تاريخياً حياً يضيف دراسة علمية متطورة إلى التراث الإنساني والتاريخي العربي والإسلامي الحديث، وهي في نفس الوقت ترجمة صادقة لمكانة الملك عبدالعزيز في قلوب شعبه، وفي وجدان الأمة العربية والإسلامية، وتضم كل مايصور حياة الملك عبدالعزيز، وآثار الدولة السعودية .

وثمة أقسام فنية أخرى تضمها الدارة : قسم الرسم والخط، وقسم التجليد..

(٦) مجلة الدارة :

هي مجلة علمية محكمة تعنى بتراث وفكر المملكة والجزيرة العربية، تصدر أربع مرات سنوياً، صدر العدد الأول منها في غرة شهر ربيع الأول عام ١٣٩٥ هـ ، ثم توالى صدورها بعد ذلك بلا انقطاع، ولقد تخصصت في الأبحاث والدراسات العلمية، وهي تواكب الأحداث العلمية والثقافية والفكرية على الصعيدين المحلي والعالمي، وتساهم في المؤتمرات والندوات، وتعايش الأحداث والمناسبات الوطنية وتبرزها في صورة أعداد خاصة وتذكارية .

وهناك أقسام إدارية أخرى .

وهكذا قامت الدارة لأجل تحقيق الأهداف العلمية النبيلة ونهضت بواجبها لخدمة البحث وإحياء التراث العربي الإسلامي ونشر الدراسات الجغرافية والتاريخية والأدبية وإقامة الندوات والمؤتمرات التي تتوسم من ورائها إلى رسم الطريق المشرق لمسيرة العلم والمعرفة والثقافة وتقديم الزاد الفكري النافع للقارئ والباحث..

أيها السادة الكرام :

إن الوقت الذي منحته قصير والكلام الذي أريده كثير ، لكني أوثر وقتكم الثمين ، وأختم القول بالشكر لكم جميعاً والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

• الخصائـــص التاريخيـة للمدينـة العربيـة (*) •

أيهـــا الســـادة :

أحييكم في هذه الأمسية الطيّبة ، وفي هذه الندوة المباركة ، في طيبة الطيّبة ، المباركة ، حيث يُعقد هذا الاجتماع الكبير ، ويشارك بالحضور فيه هذا الحشد العظيم ، من أرجاء الوطن العربي ، بهدف الرفع من مستوى المدينة العربية وخدمتها ، وتحقيق أهدافها العامة وتطويرها ، مع الحفاظ على هويّتها العربية وخصائصها التاريخية وتراثها الحضاري والمعماري ، وإبراز أصالتها الإسلامية.. وإن الباحث عن تطوير المدينة العربية لا بد أن يبحث عن تاريخها وجغرافيتها وتراثها وان الاهتمام بالمدن من قبل المؤرخين والباحثين قديم قدم الحضارة .. ومعذرة أيها الأخوة فأنا بينكم كجالب التمر إلى هجر لقلة بضاعتي في هذا المجال ولكن لابد مما ليس منه بد .

إنَّ دارة الملك عبدالعزيز مركز أبحاث تاريخية وعلمية تعني بالدرجة الأولى بتاريخ المملكة وجغرافيتها وآدابها وآثارها الفكرية والعمرانية وبالعالم العربي والإسلامي وتبذل كل ما في وسعها لمعاونة الباحثين وتوفير المصادر والمراجع والوثائق والخرائط وكل ما من شأنه أن يعين الباحثين.. ولا يسعني إلا أن أتقدم بالشكر لدعوتكم لي للمشاركة بهذه الندوة والحديث عن : الخصائص التاريخية للمدينة العربية وعن العلاقة بين التراث الحضاري الإسلامي ونمو المدينة العربية حقيقة ليست كل المدن العربية والإسلامية ينقصها التخطيط ، ولكن هناك مدن نمت بعد الإسلام

(*) محاضرة ألقيتها في ندوة المدينة العربية التي عقدت في المدينة المنورة في ١٤٠١/٤/٢٦ هـ . والتي نظمها المعهد العربي لإنماء المدن .

بصورة طبيعية ، وربما كانت هذه المدن أكثر من المدن التي خطط لتأسيسها. فلو نظرنا إلى المدن العربية الإسلامية التي ظهرت للدنيا لما وجدنا اختلافاً في تخطيطها. فقد تشابهت هذه المدن في تخطيطها وتكوينها وإلى زمن قريب كان يصعب على الناظر إلى صورها أن يفرّق بينها .

وقد تضافرت عدة عوامل أدت إلى ظهور المدن الإسلامية وازدهارها منها :

١ – العامل الديني :

يحث الدين الإسلامي الحنيف بتعاليمه على حياة الاستقرار والتحضر والتجمع البشري، فمن الفرائض الدينية كالصلاة ينبغي أن تقام جماعة وكذا صلاة الجمعة . فهي تتطلب التقاء المسلمين في مساجد المدن الرئيسية كما أن بعض المهن المدنية كالتجارة – كانت من المهن المرغوبة بدليل أن النبي ﷺ عمل بالتجارة وكذلك أصحابه الذين دخلوا في الإسلام وانضموا تحت لوائه ونصروه وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم لإعلاء كلمة الحق ونشر الإسلام بين الناس. هؤلاء كانوا ينتمون إلى الطبقة العاملة بالتجارة من قريش والتي كانت تسيطر على تجارة القوافل –وعندما أعلن الرسول الكريم ﷺ للناس أن يتوجهوا إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة لمعرفة رسالة الإسلام ومبادئه وتعاليمه ، فقد شجع بذلك على الهجرة إلى المدن والاستقرار فيها وأعطى لحياة المدن أهمية دينية .

٢ – العامل العسكري :

لم تكن المدن الأولى التي أوجدتها الجيوش الإسلامية مدناً بالمعنى الحقيقي المعروف للمدينة وإنما، كانت معسكرات بنيت بجوار

المناطق الصحراوية وشبه الصحراوية لتكون حلقة اتصال بين مركز تجهيز الجيوش (شبه الجزيرة العربية) والجهات الحربية ، ولم تكن هذه المعسكرات في باديء الأمر محاطة بأسوار أو منظمة ، ولكنها نمت وأصبحت مدناً وذلك لتوفير العوامل الضرورية لنموها .

وقد سميت هذه القواعد العسكرية بالفسطاط (والفسطاط هو البيت من الشعر وعادة يطلق على كل المدن) .

٣ - العامل السياسي :

بنى حكام المسلمين مدناً لتثبيت حكمهم ولتكون دليلًا على عظمتهم، وقد اتخذت هذه المدن كعواصم للعالم الإسلامي في فترات الحكم المختلفة لتقوم بالوظائف السياسية والإدارية، كما وأن أغلب الفاتحين لم يفضلوا سكن المدن القديمة لكي لا يصبحوا أقلية بين السكان الأصليين، وهناك بعض الظروف السياسية التي دعت إلى بناء مدينة جديدة لتنافس المدينة القديمة وتضعف نفوذها السياسي .

٤ - العامل الاقتصادي :

كان للعامل الاقتصادي أثره البالغ في بناء بعض المدن العربية الإسلامية لقد كان العرب قبل الإسلام وبعده -وخاصة في شبه الجزيرة العربية- من المولعين بمهنة التجارة، وخاصة تجارة القوافل وكان للموقع الجغرافي للمشرق العربي باعتباره الممر للطرق التجارية بين جنوب شرق آسيا وأوروبا -فقد كانت المنتجات

الآسيوية تنقل عبر المحيط الهندي ثم الخليج العربي. وعند رأس الخليج كانت قوافل الإبل تتسلم هذه الخيرات وتحملها عبر الصحراء مارة بمدن رئيسية مثل بغداد والموصل ثم حلب ودمشق إلى موانى الساحل الشرقي للبحر المتوسط، ثم تنقل بحراً مرة أخرى حتى تصل إلى أوروبا. وقد شجعت هذه الحركة التجارية على قيام المدن في قلب الصحراء وعلى ضفاف الأنهار وسواحل البحار التي تمر بها هذه التجارة. ويطلق على المدن التي نشأت في الصحراء لهذا الغرض «مدن القوافل» .

نتيجة لهذه العوامل نشأت المدن العربية الإسلامية، وقد كانت المدن العربية الإسلامية متشابهة في تخطيطها وعناصرها إلى حد كبير، لدرجة يصعب معها التفريق بينها، إن النوعين مختلفان شكلًا إلا أن عناصرهما ومكوناتهما من ناحية التخطيط لا تختلف .

ولقد كان المسلمون يبدأون ببناية المسجد الجامع في وسط المدينة سواء الدائرية التخطيط أو ذات المحاور المتعامدة، وبعد بناء المسجد الذي يجتمعون فيه لأداء عبادة الصلاة الجماعية والأعياد. ولم يكن المسجد يؤدي هذه الوظيفة فقط ولكنه كان – منذ أن بنى النبي ﷺ مسجده بالمدينة المنورة – مركزاً سياسياً واجتماعياً وحضارياً فقد كان عليه الصلاة والسلام يلتقي فيه برجاله وسفرائه . وكثيراً ما كانت المحاكم تعقد في المسجد – وكان المسجد مركزاً ثقافياً لدراسة القرآن وحفظه والجامع كان من المراكز المهمة للعلم والمعرفة كما كان في مساجد الكوفة والبصرة والفسطاط والقيروان وغيرها .

وبعد بناء الجامع يأتي دور السوق في المدينة وهو المركز التجاري الرئيسي، وبعد السوق نجد المنطقة السكنية وكانت المنطقة السكنية تحيط

بالسوق وتتصل به بواسطة الشوارع الرئيسية في المدينة وكانت الشوارع في داخل المنطقة السكنية ضيّقة وملتوية وذلك لعدة أسباب أوضحها المؤرخون والجغرافيون منها :

(أ) كان للنظام الاجتماعي القبلي أثر كبير فقد كان أفراد القبيلة الواحدة يسكنون في جهة واحدة من المدينة أي لهم ساحة خاصة بهم في المدينة وكانت تجمع بينهم روابط قوية ففضلوا السكن قريباً من بعضهم فكانوا يشيدون دورهم متجاورة متلاصقة فنمت المدينة بذلك بطريقة غير نظامية .

(ب) كان ضِيق الشوارع يعطي للمدينة شكلًا محتشداً مما يساعدهم في الدفاع عن مدينتهم وأنفسهم ضد الغارات الخارجية .

(جـ) كانت تلك الشوارع تستعمل كمسالك للإنسان وممرات للحيوانات .

(د) جعلت تلك الشوارع ضيّقة لتكون محمية من أشعة الشمس المحرقة في المناطق الصحراوية. ومما يؤيد ذلك هو تغطية بعض أجزاء الشوارع عن قصد بواسطة تلاقي الشرفات المتقابلة – وكانت هناك ظاهرة أخرى في المدينة وهي ظاهرة الأزقة غير السالكة أو المقفلة . ويمكن تبريرها بسهولة حصر الغزاة إذا ما تعرضت المدينة لهجمات خارجية .

وكان للإسلام أثر كبير على معظم المدن العربية سواء التي كانت موجودة قبل الإسلام أو التي جدّت بعد ظهوره .

وهناك مراكز دينية على قدر كبير من الأهمية حيث يقصدها الزائرون من مسافات بعيدة وتعتبر من أهم المدن العربية الإسلامية شأناً وهي عادة

إما أن تكون مدناً كبيرة أو متوسطة الحجم مثل مكة المكرمة والمدينة المنورة والقدس الشريف ، فمكة المكرمة يقصدها مئات الآلاف من الحجاج لأداء فريضة الحج لأنها تعتبر المركز الديني الرئيسي للعالم الإسلامي قاطبة وتتميز مثل هذه المدن والمراكز الدينية ببعض الخصائص منها :

أولاً : احتواؤها على عدد كبير من المساجد .

ثانياً : تعدد قوميات وأجناس ولغات هذه المدن أو المراكز سواء الزائرين لها أو المقيمين فيها .

ثالثاً : من أهم خصائص هذه المدن أو المراكز الدينية أن عنصر الضيافة وإيواء الزائرين من العناصر الهامة للأساس الاقتصادي لها ولذلك تكثر الفنادق ودور الضيافة –ونجد بمكة كثيراً من الفنادق والعمارات المتعددة الطوابق التي لا تستعمل أو تؤجر إلا وقت الحج وللمعتمرين .

رابعاً: إلى جانب الوظيفة الدينية لهذه المدن أو المراكز الدينية نجد أن هناك ارتباطاً وثيقاً بين وظيفتها الدينية ونشاطها التجاري فمكة المكرمة تعتبر من أهم المراكز التجارية ويمكن الاستدلال على ذلك من كثرة أسواقها وتتحول في موسم الحج إلى سوق تجارية نشطة وقد لا تنام خلال أيام الحج وذلك كله لتوفير البضائع وخاصة الهدايا والخدمات للحجيج .

بعد ظهور الإسلام وانتشاره بدأ المسلمون في بناء المدن في زمن مبكر إذ ما كادوا يفتحون العراق ومصر ويصلون إلى تونس في زمن عمر بن الخطاب رضى الله عنه حتى وضعوا أسساً لأربع مدن واستمروا في بناء المدن حتى العهود الإسلامية المتأخرة .

وقد كان الهدف والدافع الأول لبناء المدن الإسلامية هو الغاية الحربية في الدرجة الأولى وذلك لإقامة الجند وإنزال الجاليات العربية المشتركة في الفتح. ولما استقر الحكم الإسلامي أصبحت المدينة إما حاضرة أو مركزاً للتجارة .

وقد احتفظ العرب حتى بعد نزولهم في المدن وممارستهم الحياة المدنية بالتنظيم القبلي وظلوا ينتسبون إلى القبيلة لا إلى المدينة ولهذا كانت المدن تقسم عند تخطيطها إلى أحياء خاصة تسمى الخطط أو القطائع ينزل في كل خطة أو قطعة قبيلة من القبائل .

وسنتعرض فيما يلي لبعض المدن العربية الإسلامية الأولى :

أولا : الكـوفـة :

الكوفة هي المدينة الإسلامية الثانية بعد البصرة التي أسست في العراق بعد الفتح العربي، وقد أسسها القائد سعد بن أبي وقاص «رضي الله عنه» عام ١٧ هجرية بأمر الخليفة عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» وهي تقع في الجانب الغربي من نهر الفرات وكان السبب الرئيسي لتأسيسها أن تكون قاعدة عسكرية للقسم الأوسط من العراق ولتكون دار هجرة وعاصمة للمسلمين بدل المدائن. وكانت الكوفة منذ إنشائها موطن المجاهدين العرب ومركز القوة الإسلامية كما رسم لها حين إنشائها ثم نمت بعد ذلك وكثر فيها العمران وازدهرت ازدهاراً كبيراً ووصلت إلى أوج عظمتها في العصر الأموي . وأخذت الكوفة دورها الكبير في الحياة الإسلامية مما أدى إلى ازدهارها وتناولتها أحداث الحياة المتلاحقة واحدة تلو الأخرى في بداية نشأتها . ثم تضاءلت وتحوّلت إلى بلدة بسيطة بعد أن كثر الوافدون عليها فأصبحت مركزاً للدسائس والمؤامرات والثورة إلى نهاية العصر الأموي ويبدو أنه حين انتصرت الدعوة العباسية اتخذها

العباسيون قاعدة لملكهم وإن لم يقيموا فيها ومن المحتمل أنهم أحسوا أنها مركز العلويين مما جر عليها الخراب .

وتعتبر الكوفة بصورة عامة ثغراً من ثغور البادية ومحلا لتبادل التجارة، كما كانت جسراً للاتصال بين الجماعات والقبائل العربية المنتشرة في البادية وأهل المدن والقرى التي تجاورها .

وقد بدىء بتخطيط الكوفة وتأسيسها بعد الفتح العربي للعراق وحاجة المسلمين إلى الاستقرار. وكان قد استقر رأيهم في بادىء الأمر على المدائن عاصمة الدولة الساسانية لأن العرب قد فطروا على حب الصحراء ذات الفضاء الواسع والهواء النقي. وكانت المدائن محاطة بالمياه والمستنقعات مما يجعلها عرضة لأخطار الفيضانات وانتشار الحشرات ثم أن المدائن قريبة من الحدود الفارسية وبعيدة عن مركز الخلافة مما يهدد أمن المسلمين وسلامتهم. كما أن احتلال هذا المكان المتوسط للعراق يضمن للمسلمين السيطرة على طول نهر الفرات وذلك لقربه من البادية المجاورة للصحراء وكذلك اتصاله بالطرق الرئيسية من جميع الاتجاهات علاوة على خلو المنطقة من العوارض الطبيعية التي تسهل للمسلمين الهجوم والانسحاب والتنقل في أثناء القتال بحركة كاملة .

وأرض الكوفة عبارة عن سهول عالية فوق مستوى سطح البحر بحوالي ٢٢ متراً وبذلك لا تهددها الفيضانات. وحيث أن موقعها بجانب النهر فتربتها خصبة صالحة للزراعة .

وكان بذلك موقعها منيعاً مأموناً بعيداً عن الأخطار فتحدّها الصحراء من الغرب، ويحدّها نهر الفرات من الشرق حيث يمكن قطع الطرق على الأعداء القادمين من النهر وعرقلة تقدمهم. يضاف إلى هذا كله وفرة المياه في نهر الفرات ووجود الأرض الخصبة الصالحة للزراعة والسكن وهذا

كله مما جعل المدينة تنشأ وتنمو بسرعة وكان من الممكن استغلال الأراضي البعيدة عن النهر في حالة توسع المدينة وانتشار العمران وامتداده وذلك لأن المياه الجوفية ليست بعيدة عن سطح الأرض مما يسهل حفر الآبار واستغلال المياه للشرب أو الزراعة .

فالكوفة بذلك تقع في مكان حيوي يتوسط العراق ويمكن منها فرض السيطرة على طول منطقة نهر الفرات من الناحية الحربية ويجعلها ممراً هاماً في طريق القوافل التجارية ومحطة في طريق الحج إلى مكة ويساعد موقعها هذا على أن تكون مركزاً للتجارة وسوقاً نشطاً للتبادل التجاري . ومما يزيد من أهمية موقع الكوفة أنها منذ إنشائها كانت ملتقى عدة طرق رئيسية وهامة وذلك لوقوعها على نهر الفرات من ناحية، ومن ناحية أخرى توسطها للعراق. وكانت هذه الطرق تلتقي جميعاً في مركز المدينة وتتفرع من المدينة إلى جهات أخرى .

وهكذا نرى أن موقع مدينة الكوفة منذ إنشائها مهم وذلك لوقوعها في هذا المكان المتوسط من العراق وأنها كانت ملتقى طرق رئيسية وكانت تمثل مركز اتصال بين أرجاء هذا القطر الإسلامي وكذلك وقوعها على نهر الفرات الذي استخدم كطريق مائي للاتصال بمدن العراق الجنوبية وخاصة مدينة البصرة .

ومن ناحية تخطيط مدينة الكوفة وبنائها فقد كانت على غرار مدينة البصرة التي سبقتها في التخطيط بعامين أو ثلاثة وكان المسجد الجامع ودار الإمارة أول أبنيتها . وما أن حطت القبائل رحالها في المدينة الجديدة حتى بدأ العمران وتوافد عليها الناس من كل جهة . وكان أول الوافدين عليها بعد العرب الفرس وكان عددهم أربعة آلاف رجل ممن كانوا في الجيش الفارسي وشهدوا القادسية مع رستم وقد فاوضوا سعداً على أن ينزلوا

الكوفة حيث أحبوه وحالفوه وفرض لهم العطاء وأنزلهم سعد حيث أحبوا واختاروا وكان لهم نقيب منهم يقال له (ديلم) فأطلق عليهم (حمراء ديلم) لأن العرب كانت تسمي العجم بالحمراء . ونزل الكوفة بعد الفرس السريان الذين كانوا يسكنون الديار التي كانت قائمة في أطراف الحيرة والنجف ممن أصبحت لهم صلات بالمجتمع الكوفي، ومن المعروف تاريخياً أن سعد بن أبي وقاص رضى الله عنه حين اتجه إلى موضع هذه المدينة لتخطيطها اتجه أولًا إلى اختيار موضع لمسجدها الجامع في مكان يتوسطها ودار الإمارة متصلة بالمسجد وبيت المال أي أن المسجد ودار الإمارة وبيت المال كانت كلها تؤلف قسماً من أقسام المدينة له كيانه الخاص المستقل، ثم حدد المخططون بعد ذلك الطرق والسكك . وقد لاحظوا في تخطيطهم لهذه الطرق أن تكون موصِّلة إلى القسم المشتمل على دار الإمارة والمسجد وبيت المال ليتيسَّر لعامة المسلمين الاتصال بالوالي وأداء فرائض دينهم وجباية الأموال وردها إلى بيت المال .

ولما انتهى أمر ذلك كله تحوَّل المخططون يقطعون القطائع والدور للصحابة والجند، فقد أمر سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه أصحاب القطائع والدور أن يختطوها بما تشتمل عليه من مرافق تهيئ لهم سبل الإقامة والاستقرار وأن على كل قبيلة أن تختط المكان الذي خصص لها .

وقد ذكر ياقوت في «معجم البلدان» أسماء بعض الذين أشرفوا على التخطيط بإذن من سعد بن أبي وقاص ومنهم السائب بن الأقرع وأبو الهياج، ولما انتهى أمر تخطيط المدينة وتخصيص كل قسم منها لجماعة معينة من العرب بدأ البناء والتشييد يأخذ طريقه إلى الوجود وكان أول ماشيّد من الأبنية المسجد ودار الإمارة وبيت المال، ثم أعقب ذلك تشييد الدور والمساكن وبذلك أسرع إلى المدينة النمو والتوسع والامتداد في فترة قصيرة وأصبحت عامرة وآهلة بالسكان .

وقد التزم المشرفون على تخطيط مدينة الكوفة ببيان عمر بن الخطاب «رضي الله عنه» الذي أرسله لسعد بن أبي وقاص لما ينبغي أن تكون عليه سكك الكوفة وطرقها وأزقتها حينما شرع سعد في تخطيط مدينة الكوفة فأمر عمر بن الخطاب أن تكون كل قطعة أربعين ذراعاً وبين كل قطعتين طريق عرضه عشرون ذراعاً .

وأما الأزقة فقد أمر عمر أن يكون كل منها سبعة أذرع . وبعد أن تم ذلك نزلت كل قبيلة في الموضع الذي خصص لها فنجد مثلًا أن أهل اليمن نزلوا في الجانب الشرقي من المسجد،وقد كان الجانب الشرقي هذا خير المواضع في مدينة الكوفة لأنه يقع بين نهر الفرات والمسجد ولأن أهل اليمن كانوا أكثر تعداداً من أي قبيلة أخرى .

وخصص المشرفون على تخطيط المدينة قطائع فرعية دون القطائع الرئيسية في المساحة ولكنها تلاقيها من أطراف مختلفة وقد خطت وراء صحن المسجد وذلك لنزول المحاربين والقواد حين عودتهم من الفتوح .

وأما بالنسبة لسكك مدينة الكوفة فقد راعى المشرفون في تخطيطها وتنظيمها أن يكون عرض السكة الواحدة خمسين ذراعاً من أذرع اليد وكانت تتخلل هذه السكك بعض الأزقة والدروب وكانت بعض هذه السكك تنار أثناء الليل بالمشاعل .

بعد أن انتهى المشرفون من تخطيط سكك الكوفة وطرقاتها خطوا حول المسجد بعض الدور وكانت هذه الدور مساكن للصحابة والوجوه وقد أقطع عمر بن الخطاب رضي الله عنه قطائع خاصة بالكوفة لأصحاب رسول الله ﷺ مثل أسامة بن زيد وحذيفة بن اليمان وأبا موسى الأشعري وغيرهم من الصحابة الذين نزلوا الكوفة واتخذوا منها مقراً لعيشهم – ولما كانت المدينة ملتقى طوائف مختلفة من العرب فمنهم المحاربون وأهل الفقه

والدارسون للغة والأدب فيما بعد، فقد كان طبيعياً أن تخط فيها بعض الأسواق لتنظيم الحياة الاقتصادية والاجتماعية والفكرية لتحقيق التعاون بين هذه الطوائف في نظام الحياة والعيش – وخطت الأسواق في الجهة الشرقية من المسجد بالقرب من دار الإمارة لأن سعداً أغلق باب الدار من جهة السوق حتى لا يتسرب إليه ضجيج القاصدين إلى السوق .

وكانت الأسواق في باديء الأمر أرضاً فضاءً لا بناء فيها ولا سقوف سوى قطع من الحصير كان يضعها الباعة لتظلهم في الأماكن التي يختارونها من السوق. وكان نظام الأسواق عند أهل الكوفة على سنة المساجد فمن سبق إلى موقع فهو له حتى يفرغ منه .

وظلت أسواق الكوفة على حالتها حتى ولاية خالد بن عبدالله القسرى في العصر الأموي . فقد كان أول من بنى الأسواق في الكوفة بناءً محكماً وصنف الأسواق حسب عروض التجارة والتي تعرض فيها .

وكان في الكوفة أيضاً أسواق أخرى تعرض فيها أشياء خاصة كسوق الصيارفة وكان بين حوانيت هذه الأسواق ديوان للمحتسب .

وفي الواقع فإن تخطيط مدينة الكوفة لم يقتصر على المسجد الجامع وحده بل خطت مساجد أخرى صغيرة للقبائل حسب مواضعها من التخطيط وذلك لتيسير العبادة على المصلين ولاجتماع المسلمين في صلاة الجمعة في المسجد الجامع وبذلك أصبحت كل خطة من خطط المدينة تشتمل على مسجد .

وفضلًا عن المساجد التي اختطت للقبائل فقد اختصت كل قبيلة بجباية أو مقبرة خاصة بها – ويبدو أن القصد من ذلك في أغلب الظن هو المحافظة على سلسلة النسب وتذكير الأبناء بمجد الآباء ولتكون آثارهم

تذكرة لأبنائهم بما قدموه من عمل في سبيل الدعوة الإسلامية والتمكين لها .

هذا وقد اشتملت بعض الأحياء القبلية بعد تخطيطها على بيع وأديرة لأهل الذمة الذين كانوا يعيشون في كنف الدولة الإسلامية وذلك تمكينهم من أداء شعائرهم الدينية تحت كفالة الدولة .

كما كانت تتخلل هذه الخطط أيضاً بعض الحمامات التي كان يقصدها الناس .

ذلك ماكان من أمر تخطيط مدينة الكوفة تخطيطاً شاملًا لأبنيتها وقطائعها وسككها وأسواقها ومساجدها ومقابرها وحماماتها ولننتقل إلى مدينة أخرى من المدن الإسلامية .

مدينة بغـداد :

في العهود الإسلامية المبكرة كان للعاصمة أهمية عظيمة من الناحيتين الإدارية والتنظيمية وذلك مما منح العواصم الإسلامية التي أصبحت بعد ذلك مراكز حضارية وعسكرية في آن واحد القوة والسيطرة وقد كانت هذه العواصم ذات ارتباطات وثيقة الصلة بالأسر الحاكمة التي تتابعت في حكم الدولة الإسلامية وذلك أمر بديهي بالنسبة لطبيعة الأسر العربية المسلمة الحاكمة كما يتعلق بالظروف السياسية التي جاءت فيها هذه الأسر إلى الحكم .

وحينما تم النصر للعباسيين كان موضوع اختيار عاصمة جديدة لهم من الأمور المهمة التي شغلت بال أبي العباس السفاح في أول الدولة العباسية وقد تنقل أبو العباس السفاح بين عدة مراكز ولكنه كثيراً ماغير هذه المراكز لعدة أسباب وكان لقصر مدة خلافته الأثر الكبير في عدم حسم

هذه القضية حسماً ناجزاً . ولما استخلف أبو جعفر المنصور انتقل أول الأمر إلى منطقة الكوفة . وبنى هناك مدينة الهاشمية ولكنه بعد أكثر من ثماني سنوات شرع في بناء مدينة بغداد – وأبو جعفر المنصور هو الذي أوجد المدينة المدورة كفكرة في أول الأمر ثم نفذها فأصبحت حقيقة واقعة تشهد بعظمة الدولة العباسية .

والسبب الذي حدا بالمنصور إلى إيجاد بغداد هو ثورة الراوندية التي خشى المنصور من أن تتطور وتتضاعف وربما توقد ثورة كبيرة تذهب استقرار دولته وأمنها وتودي بحياته وخلافته .

ولموقع مدينة بغداد عدة مميزات كما أوضحها الجغرافيون والمؤرخون منها :

١ – كان من المستحسن في ذلك الوقت إنشاء المدن أو العواصم في وسط الإقليم إذ أن المواصلات البطيئة آنذاك كانت تعرقل تقدم الجيوش في حالة قيام أية ثورة ووجود العاصمة في مكان بعيد في شمال القطر أو جنوبه يسبب الارتباك في الدولة ونظمها الإدارية فضلًا عن أنها قد تشجع على التمرّد والخروج عن السلطة .

٢ – كان لموقع بغداد أهمية عسكرية إذ أن وجود النهرين الكبيرين دجلة في شرقها والفرات في غربها يؤلفان خطان للدفاع عن العاصمة المنشأة والأراضي المحيطة بها فالجيش الغازي لها سواء أكان آتياً من الشرق أو الغرب يتعسَّر على جنده وعتاده وتموياته العبور من النهر إذا ما قطعت الجسور وكذلك يسهل على جيش الخليفة العباسي إحباط كل محاولة ترمي إلى إقامة معبر للجند الغزاة بيسر وسهولة .

٣ – وموقع بغداد في وسط العراق منحها ميزة تجارية عظيمة فهي تكاد تكون على مسافات متساوية بين البصرة والموصل أي أنها تتوسط

المناطق الشمالية والجنوبية وهذا بطبيعة الحال مما يجعل من بغداد سوقاً للبضائع والمنتجات التي تنتج في مختلف المناطق في شمال العراق وفي جنوبه فضلًا عن وقوعها على خطوط التجارة والقوافل فهي تقع على طرق رئيسية هامة وتمر بها معظم القوافل التجارية البرية والنهرية مما جعلها مدينة ذات موقع تجاري مرموق .

٤ – كان لموقع مدينة بغداد المختار في المنطقة الواقعة إلى غربي نهر دجلة والمحصورة في البقعة التي يقترب عندها النهران الكبيران دجلة والفرات منطقة سهلة منبسطة تمتد في انبساطها على مرمى البصر دون أن يحجزها عارض طبيعي وتحيطها من الغرب أراضي مستوية ترتفع قليلًا كلما اقتربت من وادي الفرات ومثل هذه الأرض تشبع رغبة العرب والمسلمين الذين اعتادوا العيش والسكن في الأماكن الخلوية المفتوحة من جزيرتهم أو المدن المحاطة بأراضي خالية منبسطة مع فارق توفر المياه والترع الكثيرة في البقعة التي شيدت عندها المدينة المدورة .

وقد وصف الجاحظ مدينة بغداد فقال عنها : «قد رأيت المدن العظام والمذكورة بالإتقان والإحكام، بالشام وبلاد الروم وفي غيرهما من البلدان، فلم أر مدينة قط أرفع سمكاً ولا أجود استدارة ولا أنبل نبلا ولا أوسع أبواباً ولا أجود فصيلا من الزوراء وهي مدينة أبي جعفر المنصور كأنما صبّت في قالب وكأنما أفرغت إفراغا» .

ويروي المؤرخون أن أبا جعفر المنصور وضع أساس مدينته في وقت اختاره (نوبخت) المنجم .

وقبل أن يشرع العمال في البناء أحب المنصور أن ينظر إلى تخطيطها

فأمر أن يخط بالرماد ثم أقبل يدخل من كل باب ويمر في طاقاتها ورحابها وهي مخطوطة ثم أمر أن يجعل على تلك الخطوط حب القطن والنفط وراح ينظر إليها وهي تشتعل ثم أمر أن يحفر الأساس على ذلك التخطيط .

وتروي لنا المصادر التاريخية أيضاً أن المنصور قد قسّم مدينته عند بدء تخطيطها إلى أربعة أقسام أناط المنصور الإشراف على كل قسم منها إلى ثلاثة من رجاله أولهم قائد وثانيهم مولى وثالثهم مهندس وهكذا يتبين أن أربعة من المهندسين اشتركوا في بناء مدينة بغداد .

وقد بدىء في بناء المدينة المدورة عام ١٤٥ هـ وهو أصح التواريخ التي أوردتها لنا المراجع التاريخية .

★ **أقسـام المدينـة :**

الخنـدق :

كانت له سدتان وظيفتهما حماية السور وجدران المدينة من تسرب مياه الخندق إليها. ويحاذي السدة من الخارج السور الخارجي. وكان هذا السور أقل سمكاً وارتفاعاً من السور الثاني الذي يليه وله أربعة أبواب . وحسب رواية اليعقوبي أن المسافة بين كل باب والباب الذي يليه هي خمسة آلاف ذراع . ومن هذه الرواية يمكننا أن نحدد مساحة المدينة، لأنه لما كانت المسافة بين جميع الأبواب الأربعة متساوية فإن محيط المدينة المدورة يكون عشرين ألف ذراع وهو طول السور الخارجي ولما كان الذراع حوالي نصف متر فيكون محيط المدينة المدورة عشرة آلاف متر وهو طول السور الخارجي، أي أن مساحتها حوالي ثمانية كيلاً مربعة – وهناك روايات كثيرة عن مساحة المدينة .

أما أبواب المدينة فسماها المنصور : باب الكوفة، باب البصرة، باب خراسان، باب الشام .

ولهذه الأبواب ظاهرة معمارية فريدة هي ازورار مداخلها وهذا الطراز من المداخل يخفي وراءه أسلوباً عسكرياً يلاحظ فيه أن – الغزاة بعد اقتحامهم البوابة يضطرون إلى الانحراف إلى اليسار للعبور من مدخل ثان وبذلك يتعرضون للسهام الموجهة إليهم .

وكان السور الخارجي والسور الذي يليه (السور الأعظم) يفصلهما مسافة خالية تسمى (الفصيل) وفائدة هذه المسافة تنحصر في الدفاع عن المدينة – وقد منع المنصور السكن في هذا الفصيل .

قصر المنصور (قصر باب الذهب) :

كان المسلمون قبل بناء بغداد إذا اختطوا مدينة بدأوا بالمسجد الجامع أولًا، أما في بغداد فإن المنصور جعل قصره في وسطها وقصر باب الذهب عبارة عن مربع طول كل ضلع من أضلاعه الأربعة أربعمائة ذراع وفي صدر القصر ايوان طوله ثلاثون ذراعاً وعرضه عشرون، وفوق هذا الايوان مجلس آخر له نفس الأبعاد وفوق المجلس القبة الخضراء . وكان على رأس القبة الخضراء صورة فارس في يده رمح .

مسجد المنصور :

يعتبر مسجد المنصور أول مسجد شيّد على أرض بغداد ويُعد تخطيطه نموذجاً لتخطيط الجوامع التي بنيت بعد ذلك في بغداد ومن المؤسف أن معالم هذا المسجد قد اختفت ولم يبق له ذكر إلا في كتب التاريخ والآثار .

ومما يرويه المؤرخون أنه قد بني المسجد ملاصقاً للجدار الشمالي الشرقي من قصر باب الذهب، وتم تنفيذ بناء المسجد على يد الخليفة المنصور عام ١٤٥ هـ .

القاهرة (قاهرة المعز) : -

ويرجع تاريخ قاهرة المعز إلى ثلاث مراحل متتابعة أولها الشكل العسكري في زمن عمرو بن العاص (الفسطاط) ثم العسكر في عهد الاخشيديين ثم احتلال الفاطميين لها بقيادة جوهر الصقلي في زمن المعز لدين الله الفاطمي . ومنذ ذلك العهد بقيت بتسميتها قاهرة المعز أو القاهرة .

الفسطاط :

والفسطاط مدينة الفتح العربي الإسلامي التي أنشأها عمرو بن العاص بعد أن فتح مصر – وأنشئت الفسطاط خارج مصر في الجهة الشرقية للنيل وقد اختط عمرو بن العاص الفسطاط عام ٢١ هـ وبنى مسجدها الجامع ودار الإمارة المعروفة بدار الرسل وجعل الأسواق محيطة بالمسجد الجامع وقسّم أرضها كالكوفة والبصرة خططا للقبائل .

ويذكر المقريزي أن الذين تولوا تخطيط الفسطاط ثلاثة من العرب يرأسهم معاوية بن حديج وكانت خطط الفسطاط كثيرة منها خطة أهل الراية وخطة لخم ومذحج وبني وائل وبني سبأ وغيرهم وسميت كل خطة بأسماء من نزلها من القبائل .

وقد شذَّت الفسطاط في تخطيطها عن البصرة والكوفة من ناحية بناء دار خاصة للإمارة فليس صحيحاً ماذكره اليعقوبي من أن عمرو بن العاص كان قد بنى داراً خصصها للإمارة بل أن عمرو بن العاص بنى لنفسه داراً اتخذها مقراً لحكمه وقد ذكر الدكتور أحمد فكري في مؤلَّفه «مساجد القاهرة ومدارسها» ما مفاده أن ولاة مصر في أول الأمر لم يكن لهم مقر رسمي ولا دار للإمارة واتخذ عمرو بن العاص الدار التي أقامها

لسكنه بالقرب من المسجد الجامع مقراً للحكم وصار الأمر هكذا بعده فكل وال من بعده كان يتخذ الدار التي يسكنها مقراً للإمارة واستمر الحال كذلك إلى نهاية العصر الأموي .

وأخذت الفسطاط شكلًا منظماً شيئاً فشيئاً والتفّ العمران في شكل نصف دائري حول مسجد عمرو بن العاص. وبعد استتباب الأمر وانتظام العمران والتفافه حول مركز العمران السياسي والقيادي ألا وهو المسجد .

القـيروان :

أما مدينة القيروان فقد اختطها القائد عقبة بن نافع في تونس بشمال افريقية عام ٥٠ هـ وكان أول ماختط فيها هو دار الإمارة والمسجد الجامع وبعد بناء المساجد والمساكن شد الناس إليها المطايا من كل بلد وعظم قدرها وكانت دار الإمارة لها في قبلة المسجد وذلك قبل أن يخرِّبها ابراهيم بن الأغلب . وكانت القيروان في وسط الصحراء بعيدة عن العمران وكانت بذلك آمنة من هجوم الأعداء ولم يمنعها انعزالها هذا من أن تنمو وتكبر . وإذا كان عقبة بن نافع قد عزل عنها فترة من الزمن إلا أنها استعادت عظمتها بعودته عام ٦١هـ وظلت مايقرب من أربعمائة عام على رأس مدن افريقية والمغرب وكان لها سور له أربعة عشر باباً . وكان سوقها متصلاً بالمسجد من جهة القبلة وممتداً إلى باب يعرف باسم باب الربيع وذكر البكري أنه كان لهذا السوق سطح متصلة به جميع المتاجر والصناعات وأن هذا السطح قد تعرّض لبعض التهدّم . وأمر هشام بن عبدالملك بترميمه عام ١٠٥هـ .

وتختلف القيروان أيضاً عن المدن العربية في أن كل قبيلة نزلت بها لم تكن تختص بمكان معيّن من المدينة ربما لأن فتحها جاء متأخراً وربما لعدم حرص القبائل التي اشتركت في فتحها على أن تظل بمعزل عن القبائل الأخرى في سكنها كما حدث في المدن السابقة .

ثم أما بعـــد :

من كل ماتقدّم يمكننا ملاحظة أن تخطيط المدن في العصور الإسلامية كان يختلف من مكان لآخر تبعاً للظروف والملابسات التي مرّ بها تاريخ البلاد التي اختطت بها هذه المدن ولا يتّسع المجال لدراسة تاريخ وتخطيط كل مدينة على حدة وبالتفصيل ، وهذا يتطلب وقتاً طويلاً . والخلاصة أن هذه المدن عند تخطيطها تبدأ على أي حال بتخطيط المسجد الجامع ودار الإمارة ، بعد ذلك السوق والمسكن والطرق والسكك .

ومما تقدم نجد أن هذا التشابه والتطابق بين المدن العربية والإسلامية الأولى مبرراته بسيطة وسهلة الاستنتاج .. فقد وحدها الإسلام الذي هو دين ودولة وشريعة ومنهاج وعلى الرغم من اختلاف ألوان الشعوب ولغاتها إلا أنها كانت تسير على منهج واحد هو القرآن الكريم ، والسنة النبوية . تطبّقه في حياتها وعملها فأخذت دورها القيادي للبشرية في الحضارة فكانت نهضتها الفكرية والعلمية وكان للمسلمين دور حضاري رائد في تشييد المدن وبناء الدور والمساجد والمكتبات على ضفاف دجلة والنيل وفي أقصى المغرب والأندلس حيث كانت في أوج القوة والازدهار وما من ريب في أن التقدم العمراني في مختلف العالم الإسلامي إذ ذاك إلا دليل ومظهر قوي لوعي الأمة الإسلامية وتطوّرها وتقدّمها . والله نسأل أن يوفق الجميع إلى مايحقق التقدّم والتطّور والقوة للأمة العربية والإسلامية . حقق الله الآمال ووفق الجميع لما يحبه ويرضاه .

• المصـــادر والمراجـــع •

١ – جمهرة أنساب العرب .	ابن حزم
٢ – مناقب بغداد .	ابن الجوزي
٣ – العبر وديوان المبتدأ والخبر .	ابن خلدون
٤ – تاريخ الأمم والملوك .	الطـبري
٥ – المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار .	المقـريزي
٦ – مسجد القيروان .	د. أحمد فكري
٧ – المدخل .. مساجد القاهرة ومدارسها .	د. أحمد فكري
٨ – تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي .	د. حسن ابراهيم حسن
٩ – العصر البغدادي الأول .	د. عبدالعزيز الدوري
١٠ – بغـــداد .	طاهر العميد
١١ – أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم .	المقـدســي
١٢ – خـطط الـكـوفة .	ماسنيـــون – ترجمـــة تقـــى المصعبـــي
١٣ – تخطيط مدن الكوفة .	د. كاظم الجنابي
١٤ – الجغرافية التاريخية .	محمد أحمد حسونة
١٥ – الكامل في التاريخ	لابن الأثير .
١٦ – أشهر المساجد في الإسلام	سعيد عبدالمجيد بكر

١٧ – البداية والنهاية	لابن الأثير
١٨ – رسوم دار الخلافة	للصابي
١٩ – تهذيب التاريخ الكبير	لابن عساكر
٢٠ – تاريخ بغداد	للخطيب البغدادي
٢١ – العراق في الخوارط القديمة	أحمد سوسه
٢٢ – عجائب البلدان	للقزويني

القسم الثاني

في التـــــــــراث

• التـــــراث •

بين الســـلف والخلـــف(*)

الحديث عن التراث حديث متشعِّب الأطراف متنوِّع العناصر إذ هو موئل الأفكار والعقول وإن إحياء التراث العربي الإسلامي والعناية به لعمل جليل سيكون له ما بعده لا في حياة الأمة العربية وحدها بل للعالم الإسلامي والحياة الإنسانية كلها إذ أتيح له من النجاح والاهتمام والعناية ما هو أهل له.. ولقد لاحظنا اهتمام الغربيِّين ونشاطهم في إحياء تراثهم والجهود التي يبذلونها في هذا المضمار وقد تجاوز ذلك إلى اهتمامهم بتراث الأمم الأخرى.. وللأسف فما زلنا مقصِّرين في ذات تراثنا وإحيائه وإخراجه وتحقيقه فتراثنا جزء من شخصيتنا وكياننا.. وليس إحياء التراث معناه الانصراف عن الأخذ بأسباب العلوم والآداب والثقافات الحديثة. فما زال الغربيون يولون الأدب اليوناني واللاتيني القديم كل اهتمام وتحقيق...

إننا كثيراً ما نسمع عن تشكيل مجموعة من الباحثين لنشر وتحقيق بعض الكتب على مختلف المستويات الرسمية والشعبية سواء في الجامعة العربية أو معهد المخطوطات أو المجامع اللغوية والجامعات ودور النشر والمكتبات وتشكيل مجموعات من الباحثين وذلك لنشر وتحقيق بعض الكتب ونقرأ أن هناك كتباً كثيرة حققت وأعطيت للناشرين فتعثَّرت في طباعتها إذ ظهرت بعض أجزائها وبقيت الأخرى نظراً لما لحق الناشر من خسارة مادية حالت دون الإخراج. ولقد سمعت من أحد المسئولين عن

(*) مجلة الدارة : العدد الثالث، السنة السادسة، جمادى الآخرة ١٤٠١ هـ .

دور النشر قائلًا إن كتب التراث تبقى مكدسة لدينا ولا يقبل الناس على قراءتها وشرائها باستثناء البعض من الجامعات والمتخصصين.. ولقد شغف علماؤنا القدامى بالكتب وشرائها وجمعها حتى كانوا يرون خسارتهم في أموالهم أيسر عليهم من خسارتهم في كتبهم وكانوا يتنافسون في شراء المؤلفات العلمية من مؤلفيها قبيل الانتهاء من تأليفها وعلى سبيل المثال فقد سمع الحاكم أمير الأندلس بكتاب الأغاني فأرسل على الفور إلى مؤلفه أبي الفرج الأصفهاني بألف دينار من الذهب ثمن نسخة واحدة منه فأرسل إليه أبو الفرج بنسخة من الكتاب فقريء كتابه في الأندلس قبل أن يُعرف في موطن المؤلف العراق. وروي عن الصاحب بن عباد أنه فضّل أن يبقى بجانب كتبه ومكتبته على المنصب الكبير الذي عُرض عليه في بلاط نوح ابن منصور الساماني كما كان المأمون يُعطي حنين بن إسحاق من الذهب زنة ما ينقله من الكتب إلى العربية كما أن محمد بن عبدالملك الزيات يُعطي نسَّاخ الكتب في مكتبه ألفي دينار وغير ذلك من الأمثلة كثير مما يتحدث عنه التاريخ بإعجاب.. إن تراثنا ليفيض بذخائر المؤلفات التي تشعّ بالنور والضياء والمعرفة وإن تجاهل ذلك وازدرائه لا يليق بنا ومن الخير أن نعمل على إحيائه والاستفادة منه ليصبح زاداً ثقافياً واعياً للشباب وليصير منطلقاً واسعاً يتعرف فيه أبناؤنا على ماضيهم وتراثهم وأعلامهم وعلمائهم وما تحمله أولئك الأعلام في تناول ومعالجة القضايا الفكرية والثقافية والتاريخية وكانوا يتحلُّون بأسمى الصفات وأنبل السجايا التي تتمثل في رجال العلم والبحث من أمانة ودقة واستقصاء وأدب وإخلاص ووفاء وتجرد ومن يستعرض سِيَر المؤرخين وأئمة اللغة والنحو ورحلاتهم إلى مختلف البلدان ومناطق تجمع البادية وذلك بقصد التأكد من صحة وصواب الأساليب والمؤلفات المعجمية وإخراجها على الوجه العلمي .

لقد اهتم المستشرقون بتراثنا وطبع ما حصلوا عليه من كتبنا والرجوع إلى المظان والمنقول عنها ويقول البحَّاثة محمد كرد علي « لولا عناية المستعربين بإحياء آثارنا لما انتهت إلينا تلك الدرر الثمينة التي أخذناها من طبقات الصحابة وطبقات الحفاظ ومعجم البلدان ومعجم الأدباء.. ورأوا مصلحة للعلم والآداب أو للسياسة والاستعمار غرضاً في إحيائه قبل غيره » .

ويقول صاحب الرسالة الأديب المعروف المرحوم أحمد حسن الزيات في كتابه تاريخ الأدب العربي : «لقد كتب المستشرقون البحوث القيِّمة في تحقيق الألفاظ وتحرير الأصول وتصحيح الأخطاء وكشف المجهول عن الأسلوب العلمي الصحيح والمنهج المنطقي الحديث وأصدروا المجلات ونشروا نفائس الكتب وعلقوا عليها الحواشي وذيَّلوها بالفهارس المختلفة للأسماء والأمكنة والموضوعات». ويقول المؤرخ الإنجليزي ملر في كتابه فلسفة التاريخ . «إن مدارس العرب في أسبانيا كانت هي مصادر العلوم وكان الطلاب الأوروبيون يهرعون إليها من كل قطر يتلقون فيها العلوم والرياضة وما وراء الطبيعة، وكذلك أصبح جنوبي إيطاليا منذ احتله العرب واسطة لنقل الثقافة إلى أوروبا، ولقد ورد إلى المدارس العربية مجموعة من الرهبان لدراسة علوم الرياضيات والفلك ثم عادوا إلى قومهم ينشرون فيهم نور الشرق وثقافة العرب فرموهم بالسحر والكفر... وهكذا تخرَّج على علماء الأندلس العديد من العلماء والمفكرين وأولعوا باللغة العربية وعدُّوها لغة الأدب العالمي .

ولقد أوصى قومه الراهب روجر بتيون الإنجليزي بتعلُّم اللغة العربية وقال : «إن الله يُؤتي الحكمة من يشاء ولم يشأ أن يُؤتيها اللاتين وإنما آتاها اليهود والإغريق والعرب» .

لقد أقبلت الأمم الأوربية القوية تتنافس في تعلّم علوم العرب وارتياد أفكارهم وكشف آثارهم وإحياء آدابهم وطبع كتبهم وإبراز فنهم...

إن قضية الاهتمام بتراثنا والعمل على إحيائه قضية تتسع أبعادها كما تقول الأديبة الدكتورة بنت الشاطئ فهي تستوعب الماضي والحاضر والمستقبل فتتجاوز حدود وطننا العربي إلى العالم الإسلامي الكبير ثم إنها في جوهرها قضية وجود ومصير بما تكشف عن حقيقة ذاتنا وآماد طاقتنا وما تضيء لنا من معالم الطريق وآفاق الطموح...

منذ بضعة أيام كنت أقرأ موضوعاً في إحدى المجلات العربية يتحدث فيه كاتبه عن الاهتمام فقط بمشكلات هذا العصر والقضايا التي نعيشها وأنه لا داعي للاهتمام بالتراث لأن جدواه قليلة...

والواقع أن هذا الاتجاه دعوة لعزلنا عن تراثنا وماضينا وتلك لعمرى دعوة جائرة وأسلوب خطير وإشاحة عن تلك الأمجاد وانفصام عن التاريخ وتنكر للموروثات الثقافية والفكرية والعلمية والروحية.. وليس معنى الاهتمام بالتراث أن ننشغل به ولا نلتفت إلى ما سواه من حياتنا وما تموج به من معطيات فنحن نعيش الحاضر ونتفاعل معه ونشارك فيه ولكن ليس معنى ذلك أن ننسى ماضينا ولا نهتم بتراثنا وذخائرنا وما تركه أسلافنا من ثمار المعرفة... والتي أصبحت ميراثاً ثقافياً يجب أن نحافظ عليه ونرعاه كما تحافظ الأمم الأخرى على تراثها الفكري والحضاري...

فلنتتبع آفاقنا ولننظر لذلك نظرة واعية شاملة ولندرك الدور الحيوي الجليل الذي قام به أسلافنا في رسالتهم الحضارية حيث شهد التاريخ لهم بما أوجدوه من تحوُّل تاريخي عظيم اتسع وامتد في مختلف أقطار الأرض.. ومن الواجب علينا ألا نترك تراثنا يعمل على إحيائه نفر من المستشرقين اتخذ البعض منهم وسيلة للتجني على الإسلام والمسلمين ودس سمومهم

فمناهجهم في البحث معروفة فكم أساءوا إلى الإسلام وذلك هدفهم وسبيلهم واهتمامهم بالأقوال التافهة والآراء الواهية وقبولهم وترويجهم للأحاديث الموضوعة وغير ذلك مما هو معروف .

إن تراثنا الإسلامي يحفل بصفحات مشرقة ناصعة ولقد واجهت الأمة الإسلامية عبر العصور تحديات عنيفة وقد أشرأبَّت أعناق الحاسدين والطامعين وسعوا جاهدين إلى إخماد جذوة الإيمان بكل مافي جعبتهم من ألوان الأذى والكراهية والعنف وإحراق الكثير من المآثر والذخائر والمعارف في بغداد والأندلس وغيرها بيد أن ذلك كله لم يُطفيء إشعاع الثقافة الإسلامية في النفوس فبعد سقوط الأندلس ظل المسلمون يتسترون بإسلامهم يصلُّون في الكنيسة ويقرأون سراً سورة « قل يا أيها الكافرون لا أعبد ما تعبدون.. » ويستظهرون في بيوتهم ويؤلِّفون كتباً مبسطة في الفقه والتوحيد والسيرة النبوية والقصص القرآنية رغم محاربة الكنيسة لهم ومع ذلك لم تتقوَّض الثقافة الأندلسية الإسلامية وبقيت أسماء العلماء والمفكرين الأندلسيين رغم حقد ومقاومة المتعصِّبين المسيحيين ومن يطالع التاريخ الأندلسي يدرك ذلك وكيف تقاسم الغزاة خزائن مكتبات العلماء المسلمين .

وما تزال المكتبات الأوربية اليوم تمتلك رصيداً كبيراً من كتب التراث الإسلامي، ففي النمسا تحتوي المكتبة القومية في فيينا على مجموعة من المخطوطات وفي برلين بألمانيا مجموعة من المخطوطات وكذا تقتني جامعة هامبورج وثائق من التراث معظمه مكتوب باللغة العربية وفي هولندا وبريطانيا وفرنسا مجموعات ثمينة وغيرها كثير مما تحويه من الذخائر النادرة والمخطوطات والكتب التي تركها أسلافنا وتسابق الأجانب على الاحتفاظ

بها في خزائن مكتباتهم ومن الخير أن نكون أولى منهم وأجدر بالوفاء لتراثنا وما خلّفه أسلافنا والوفاء من الصفات الأصيلة الكريمة. كما قال شاعرنا العربي .

حلبنا الدهر أشطره ومرت بنا عقب الشدائد والرخاء
وجرَّبنا وجرَّب أوَّلونا فلا شيء أعز من الوفاء

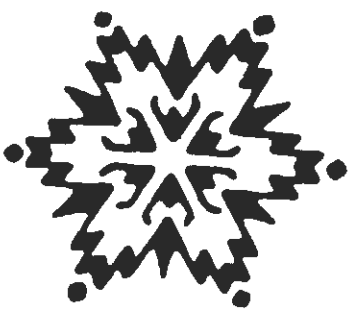

• المصـــــادر •

تاريخ الأدب العربي	أحمد حسن الزيـــات
دراسة في مصادر الأدب	دكتـور أحمد مكـــي
تـراثنـــــــــــا	بنت الشاطـــــــيء
العقـــد الفريـــد	ابـــن عبدربـــــه
خزانـــــة الأدب	عبدالقـــادر البغـــدادي

• لا تاريخ بدون وثائق(*) •

للوثائق دور كبير في حفظ التراث وكتابة التاريخ الوطني في شتى فروعه . وفي العصر الحديث أصبحت الوثائق علماً يدرس؛ فالعلوم الوثائقية والأرشيفية تحتل اليوم مكانة رفيعة...

إذن ما الوثيقة : وما التوثيق في اللغة ؟

يقال.. وثّق الأمر، أي أحكمه وأتقنه ودعّمه، ووثّق المرء إذا قال فيه إنه ثقة.. واصطلاحاً – جمع الوثائق والمستندات ونقدها وتمحيصها وتقديمها إلى الناس في صورة أقرب ما تكون إلى الأصل الذي صدر عن صاحبها الأول .

والوثائق التي خلّفها السّلف على مدى عصور التاريخ قسمان. على حد قول الأستاذ عبدالمجيد عابدين في بحثه، «التوثيق تاريخه وأدواته» . القسم الأول يشتمل على الوثائق التي وضعت لاحتياج الناس إليها في ذلك العصر كالسجلات الرسمية والوثائق التاريخية، والأبنية والقبور والنقود والألبسة والأدوات والفنون .

والقسم الثاني : يشتمل على الوثائق التي وضعت لإخبار الأجيال الآتية بما فعلته الأجيال الغابرة، وتنقسم بدورها إلى شفاهية كالروايات والملاحم والقصص والأساطير والأقوال المأثورة والأمثال الجارية، التي تدل على تجارب حياتية سابقة، وإلى كتابية أو يدوية، كالتصاوير التي تمثل المشاهد التاريخية أو بعض الحفلات الدينية أو بعض المعارك الحربية، وما فيها من أسلحة وملابس وأدوات حرب أو بعض الأعمال والكتابات والنقوش المحفورة على الأبنية... ألخ .

(*) نشرت في مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة العاشرة، ١٤٠٥ هـ .

فالوثيقة إذن تحمل مدلولًا أوسع بكثير من النص المخطوط أو الخبر المروي، وتوثيقها يحتاج إلى خبرات متنوعة واختصاصات دقيقة التوثيق .

فالذي يوثّق قطعة من النقود أو وساماً من الأوسمة. يتخذ من الوسائل ويحمل من الخبرات مايختلف به عن موثّق النصوص والروايات، وكلاهما يختلف في وسائله وخبراته عن موثّقي النقوش المحفورة على الحجارة والأبنية وشواهد القبور؛ إلا أن الغاية من التوثيق واحدة، وهي تقديم الوثيقة محققة خالية من كل دس وتزوير، صحيحة النسب إلى عصرها وصاحبها .

ولعل توثيق النصوص والروايات يحتل في العلوم الإنسانية مكانة أكبر مما يحتله توثيق الأنواع الأخرى، ومع ذلك يجب ألا نقلل من قيمة الأنواع الأخرى وبخاصة بالنسبة لمؤرخي الأحداث التاريخية واللغات ومجتمعاتها القديمة والفنون .

وتوثيق النصوص والروايات، قديم عند علماء المسلمين، بدأه رواة الحديث النبوي، فحددوا ضوابطه، ودققوا في طلب البيّنات التي تثبت صحة النص أو الخبر المروي. وقد اعتمدوا على البيّنة الظرفية أو بيّنة القرائن والملابسات .

ولما تفرّعت العلوم الإنسانية، واستقل كل علم منها بكيانه، حذا اللغويون والمؤرخون والأدباء حذو رواة الحديث، فرووا أخبارهم وأشعارهم بأسانيدها... ولكن مع مرور الزمن وعدم دقة المدققين، دخل التحريف والانتحال في بعض الأشعار والأخبار التي حفظتها لنا المصادر القديمة، المخطوطة والمطبوعة.. هذا بالإضافة إلى ماتركه النسّاخ والورّاقون من عبث بالنصوص القديمة، مما جعل مهمة الموثّقين والباحثين إزاء هذه النصوص ليست بالأمر اليسير ..

ويبدو أن علماء أوروبا لم يضعوا فنّ التوثيق موضع عنايتهم إلا في عصور متأخرة، عندما اتجهوا إلى تحديد مفاهيم العلوم وطرق دراستها. فنادى بعض مؤرخيهم بتطبيق منهج علمي على البحث التاريخي، يعتمد أساساً على الوثائق والمستندات. ويعتمد هذا المنهج على **التحليل التاريخي** وهذا المنهج يتطلب خبرة في اللغة والخطوط وأنواع الورق والأحبار، ومقارنات بين النسخ المتوافرة من نفس الوثيقة. ثم يعقب ذلك مرحلة البناء والتركيب ويسمى **التركيب التاريخي**، وهو لُب البحث التاريخي، ولولاه لما بلغ المؤرخ غايته، وهذا يعتمد على تجميع عناصر التحليل المتفرقة ويرتبها وينسقها ويؤلف منها صوراً مشابهة قدر الإمكان للصورة التي وجدت في ذهن شاهد العيان .

المنهج التوثيقي :

ويتركز في تحليل الوثيقة، ومهمة الموثّق تنتهي عادة عند هذا التحليل. وهذا المنهج أيضاً يسمى بالمنهج النقلي، وغايته توثيق النصوص والآثار، ويختص بالحياة الإنسانية الماضية. وكان لزاماً على المشتغلين بالعلوم الإنسانية أن يستعينوا بالوثائق للتعرف على ظواهر الحياة الماضية من سياسية واجتماعية ودينية وفنية وفكرية .

ولا غنى لدارسي هذه العلوم –ومن بينها اللغة والآداب– عن توثيق ما يصل إليهم عبر التاريخ من نصوص وآثار . (والنصوص قد تكون مسموعة بالنقل شفاهاً، أو مقروءة بالخط كالرسائل والتقارير والمخطوطات أو الطباعة أو مصورة بالآلة أو منطوقة بالتسجيل الصوتي) وفي كل هذا ينبغي الاطمئنان إلى صحة المروي، من أي طريق وصل إلينا ومن هنا لا بد من توفر **أدوات التوثيق وأهمها** :

١ – الخبرة بالخطوط العربية والفارسية والتركية وأصولها وعلاماتها .
٢ – الكشف عن مواطن التزييف والتلف .
٣ – التنبه إلى النصوص المحرفة أو المصحفة .
٤ – التميز بين مراتب النسخ المتوافرة .
٥ – القدرة على اكتشاف حدود التصرف في نص المؤلف .
٦ – الإحاطة بالمتن وموضوعه وفهم دقائقه وأساليبه .
٧ – الإحاطة بالمصادر والمظان التي تتعلق بموضوع النص الموثّق .

مما سبق يتضح أن الموثّق لابد أن يكون على علم وافٍ بأشكال الخطوط وأنواعها من نسخ ورقعة وثلث وديواني وتيجاني وتعليق وما شابه ذلك، وعن الضبط والشكل والإعراب والإملاء. وأن يكون الموثّق على قدرة علمية تمكنه من المقارنة بين النسخ المتاحة حتى يكتشف مواطن التزييف والتلف. وأهم من ذلك كله أن يكون على علم بموضوع المتن المحقق أو المراد توثيقه، حتى يستطيع أن يفهم دقائقه وأساليبه المختلفة ويعلّق على ما يستحق التعليق منها، وأن يكون من أصحاب الوقوف بالمصادر والمراجع وطريقة استخدام الفهارس التي تمكنه من اللجوء إلى المراجع أو المصادر التي يستوثق منها على صحة ما يتبادر إلى ذهنه من شكوك أثناء عملية التوثيق هذه .

وهكذا يتبين دور الوثائق. ولقد قيل «لا تاريخ بدون وثائق» ومن هنا تطور **علم الوثائق** في العصر الحديث. وأسست له المعاهد التخصصية لإعداد الباحث المتمكن. وهناك خزائن الوثائق والمخطوطات الميكروفيلمية التي تحفظ تلك الوثائق وتجعلها ميسّرة الاستخدام. بعد أن أصبحت في مأمن من التحريف أو الإتلاف أو الحريق ووضعها في مناخ مناسب من الحرارة والرطوبة، وأنشأت لها الدول المتقدمة حضارياً مراكز الترميم

ومعامله المهيأة لترميم الوثائق التالفة أو القطع الأثرية التي أتى عليها الزمن .

فالوثيقة التي هي كل تسجيل بالحرف أو بالصورة أو بالأشرطة الممغنطة لكل عمل أو حدث من الأعمال الرسمية للدولة، أو من الأعمال التي قامت بها مؤسسات خاصة أو أفراد، والتي بدورها تشكل تسجيلاً حياً لمراحل الحياة التاريخية لهذه الدولة بكافة صور الحياة، وأشكالها السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية والعلمية والفنية بحاجة إلى رعاية وتصنيف وتسجيل، حتى تكون في متناول الباحثين حينما يحتاجون إليها لإلقاء الضوء عليها. فربما تكون هذه الوثيقة سبباً لإنارة الطريق نحو الحقيقة أو على الأقل جزء من الحقيقة .

انطلاقاً من هذا المفهوم الشامل لكلمة وثيقة، نشعر بأن الوعي الوثائقي الذي بلغته المؤسسات الوثائقية في الوطن العربي، لم يبلغ بعد المستوى العلمي الكافي الذي يوازي قيمة الكنوز التاريخية الثمينة، التي أورثنا إيَّاها الآباء والأجداد. لقد مر زمن طويل على الأمة العربية وهي تعاني من نير الاستعمار بكافة أشكاله وصوره، ولكن طالما قدّر لهذه الأمة التحرر من هذا النير، وأفاء الله عليها بنعمة التحرر والانطلاق، فإننا ندعو جامعاتنا إلى افتتاح مراكز وأقسام للدراسات الوثائقية، لإعداد الخبراء والمتخصصين للعمل على تصنيف وتنظيم ورعاية هذه الوثائق والعناية بها. وترميمها من الآفات واحتمالات الحريق. وفك رموزها وحل غوامضها؛ لتبقى سنداً للباحثين عن الحقيقة والدارسين لها، لما تقدمه لهم وتمدهم به من المعلومات المفيدة التي يمكن أن توصلهم إلى تلك الحقيقة .

* * *

• أهمية دراسة تراثنا الجغرافي(*) •
دراسة ميدانية

تحتل مؤلفات الجغرافيين القدامى مئات الكتب والمخطوطات التي حازت إعجاب الكثير من العلماء والمستشرقين، ومعظمها غير متوفر في المكتبات العربية والإسلامية . ولما كان علم الجغرافيا الحديث يتشعَّب مجالاته وقواعده واهتماماته، أضحى من العلوم الأساسية للدراسات الحديثة، وبخاصة مايتصل منها بالإنسان والعلوم الإنسانية. ومن الضروري العودة إلى الوراء قليلًا لدراسة أمثال هذه الدراسات التي تحوي بالإضافة إلى معلوماتها الوافرة، جهداً متنوعاً ومتعدداً، ناهيك عن استغلال بعض المستشرقين لما ساد العالم الإسلامي من ركود في العصر الحديث، وراحوا يأخذون ما طاب لهم، ويحرّفونه تبعاً لأمزجتهم السياسية والدينية حتى يخدم أغراضهم الأخرى للتأثير على الإسلام والمسلمين .

ومن هذا المنطلق والأساليب التي أدت بنا إلى الظهور بصورة غير حقيقية لدى شعوب العالم الغربي بالذات، وجب علينا الاهتمام بدراسة الجهود الجغرافية الأولى، التي بذلها وقام بها العلماء القدامى من أسلافنا، وإن كان هذا الاتجاه سوف يدفعنا بالضرورة إلى دراسة تاريخية للجغرافيا، وبنيتها الأولى؛ ولذا يمكن أن يكون تاريخ الجغرافيا علماً قائماً بذاته يدرّس في جامعاتنا الإسلامية على أسس موضوعية، وعلى منطلق واقعي، وإعادة النظر في المصادر الأصلية لتلك الدراسة الهامة. ويمكن أن يكون الاتجاه مقسماً تقسيماً موضوعياً ملازماً للتقسيم الزمني

(*) نشر هذا البحث في مجلة الدارة، العدد الأول، من السنة العاشرة، ١٤٠٤ هـ .

لمثل هذه الدراسات، إن كُتب لها أن توضع كدراسة جديدة في أقسام الجغرافيا، وهذا التقسيم يمكن أن يتم على الأساس الآتي :

أولًا : التاريخ الجغرافي القديم .

ثانياً : التاريخ الجغرافي الوسيط .

ثالثاً : التاريخ الجغرافي الحديث والمعاصر .

(أ) التاريخ الجغرافي القديم :

وهذه الدراسة تعتبر اتجاهاً للمزج بين الدراسات الأثرية والتاريخية والجغرافية والرحلات في آن واحد. ومن المعروف أن ما يتناقله المشتغلون في حقل الدراسات الجغرافية تنصب جهودهم في المقام الأول على الدراسات اليونانية، وبطليموس بصفة خاصة، وذلك نابع من أمرين اثنين :

أولهما : تسجيل ماورد في دراسات اليونان والرومان فقط، يجعل صفة الاستمرارية والشهرة عامل من عوامل السيادة .

ثانيهما : السيادة السياسية لتلك الحضارة في التاريخ القديم، بالإضافة إلى أن ظهور الدين الإسلامي مع وجود القوة العربية لم يكتب لها في البدايات الأولى الرسوخ إلا بعد ظهور الإسلام بفترة طويلة .

والعامل السلبي الذي لم يجعل للدراسات الجغرافية العربية والإسلامية مركزاً أو ظهور رأي في التاريخ القديم، هو عدم وضوح الصورة في هذه الفترة أو تسجيلها، وهذا بالرغم من الحضارة العربية الإسلامية، التي سادت وتأصل تراثها القوي والذي أشار إليه القرآن الكريم من خلال رحلة الشتاء والصيف مثلا، أو من خلال قصص الأنبياء الذين عاشوا على مسرح الأرض العربية، أو من خلال العلاقات الاجتماعية السائدة في تلك الفترة .

ولعل الاتجاه إلى دراسة «الدروب التجارية»، أو العلاقات الاقتصادية أو الجبال والسهول والوديان التي عرفها العرب في تلك الفترة، خير دليل يمكن به معرفة أثر الجغرافيا العربية مسرحاً وإنساناً على مجريات الأمور بين الإمبراطورية الفارسية والإمبراطورية الرومانية واليونانية، والصراع الدائر بين هؤلاء وهؤلاء، ومن أكبر العوامل على أهمية دراسة مسببات هذا التنافس، ولا شك أنه يتجه إلى الجغرافيا السياسية، - كتعبيرنا الحديث - بالإضافة إلى النواحي الاقتصادية والبشرية لهذا التنافس .

(ب) التاريخ الجغرافي الوسيط :

ثم جاء الإسلام ليشرق بنوره على الأرض العربية وتظهر مرحلة جديدة ومؤثرة على الحياة بصفة عامة، وعلى الحضارات بصفة خاصة، ولتتبلور على السطح حضارة جديدة لعبت على مسرح الجغرافيا اجتماعياً وطبيعياً، ومزجها بالروح والأسلوب، تلك هي الحضارة الإسلامية، وأتى هذا العامل الحاسم لتدخل الجغرافيا في العصور الوسطى مرحلة جديدة، كما يحلو لدارسي التاريخ تسميتها. وهنا يمكن أن نطلق على ذلك التاريخ الجغرافي الوسيط .

وكانت هذه الفترة من أبهى وأروع ماأنتجته الحضارات على مر عصور التاريخ وامتزجت فيها عوامل البناء الإنساني، من مادي وروحي، ومحت مع ظهور الإسلام حضارات اتجهت اتجاهاً خاطئاً في معظم الأحيان، ودخل الناس في دين الله أفواجاً، وانضم تحت راية الإسلام أمم كثيرة وحضارات متنوعة، نتج عنه بالضرورة اتجاه نحو التفكير في بلورة أسلوب جديد للحياة بصفة عامة، وتفاعلت شعوب الشرق والغرب في بوتقة واحدة، وانكب العلماء المسلمون على الدراسات المتنوعة، وظهرت جهود متعددة وكانت الجغرافيا أحد هذه الفروع .

والمشكلة التي تواجه الدراسات في مثل هذا الفرع حالياً هي النظر إليها على أنها مجرد تراث موجود. وثمرة من ثمار الحضارة العربية الإسلامية .

مع العلم بأننا إذا أخذنا الأمر مأخذاً آخر بالمقارنة مع الدراسات التي ظهرت في العالم الخارجي عن نطاق الواقع الإسلامي في أوروبا الوسطى، نجد أن الأوربيين قد أخذوها للاستفادة والتطوير، أما العرب والمسلمون فقد أخذوها واهتموا بها على أنها ميزة من مميزات ما أتى به الدين الإسلامي الحنيف ولم يحاولوا تطويرها .

إن المشكلة التي تواجه العلماء في العصر الحاضر، هي عدم بذل الجهد للتوفيق والتطوير بين نتاج الحضارة الإسلامية وبين التطور العلمي الواضح في شتى المجالات .

[redacted] إن دراسات الجاحظ وذكر البصرة، وابن خرداذبة في كتاب المسالك والممالك. والطريق من قابس إلى المغرب. وابن الفقيه في وصف مكة وعجائب العالم، واليعقوبي في وصف بغداد، والبلخي وابن حوقل في وصف إقليم سجستان، والأزرقي في أخبار مكة، وغير هؤلاء كثير مثل الهمداني في وصفه اليمن الخضراء، والصفدي في كتابه فضائل مصر والخوارزمي في ذكر صورة الأرض، والسرخسي في كتابه رسالة البحار والمياه والجبال، والسيرافي الذي كتب وصفاً دقيقاً لرحلاته في بلاد الهند والصين، وابن وهب القرشي في رحلته للصين، والكندي في كتابه «رسم المعمور من الأرض» والمسعودي والبيروني وابن بطوطة، وياقوت، والقزويني، والهجري، كل هؤلاء كانوا أعلاماً وما زالت دراستهم علامات راسخة في الدراسات الجغرافية؛ فلقد قدموا للعلم والمعرفة عصارة أذهانهم وأفكارهم ضمن مؤلفات ضخمة ما زالت موضع الإكبار

والإعجاب . إن للعرب ولعاً بالجغرافيا، ومن يستعرض أشعار الأقدمين يدرك اهتمامهم بالمنازل والديار، وذكر الأطلال والمعالم والمرابع والمناحل والجبال والأودية والشعاب والآكام والسهول، وغير ذلك من المسالك والمرتفعات والمنخفضات والهضبات .

(جـ) التاريخ الجغرافي الحديث والمعاصر :

وما أخال جامعاتنا اليوم حين استعراضها لعلماء الجغرافيا من أسلافنا ممن أسدوا جليل الأثر إلا وهي حريصة على الاستفادة من دراساتهم، والتي ستبقى متجددة بتجدد الأيام والسنين والأزمان، وينبغي أن نبذل الجهود، وأن يتصدى الباحثون الجغرافيون من علمائنا إلى تطوير ما كتبه أولئك بعد التطورات الفكرية ومناهج البحث الحديث .

ولا شك أن ما كتبه أولئك الأعلام الأجلّاء كان بالنسبة لعصرهم تطويراً وسبقاً هائلًا في العلم والمعرفة، اقتبسه الغرب ليستفيدوا منه، أما نحن فقد وقفنا عند هذا الحد ليس إلا .

وليت الأساتذة المتخصصين في جامعاتنا –وقد أصبحوا والحمد لله على جانب كبير من الثقافة والمعرفة في هذا الوقت المعاصر– يحاولون تمحيص وتحليل ماورد في مثل هذه الدراسات من تطور، فأحفاد أولئك العلماء الأسلاف هم أقدر الناس على معرفة الدروب في الصحراء والسهول والجبال والوديان، ومن ثم الاستفادة من الطبوغرافية ومميزات كل معلَم من هذه المعالِم واستثماره اقتصادياً واجتماعياً وسياسياً .

وإذا تم هذا الأمر –أي تمحيص المميزات والسمات الجغرافية لدراسات علماء الجغرافيا– فإننا بذلك نحقق أمرين هامين :

الأول : إظهار القيمة العلمية لهذه الدراسات .

الثاني : وضع الجغرافيا ودراسات القدامى في خدمة العصر الحديث والاستفادة مما أورده أولئك من ملامح نحتاج إلى تبيانها .

وللأسف الشديد فقد اتجه دارسو الجغرافيا في معظم أبحاثهم في الوقت الحالي إلى وضع قواعد دراستهم على أسس علمية من مقررات المناهج الغربية، وهذا ليس عيباً في حد ذاته. ولكن المشكلة التي يجب أن نحدّ من تغلغل آثارها السيئة هي مزج دراسات العلماء السابقين من المسلمين مع مثل هذه الدراسات، والتركيز على دراسة الدروب الجغرافية، والمسالك والأرض والمياه، والتي مازال الكثير من المثقفين –ناهيك عن العامة– يتجادلون ويتناقشون بشأنها دون الوصول إلى حل معين أو محدد بشأنها رغم أن العلماء الأوائل قد وضعوا لها تعريفاً وتحديداً .

ومزج علم الجغرافيا مع التسميات والعلوم الحديثة والمسميات التي طرأت على بعض المعالم، تمثل في حد ذاتها أمراً يجب الانتباه إليه؛ لأن المشكلة في حد ذاتها لاتنبع من قصر الجهود أو التكاسل في الرغبة والبحث عن الوصول إلى هذا الهدف .

ولكن المشكلة هي فقدان الحلقة الموصّلة بين دراسة هؤلاء وبين الدراسات الحديثة في فترة الركود الفكري التي عمت العالم الإسلامي فيما بين أواخر العصور الوسطى، وتطور العالم الحديث والمعاصر الذي يدخلنا إلى التاريخ الجغرافي الحديث .

والدراسة الجغرافية –كما يفهم– هي دراسة تعتمد على النظر والاستقصاء الميداني في معظم الأحيان .

فلو درست منطقة من مناطق المملكة العربية السعودية كما وردت في الكتب الجغرافية، وقام الطلبة بدراسات ميدانية لهذا الإقليم وحاولوا

المقارنة بين ما هو معروف حالياً وما هو مدوّن في تلك الكتب لأفادوا واستفادوا . أفادوا العامة والمهتمين بالجغرافيا، وذلك بوضع الصورة الحقيقية لبعض المسميات، واستفادوا في محو الشك والريبة والاختلاف في مسميات الأماكن، ومعرفة حدودها، ومن ثم الانتقال بهذا العلم من مرحلة دراسة ومعرفة واقع موجود إلى مرحلة الاستفادة من هذا الواقع وتحديد معالمه بصورة دقيقة .

إن ميدان الجغرافيا واسع شامل يتسع لأفق ومحيط العالم طوبوغرافياً وبشرياً، والأشد روعة والأكثر جدوى هو استثمار هذا الأمر، وإثبات أن المنطقة العربية والإسلامية تستطيع أن تلعب دوراً بارزاً، حتى تمهد المسرح الجغرافي لظهور مؤثرات جديدة، ولإثبات أن هذا العالم الموجود على هذا المسرح جدير بأن يلعب دوراً أشد وضوحاً وأقوى تأثيراً من الدور السابق طالما احتفظ بتراثه الجغرافي إسلامياً روحاً وعقيدة، وعربياً أصالة وعمقاً في التاريخ .

وبعد : فإن تراثنا الجغرافي لا يقف عند حد، وما زالت كتب علمائنا مورداً ثرياً يحوي معلومات جديرة بالاهتمام .

• المصـــادر والمراجـــع •

١ – صفة جزيرة العرب – لأبي محمد الحسن الهمداني .

٢ – مروج الذهب – لأبي الحسن المسعودي .

٣ – مسالك الممالك – لأبي إسحاق الاصطخري .

٤ – الممالك والمسالك – للبكري .

٥ – نزهة المشتاق في اختراق الآفاق – لأبي عبدالله محمد الادريسي .

٦ – مقدمة ابن خلدون .

٧ – معجم ما استعجم من أسماء الأمكنة والبقاع للبكرى .

٨ – **معجم البلدان** – ياقوت الحموي .

٩ – تقويم البلدان – لأبي الفدا .

١٠ – عجائب البلدان – للقزويني .

١١ – دور المسلمين في الجغرافيا – نفيس أحمد ترجمة د. فتحي عثمان .

١٢ – في الجغرافيا العربية – د. شاكر خصباك .

١٣ – الجغرافيا العربية – الأمير مصطفى الشهابي .

١٤ – أعلام التاريخ والجغرافيا عند العرب – د. صلاح الدين المنجد .

١٥ – الرّحالة المسلمون في العصور الوسطى – د. زكي محمد حسن .

١٦ – الأبحاث الطبيعية في الجغرافيا العربية – د. شاكر خصباك .

١٧ – مجلة الجمعية الجغرافية العراقية .

• الوثائـــق •
مـــادة علميـــة
لتاريـخ الأمـم والحضـــارات(*)

من المعروف أن الوثائق تُعد المادة الأساسية والعنصر الجوهري في بنية البحث ومنهجه العلمي، لما لها من قيمة علمية في تأصيل البحث وتدعيم بنيانه فأي بحث مطعم بالوثائق يقال عنه أنه بحث موثّق بمعنى أن ما يحتويه من وقائع وأحداث وروايات أمر حيوي، حيث تقاس درجة الأمم ورقيّها بمدى احتفائها واهتمامها بالوثائق ولا سيّما في هذا الزمن الذي تطورت فيه النظم والأساليب العلمية والبحثية والإدارية، وتوسعت قاعدة المعلومات والدراسات في شتى الميادين ومختلف المجالات .

والتوثيق بمعناه الواسع يحقق للباحث معلومات وحقائق مفيدة تعدُّ الوثائق ثروة معرفية لأنها من أهم مصادر المعلومات التاريخية إذ تجسد تاريخ الأمم وحضارتها ولذا ينبغي التعاون بين مراكز البحوث وتنشيط التعاون فيما بينها وبين الأخوة الذين بحوزتهم وثائق ومخطوطات لتأخذ مكانها المناسب من المعالجة والترميم والحفظ والعناية.. ثم خدمة العلم والفكر والمعرفة بحيث ينير الطريق لكل باحث في دروب العلم والمعرفة .

إن جهل الكثير ممن في حوزتهم تلك الوثائق والمخطوطات بقيمتها العلمية يجعلها عرضة للتلف والتمزق والضياع.. وأن تحتل بين سطورها تراث الأمة وترتبط ارتباطاً مباشراً بحضارة الإنسان وبذلك يتضح أهميتها في حفظ التراث وكتابة التاريخ في شتى فروعه ..

(*) مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الخامسة عشرة ، ١٤٠٩هـ

ولقد ظهر الاهتمام بالوثائق والحرص عليها.. حيث أنها تلقي الضوء على المسيرة التاريخية ولكتابة أي بحث بطريقة علمية موضوعية وبصورة شاملة متكاملة فلا بد من استخدام المصادر والوثائق.. إذ من المعروف سلفاً أن الوثائق أصبحت مادة أساسية في بُنية البحث ومنهجه العلمي لما لها من قيمة تاريخية وعلمية، فما يُكتب الآن من كتب إن هو إلا وجهات نظر وتفسيرات للوثائق، أما الوثائق نفسها فهي مادة هذه الكتب ويعدُّ القرن التاسع عشر بداية عهد إنشاء دور الوثائق في الكثير من البلدان وخاصة في بلاد الغرب كبريطانيا وفرنسا وألمانيا وأمريكا.. ثم بدأت تظهر في دول كثيرة ومنها العالم العربي .

فدور الأرشيف وخاصة العثمانية والبريطانية تحتوي اليوم على مجموعات كبيرة من الوثائق التي تساعد الباحثين المتخصصين بوصفها مادة علمية لتاريخ الأمم.. وأصبحت الكثير من الذول المتقدمة تضع الأساليب التقنية الحديثة في حفظ الوثائق وصيانتها وترميمها وتنظيفها.. وأصبحت الوثائق علماً يدرس.. لما لها من دور كبير في عملية البحث التاريخي..

ولقد عني أسلافنا الأوائل في عهود الدولة الإسلامية بإنشاء الدواوين وتنظيم السجلات المتنوعة وإقامة المباني والدور التي تحفظ فيها تلك السجلات بما يمكن أن يسمى دور أرشيف بالاصطلاح المعروف اليوم ولقد تطور علم الوثائق في العصر الحاضر وازداد تقدماً..

لقد تسرّب الكثير من التراث العربي الإسلامي إلى الغرب وقد عكف فريق من المستشرقين على دراسة اللغة العربية والدين الإسلامي واهتموا بقراءة وتحقيق ونشر الكثير من المخطوطات العربية وترجمتها إلى لغتهم

الأصلية بمنهج علمي جديد.. وفي العصر الحاضر بدأت جامعاتنا ومراكز البحوث تعنى بتراثنا وجمعه ونشره وتصوير المخطوطات المنتشرة في أنحاء العالم والاستعانة بكافة الوسائل العلمية في هذا السبيل وتتضافر الجهود في هذا المجال خدمة للعلم والمعرفة ومنطلقة من القيم والمبادئ الإسلامية ومن ينابيع تراثنا المجيد الحافل بالفضائل والمعارف والآداب وكل تلك الجهود ستضيف أشياءً كثيرة بإذن الله وتوفيقه..

إن الوعي الوثائقي الذي بلغته المؤسسات والدور الوثائقية اليوم سيجعل من تلك الكنوز تاريخاً جلياً مع العناية والعمل على تصنيف ذلك وفهرسته ورعاية تلك الوثائق والعناية بها وفك رموزها واستجلاء غوامضها لتبقى عنصراً مفيداً للباحثين وطلاب المعرفة لما تتضمنه من معلومات نافعة، وأن نحرص على تناول ذلك بالدراسة والاستقراء والتحليل .

حيث إنه معروف أن الوثائق تعدُّ المادة الأساسية، والعنصر الجوهري في بنية البحث، ومنهجه العلمي، لما لها من قيمة علمية في تأصيل البحث، وتدعيم بنيانه.. فأي بحث مدعّم بالوثائق، يقال عنه : أنه بحث موثّق لذا نجد أن الدول المتقدمة بادرت بإنشاء دور للوثائق الوطنية بها، للحفاظ على مالديها من وثائق وصيانتها، ومن ثم فهرستها وتصنيفها للاستفادة مما بها .

ومع إنشاء «الدَّارة» بدأ التفكير في جمع الوثائق وحفظها، وفهرستها، لتكون مادة سهلة أمام الباحثين والدارسين، وكان من أهم الأهداف التي وضعتها الدَّارة نصب عينيها، هو جمع الوثائق العربية والوطنية من داخل المملكة وخارجها، وكذلك جمع الوثائق العثمانية من دور الأرشيف والمحفوظات في تركيا، ومصر، باعتبار أن تلك الوثائق تشكل مادة علمية

لتاريخ الدولة السعودية، في دورها الأول والثاني.. وكذلك جمع الوثائق الإنجليزية، حيث إنها أدَّت دوراً مهماً في تاريخ المنطقة.. وأيضاً الوثائق الفرنسية التي تخدم تاريخ بلادنا..

وكان من حُسن الطالع إنشاء المركز الوطني للوثائق والمخطوطات وإلحاقه بالدَّارة أواخر عام ١٣٩٦ هـ، وقام المركز بجهد واضح في هذا الميدان، وجلب العديد من الوثائق العربية والأجنبية، كما قام بجلب مخطوطات أصلية، وصوَّر بعضها الآخر مما له علاقة بخدمة التاريخ الإسلامي، وتاريخ المملكة وجغرافيتها بصفة خاصة..

وأصبح لدى مركز الوثائق والمخطوطات بالدَّارة حوالي خمسة آلاف وثيقة تركية، جاري ترجمتها، وخمسة وستون ألف وثيقة إنجليزية، ومجموعة من الوثائق الفرنسية، هذا بالإضافة إلى الوثائق العربية، والوثائق الجارية، وهي عبارة عن المكاتبات والتعميمات والأوامر التي تنظم الأعمال الإدارية في أجهزة الدولة، وكذلك المطبوعات الحكومية التي تتضمن لوائح، وأنظمة، وتعليمات، ومعاهدات وغير ذلك.. وقد بلغت تلك النظم والتعميمات (٤٥٠) ملفاً، وبلغت الرسائل والأطروحات الجامعية ٥٧٧ رسالة .

كما أن المخطوطات تمثل جانباً من تراث المملكة، والجزيرة العربية، بل تاريخ الإسلام والمسلمين بصفة عامة، وأصبح لدى المركز من المخطوطات (١٣٠٠) ألف وثلاثمائة مخطوطة.. ويقوم المركز بتقديم خدماته للباحثين والدارسين الذين يفدون إلى الدَّارة، للاستفادة مما بها، فيقدم لهم الوثائق التي تفيدهم في موضوع دراستهم وأطروحاتهم العلمية، ويصور لهم بعضها، كما يقوم بترميم الوثائق التي بحوزة المواطنين مقابل الحصول على نسخة منها، للاحتفاظ بها، وتسجيلها لديه باسم صاحبها..

وعسى أن يأتي اليوم الذي يتحقق فيه للأمة العربية الإسلامية تجميع وثائقها ومخطوطاتها وتراثها المتناثر في مكتبات العالم.. إذ أن تراثنا من الضخامة إلى درجة يتطلب تضافر الجهود لإحيائه وحفظه وإخراجه إلى النور لينتفع به القراء خاصة إذا عرفنا أن عدد المخطوطات العربية الموجودة في مختلف أنحاء العالم تقدر بما لا يقل عن (ثلاثة ملايين) مخطوطة وكذلك الوثائق التي تخص العالم العربي والإسلامي تزيد على (مائة وخمسين مليون) وثيقة.. ولا ريب إن هذا التراث إن ظلّ بدون تصنيف وجمع وفهرسة وتحقيق سوف يبقى كالكنز المدفون لا فائدة منه وسوف يكون عرضة للتلف والضياع.. إذ الاهتمام بالتراث وثيقة ومخطوطة ليس عملًا علمياً فحسب بل أصبح واجباً عربياً إسلامياً ينبغي الاهتمام به..

ولقد لاحظنا اهتمام الغربيين ونشاطهم في هذا المجال والجهود التي يبذلونها في هذا المضمار.. وقد تجاوز ذلك إلى اهتمامهم بتراث ووثائق ومخطوطات الأمم الأخرى، وكثيراً ما نسمع عن تشكيل مجموعة من الباحثين لدراسة ونشر وتحقيق مجموعة من الوثائق والمخطوطات وذيّلوها بالحواشي والتعليقات والفهارس المختلفة وهي بادرة طيبة وتبشر بالخير .

إن الوثائق والمخطوطات ميراث ثقافي لنا يجب أن نحافظ عليه ونرعاه ونحن أجدر به من غيرنا من الأمم التي تحتفظ بجزء منه اليوم في خزائنها. ولذا ينبغي نشر الوعي الوثائقي حول أهمية الوثائق عن طريق وسائل الإعلام وإعداد البحوث والدراسات من هذا المجال، ولكَم ابتهجنا بقرار مجلس الوزراء الموقَّر على إنشاء المركز الوطني للوثائق والمخطوطات والذي سيكون إن شاء الله سجلًا خالداً لتاريخ هذه البلاد ومسيرتها الحضارية وما بلغته من تطور ونهوض في شتى الميادين ومختلف المجالات .

• حـــول الوثائـــق والتوثيـق •

لقد أولت المملكة العربية السعودية التعليم عناية فائقة وما وصلت إليه اليوم يعتبر ذا قيمة كبيرة وإن الاهتمام بالجامعات ومراكز البحوث وخدمة الباحثين لدليل على التطور والوعي والرقي فتلك هي الركائز والدعامات الأولى للتطور والتنمية، ومن مراكز البحوث دارة الملك عبدالعزيز، فهي مركز بحث متخصص تستهدف دعم حركة البحث العلمي وأصالته وسلامة منهجه العلمي، تبذل كل مافي وسعها لخدمة الباحثين على مختلف المستويات العلمية والأكاديمية وتوفر لهم المصادر والمراجع والوثائق والخرائط وكل ما من شأنه أن يعين على إجراء البحوث في كافة الميادين التي تدخل في نطاق الأغراض التي تخدمها الدارة، وتمارس الدارة العديد من النشاطات التي تخدم أهدافها وتحقق الغرض الذي أنشئت من أجله، ومن ذلك الاهتمام بالوثائق إذ أن الوثائق تكوّن جانباً مهماً من تراث الأمم تستحق الحفاظ عليه في سجل حضارتها ومصدر معلوماتها والأساس الأول لتدوين تاريخها وسير رجالها، ولما كان التاريخ ذاكرة البشرية، فقد حفظت الوثائق تلك الذاكرة حيّة وكانت الصلة بين الماضي والحاضر.. فمن الواجب أن نهتم بالمخطوطات والتراث لما تمثله من إنتاج فكري وحضاري وتاريخي يبرز حضارة الأمة ويدل على تقدمها ومعطياتها الفكرية وليس معنى الاهتمام بذلك عودة إلى الوراء، وبُعد عن مواكبة التطور فأي أمة من الأمم لابد أن ترتبط بماضيها وتراثها الحضاري وإلا كانت أمة مجهولة..

ولا شك أن مجال التراث والتوثيق مجال من الاهتمام ومن الموضوعية بحيث برز الاهتمام به رسمياً واهتم به المفكرون والباحثون في هذه البلاد

وفي غيرها لدعم أسس التخطيط التنموي في مختلف المجالات لأنها تحمل الخصائص العربية الإسلامية والاهتمام بذلك يُعطي الأمة حصانة في مواجهة الغزو الفكري ضدها .

وجدير بنا أن نحفظه من الفناء ونغار عليه من الأرزاء ولقد ركزت الحركات الشعوبية التي تشوه التراث العربي والإسلامي ووضعت الكتب في تشويه آثار الأمة العربية والإسلامية قديماً وحديثاً.. وبنوا على مروياتهم أحكاماً جائرة ضد الإسلام والمسلمين والتي استهدفت العقائد والقيم الروحية ومحاربة الشريعة الإسلامية وتراثها الخالد .

ولا نريد أن نستطرد في الحديث بأكثر من ذلك مكتفين بقول الشاعر العربي :

وأجمع أقوال الرجال أسدها معان كبار في حروف قلائل

وفي العصر الحديث أصبحت الوثائق ترتبط ارتباطاً حيوياً بجميع مناشط الدولة وحقولها المتنوعة، فهي ناحية حيوية مهمة وتحتل مكانة رفيعة ولقد قيل لا تاريخ بدون وثائق إذ هي تجسد التاريخ الفعلي للأمم وحضارتها ..

وانطلاقاً من هذا المفهوم وفي إطار هذه الغاية يتبين دور الوثائق وأهمية التوثيق للبيانات والمعلومات الأساسية والوثائق كما هو معروف أنواع، فهناك الوثائق الرسمية والخاصة والأدبية والإدارية والعامة والأرشيفية والسياسية والتنظيمية والعسكرية، لدعم أسس التخطيط والبناء وللدراسات العلمية والتقنية .

ولقد رأيت في السنوات الأخيرة قيام بعض المؤسسات في بلادنا بإصدار بيانات موثّقة منظمة يستفيد منها الباحثون والمخططون وتبقى سنداً للمؤرخين والدارسين لما تقدمه لهم وتمدهم به من المعلومات

المفيدة.. ولعل الأجهزة التعليمية والصحية وغيرها تهتم بهذا الجانب.. فذلك مفيد في إثراء حياتنا العلمية والفكرية وسوف تكون تلك الكتب الموثقة معيناً لا ينضب للباحثين والدارسين والمؤرخين والمهتمين بهذا الجانب.. ومن البديهي القول إن الأمم تحافظ على وثائقها بكل عناية واهتمام وتعتبر تلك الوثائق كنوزاً ثمينة وذلك لأن الوثيقة هي الشاهد الأكبر على التاريخ وهي الدليل القوي على الشخصية الحضارية لأي شعب من الشعوب والحفاظ على الوثائق حفاظ على التاريخ فإذا كانت هذه أهميتها فجدير بنا أن نهتم بها ونحرص عليها ووضعها في متناول الباحثين والمؤرخين ولقد تفوق أسلافنا في الاهتمام بتوثيق النصوص والروايات بدأه رواة الحديث النبوي فحددوا ضوابطه ودققوا في طلب البيانات التي تثبت صحة النص أو الخبر المروى، وكذا اهتم علماء اللغة والتاريخ والأدب فرددوا أشعارهم وأخبارهم بأسانيدها..

إن مهمة الموثِّق والباحث ليست بالأمر اليسير ولكي ينهض بهذا العبء التاريخي فلا بد من إعداد كوادر قادرة على الإحاطة بعلم الوثائق وطرائقه وأشكال الخطوط وأنواعها وطريقة استخدام الفهارس للرجوع إلى المصادر والمراجع وتنظيم وتحليل الوثائق وفقاً لأحدث الأساليب والنظم المطبقة عالمياً ..

إننا لنتطلَّع إلى الاهتمام بهذا الموضوع وتوثيق البيانات والمعلومات الأساسية والدراسات وأوعية المعلومات الأخرى..

وفي إطار تحقيق ذلك ينبغي تحقيق المعلومات وإتاحة ذلك للمستفيدين وفق اهتماماتهم وطلباتهم من مراجع وكتب ودوريات ووثائق وبيانات.. وبذلك نكون حفظنا الكثير من تراثنا وجعلناه في صورة موثَّقة منظَّمة ومفهرسة وفق أسلوب التوثيق العلمي المتعارف عليه وإعداد قواعد

للبيانات الببليوغرافية والإحصائية والأدلة والكشافات وتيسيرها وإتاحة ذلك للمستفيدين وفق اهتماماتهم وطلباتهم.. وهكذا تصبح أداة نافعة فعالة لدعم عمليات التخطيط والبحث والدراسات التي تقتضيها ظروف العصر ومصلحة العمل ..

إن الوعي الوثائقي أمر حيوي لقطاعات المجتمع حيث تقاس درجة حضارة الأمم ووعيها بأهمية حرصها واهتمامها بالوثائق ومن يتابع الحركة الوثائقية في بلادنا يُسرّ كثيراً وخاصة في هذه الفترة التي بدأ الاهتمام بهذا الجانب يبرز ويواكب النشاطات الأخرى التي تشهدها البلاد في مختلف المجالات والميادين وتطورت فيها الأساليب والنظم الإدارية بشكل كبير وجرى استخدام التقنيات الحديثة تحقيقاً لأهداف خطط التنمية الطموحة ومواكبة للتقدم الكبير للمعلومات الذي أصبح من خصائص هذا العصر وأصبحت المراكز الوثائقية في أغلب دول العالم تقدم خدماتها بشكل متميِّز للباحثين والمخططين والمؤرخين ودور الثقافة والعلم والاعلام والتربية والإدارة وبذلك تطور مفهوم الوثائق وما تقدمه من دور فعال في خدمة تلك القطاعات ..

ومن هنا يتبين أهمية إعداد الكوادر البشرية المتخصصة في مجال الوثائق والتوثيق للقيام بدورها ورسالتها وذلك عن طريق التدريب وافتتاح أقسام أو معاهد متخصصة في علم الوثائق وتشجيع العاملين في هذا المجال والتركيز على دور هذا العلم والاهتمام به والتدريب المهني المستمر للعاملين في حقل الوثائق وكذلك المخطوطات، فقد أصبحت الوثائق وحفظها وإدارتها وتصنيفها ودراستها واستخدامها علماً قائماً بذاته كمصدر من مصادر المعلومات ..

• أهمية تجميع تراثنا الوثائقي(*)•

هناك أهمية كبرى، بل ضرورة ملحة لجمع تراثنا المكتوب في وثائق ومخطوطات موزعة على مختلف مكتبات العالم، ويتعذر علينا كعرب الوصول إلى تلك التحف الثمينة من تراثنا، وذلك لبعدها عنا مئات بل آلاف الأميال، وللعقبات التي تضعها حكومات هذه الدول التي تقتني تلك الوثائق والمخطوطات أمام من يريد الحصول على أي شيء منها..

وتتضح لنا ضرورة العمل الجاد والإصرار على جمع تراثنا السليب إذا علمنا ببساطة أن التراث هو القاعدة الأصلية التي ترتكز عليها بنية كل أمة، وأنه يتدخل في تشكيل ملامح الشعوب وتحديد سماتها، ويمثل تجاربها الإنسانية التي قامت بها عبر العصور، تلك التجارب التي تمت وأدت نتائجها وبقيت دروساً متاحة للخَلَف يستمد منها العِبَر ويكوّن من نتائجها رؤية مستقبلية لما يمكن أن يحدث، فالتراث إذن ثروة علمية نفيسة لا تقدر بثمن .

والوثائق التي تحمل بين سطورها تراث الأمة ترتبط ارتباطاً مباشراً بحضارة الإنسان، ذلك أن حضارة أي شعب تحتاج إلى نصوص مكتوبة تدل عليها، سواء أكان ذلك النص مكتوباً على ألواح أو أوراق البردي أو حلود الحيوانات .

ومن البديهي القول أن الشعوب المتقدمة في سلم الحضارة تحافظ على وثائقها بكل تشدد وعناية، وتعتبر تلك الوثائق كنوزاً ثمينة، ذلك أن الوثيقة هي الشاهد الأكبر على التاريخ، وهي الدليل الأعظم على الشخصية الحضارية لأي شعب من الشعوب .

(*) مجلة الدارة، العدد الأول، السنة الحادية عشرة، شوال ١٤٠٥ هـ .

والوثائق هي الأصول النزيهة التي يجد المؤرخ بين ثنايا سطورها من الحقائق ما يسد الثغرات الناقصة ويستكمل الحلقات المفقودة ..

والدراسات التاريخية المبتكرة تعتمد اليوم اعتماداً كبيراً على الوثائق باعتبارها من المصادر التاريخية الأصلية والأساسية لكل باحث يرغب في إضافة مادة علمية جديدة أو الخروج بنتائج وحقائق علمية لم تكن معروفة لكل المؤرخين أو بعضهم من الذين يعتمدون على المراجع الأدبية والتاريخية المطبوعة وحدها ..

وتعتبر الوثائق من المصادر الأصلية والأساسية لدراسة التاريخ والحضارة العربية والإسلامية فهي تفتح لنا أبواباً جديدة متعددة للدراسة باعتبارها منبعاً مادياً بكراً يرد فيه الكثير مما أهمله بعض المؤرخين للتاريخ..

كيف نستطيع إغفال أهمية جمع تراثنا الفكري الموجود في مختلف بقاع العالم إذا علمنا أن معظم ماتقتنيه مكتبات العالم من وثائقنا ومخطوطاتنا العربية الإسلامية نسخة وحيدة وليس لها مثيل في بلادنا العربية ونحن كعرب ومسلمين في أشد الحاجة إلى معرفة ما تحتويه تلك النسخ الفريدة حتى ينكشف لنا كثير من الحقائق التي نجهلها ولا نعرف شيئاً عنها وحتى نستطيع أن نصحح بعض المغالطات المقصودة والتضليل المتعمد من جانب أعداء الأمة الإسلامية .

ودون الحصول على تراثنا المسلوب كيف نستطيع الوصول إلى التعريف بفضل المسلمين في جعل الكيمياء علماً يعتمد على البحث والتجربة، وفضلهم في وضع علم الجبر المتمثل في كتاب الجبر والمقابلة للخوارزمي، والتقدم الذي أحرزه علماء المسلمين في علم الطب. وباختصار فإن ذلك التراث العربي الإسلامي المتناثر هنا وهناك زاخر بكم

هائل من العلوم في مختلف الاتجاهات مثل علوم القرآن والحديث والسيرة والتدوين والتاريخ والفقه والعقائد وعلوم اللغة والطب والكيمياء والرياضيات والفلك والعمارة والفنون وغير ذلك .

وإذا كان تراثنا الموجود في مختلف بقاع العالم هاماً جداً لتلك البلاد سواء أكانت أوروبية أو غير أوروبية فهل من الممكن أن ننكر بأنه أهم لنا ونحن أصحابه ؟.

فمن الذي جعل انجلترا وفرنسا وألمانيا وبلجيكا والنمسا وهولندا وإيطاليا والفاتيكان والبرتغال والاتحاد السوفيتي والولايات المتحدة الأمريكية تلهث وتتسابق على اقتناء ماتستطيع اقتناءه من التراث العربي الإسلامي وتضعه في مكتباتها وتغلق عليه شتى المغاليق.. من المحافظة الواعية، ولا يوجد سبب لذلك سوى أهمية هذا التراث أولًا، ثم حرمان المسلمين ثانياً من ذلك الكنز الثمين، ألا وهو تراثهم، وذلك للعمل على عدم تقدمهم، وحرصاً منهم على مواصلة تخلف المسلمين .

بالإضافة إلى كل ذلك هل يمكن للباحث العربي أن يتمكن من السيطرة الكاملة على بحثه دون الرجوع إلى تلك الوثائق والمخطوطات الموجودة والمشتتة في مكتبات تلك الدول الأخرى والتي لا يوجد لها نسخ أخرى في وطننا العربي .

ولعل من الطريف ماقرأته مؤخراً أن أحد تلاميذ إحدى الجامعات الغربية أهدى إلى جامعته التي يدرس فيها سبعة آلاف وخمسمائة مخطوط عربي كانت في حوزة أحد أقاربه من المستشرقين.. ويبدو أن هناك قصصاً كثيرة شبيهة بذلك، فلنحرص على تجميع ولَمِّ شتات تراثنا المتناثر في

خزائن مكتبات الغرب والشرق، ولدى هواة جمع المخطوطات وعلماء الاستشراق..

وكم هو جميل جداً أن تثار بين الفينة والفينة قضايا التراث وأن تكون محوراً وموضوعاً لاهتماماتنا، إذ نلتمس في ذلك شخصيتنا ووجودنا الحضاري وتأثيرنا القوي الممتد منذ القديم، ومن الواجب أن نكتب عنه ونعايشه وننقِّب فيه ونختار منه ونتناول ذلك بالدراسة والتحليل والاستقراء والتنقيح .

• تراثنـــا بيـن الإهمـــال.. والتباكي ! •

أخي العزيز الأستاذ عبدالله الحقيل :

قرأت مقالك في مجلة «الدارة» (شوال ١٤٠٥هـ) تحت عنوان «**أهمية تجميع تراثنا الوثائقي المتناثر في مكتبات العالم**»، ورغم تقديري واحترامي لإخلاصك وحماستك أجدني مضطراً إلى لفت نظرك إلى أمور لم تأت عليها في مقالك ! ألفت نظرك إليها كنوع من المشاركة في إبداء الرأي حول هذا الموضوع المهم !

باديء ذي بدء أنقل هنا الفقرة الأولى من مقالك :

«هناك أهمية كبرى، بل ضرورية ملحَّة لجمع تراثنا المكتوب في وثائق ومخطوطات موزعة على مختلف مكتبات العالم، ويتعذر علينا كعرب الوصول إلى تلك التحف الثمينة من تراثنا، وذلك لبعدها عنا مئات بل آلاف الأميال، وللعقبات التي تضعها حكومات هذه الدول التي تقتني تلك الوثائق والمخطوطات أمام من يريد الحصول على أي شيء منها» .

وبعد نقل هذه الفقرة نجد أنفسنا تجاه عدد من الملاحظات لم تأت عليها في مقالك وهي كما يلي :

• العـــالم الغربـي •
حافـــظ على تراثنـــا أكثـــر منـا

* يجب أن نعترف أن الدول الغربية قد حافظت على تراثنا كما لم نحافظ عليه نحن أنفسنا، وما زالت محافظتها على تراثنا أفضل بكثير جداً من طريقتنا في الحفاظ على مالدينا !!

* الدول الغربية وخاصة بريطانيا، تسهل للباحثين الاطلاع على تراثنا

وتصوير ما يشاءون منه، وتقوم المكتبات البريطانية بخدمات جلى في هذا المجال، وذلك على العكس تماماً من المكتبات التركية مثلا.. أو حتى المكتبات العربية نفسها، خاصة كانت أو عامة، حيث لا يجد الباحث أية مساعدة على الاطلاق !!

• معهد المخطوطات في القاهرة •
« كأننا يا بدر لا رحنا ولا جينا »

* تعلم أن الدول العربية، ممثلة في الجامعة العربية، قد اتفقت منذ مدة طويلة على ضرورة استعادة تراثنا من مكتبات العالم عن طريق إرسال بعثات للحصول على الأصول نفسها أو على صور منها –على الأقل– وقام «معهد المخطوطات» التابع للجامعة بإرسال البعثات والحصول على المخطوطات أو مصوراتها.. وقد حصل المعهد بالفعل على مجموعة كبيرة جداً.. فهل تعلم أن المعهد لم يقدم أي مساعدة تذكر للباحثين.. بل روى لي شيخنا الجليل (**حمد الجاسر**) مدى معاناته شخصياً مع إدارة هذا المعهد.. لم يشفع له كونه العلامة الكبير، ولا كونه عضو مجمع اللغة في القاهرة نفسها .. بل ولا كونه قد أهدى للمعهد المذكور عدة مصورات عن مخطوطات يملكها شخصياً.. لم يشفع له ذلك أو غيره.. فما بالك بطالب العلم العادي الذي لا يملك حولا ولا طولا» .

والأدهى من ذلك أن الجامعة العربية قد انتقلت الآن إلى «تونس» وفقاً لظروف سياسية، وقد انتقل المعهد المذكور مع الجامعة، ولكن كل ما يملكه من مخطوطات ومصورات، بقيت جميعها في القاهرة حيث لا يستطيع أي باحث مجرد التفكير في معرفة مكانها، فضلًا عن أن الاستفادة منها.. أي أن وجودها الآن كعدمه، وكأنه لم تبذل من أجلها الأموال والجهود !!

* في نفس اليوم الذي قرأت فيه مقالك الكريم، قرأت مقالا جيداً للأستاذ «**بول شاوول**» في مجلة المستقبل (عدد ٤٢٦ في ٢٩ يونيو ١٩٨٥) تحت عنوان «التراث بين الاعراب والاغراب» يهمني أن أنقل لك وللقراء الكرام بعض فقراته التي تتصل بصميم موضوعنا هذا...

لا أظن أن هناك شعباً يتنكر لإنجازاته التراثية.. أو يهملها.. أو يلغيها.. أو ينساها كالعرب»..

«كأنما لا يكفي تخلي العرب عن كنوزهم التراثية والحضارية الموجودة في مكتبات ومتاحف أوروبا وأمريكا بمئات الألوف من القطع الفنية والأثرية والمخطوطات حتى يعمد بعض العرب «المقيمين» و«الاقحاح» و«المتمسكين» «بعروبتهم» إلى إهدار ماتبقى من هذه الكنوز التي لا تزال إما مرمية في المكتبات والمؤسسات أو ضائعة في زوايا المنازل والأقبية، أو محاصرة لدى بعض المراجع والهيئات (يقصد مخطوطات الجامعة العربية في مصر) فالتراث واقع بين مطرقة الغرب الذي نهبه، وبين سندان الإهمال والجهل والتخلف العربي..

«كما أنهم –أي العرب– لا يفعلون شيئاً كي يقدموا ماتبقى من هذا التراث في الأقطار العربية بطريقة تليق به، وتمسح الغبار المتراكم عليه» انتهى..

أجل.. أجل –ياأخي عبدالله– ماذا صنعنا من أجل التراث المتبقي لدينا ؟!

لا شيء.: لا شيء !!

إننا حتى لم نسهل للباحثين إمكانية الاطلاع على هذا التراث.. وأنت –ياأخي– خير من يعرف ذلك .

* لقد قرأت في نفس اليوم، وفي نفس المجلة «المستقبل» وفي نفس العدد الذي أشرت إليه الخبر التالي بالنص :

• مليون مخطوط في الجمهورية العربية اليمنية •

«تعرض في صنعاء نسخة من مخطوط مكتوب باليد للقرآن الكريم يرجع تاريخها إلى عام ٨٦٠م وأكد الخبراء أن هذه النسخة تُعدُّ أقدم نسخة مكتوبة بخط اليد يتم اكتشافها في البلاد العربية، وطبقاً للبحث الذي أجري على هذا النص، فإن هذه النسخة الأصلية المكتوبة بخط الإمام علي بن أبي طالب الذي نسخ القرآن الكريم على مخطوطات يبلغ حجمها ٣٤ في ٤٣ سنتم، تتميز بالوضوح والجمال بالرغم من أن جزءاً منها كان مفقوداً، وقد اكتشفت هذه النسخة للمرة الأولى في عام ١٩٧٢ م عندما كانت تجرى إصلاحات مسجد صنعاء الكبير، وقد سقط كثير من المخطوطات من سقف المسجد بالساحة الغربية..

«وذكر الخبراء أن هناك مليون مجلد من الكتب القديمة المكتوبة بخط اليد في الجمهورية العربية اليمنية» انتهى..

أرأيت – ياأخي عبدالله ؟– هناك مليون مخطوط في الجمهورية العربية اليمنية وحدها، ناهيك بما يوجد في سائر الدول العربية والإسلامية، سواء لدى هيئات رسمية أو لدى أفراد.. تُرَى ماذا صنعنا من أجل هذه الثروة الهائلة التي بأيدينا ؟؟

لو أننا صنعنا شيئاً من أجل مافي أيدينا لحق لنا التباكي على تراثنا المبعثر في مكتبات العالم..

إن الذي استفدناه من وجود مخطوطاتنا في المكتبات الغربية أكثر بما لا يقاس مما استفدناه من المخطوطات التي ماتزال بين أيدينا مركونة في زوايا الإهمال والنسيان» !!

إن أكبر نسبة مما جرى تحقيقه وطبعه ونشره من تراثنا كان من المخطوطات الموجودة في المكتبات الغربية، وليس من المخطوطات الموجودة في حوزتنا، وهذا مما يؤسف له أشد الأسف!!

كما أن الباحث يحصل على بغيته في المكتبة الغربية ولا يحصل عليها في المكتبة العربية أو الإسلامية !!

• مكتبة غربية تبعث لي • صورة مخطوط على عنواني بجدة

وأذكر هنا قصة حصلت لي شخصياً.. لقد أردت أن أهدي أحد أصدقائي من الباحثين صورة من ديوان شعر قديم.. كنت أعلم أنه يوجد لدى أحد أصدقائي أيضاً في مكتبته الخاصة فلما طلبت منه الحصول على نسخة منه رفض ذلك بحزم وحسم.. بل رفض أن يريني إياه بعد أن علم باهتمامي به.. ولم تشفع لي محبتي له، ولا محبته لي فيئست منه!!

وقد صادف أن سافرت إلى لندن في نفس الفترة، وكنت أتردد على مكتبة بريطانية، أراجع في فهارسها، وإذا بي -صدفة- أجد الديوان المطلوب في أحد الفهارس فطلبت من مديرة المكتبة نسخة مصورة عنه فقالت لي إن هذا الديوان من المخطوطات القديمة جداً، وتصويره يحتاج إلى عناية بالغة فعليك أن تدفع الرسوم، وتترك لنا عنوانك في لندن وفي بلدك أيضاً، وسنبعثه لك !!

قلت لها : إنني على سفر.. فقالت: اترك لنا عنوانك في بلدك، وثق أنه سيصلك !!

وقد دفعت الرسوم، وهي أقل من جنيه استرليني للورقة الواحدة، وعدت إلى بلدي، وأنا غير مصدّق بأنهم سيوفون بوعدهم، ولكني لم

ألبث غير فترة يسيرة حتى وجدت صورة المخطوط المذكور بين يديّ !!

أي أخي .. ياعبدالله ..

إنني -بكلامي هذا- لست أؤيد -بالطبع- بقاء مخطوطاتنا في المكتبات الغربية أو غير الغربية.. بل أردت أن أعطيك وأعطي القارئ الكريم مقارنة بين مدى اهتمام المكتبات الغربية بالحفاظ على تراثنا، وتسهيل الأمر للباحثين للاطلاع عليه.. بل وأخذ صور عنه، وبين مدى اهتمامنا نحن بما تبقّى لدينا من تراثنا، ووضع العوائق التي يستحيل معها حصول أي باحث على بغيته..

وقد أشرت في مطلع رسالتي هذه إلى معهد المخطوطات العربية.. وأزيد الآن أنه حتى قبل أن ينقل المعهد إلى «الكويت» كان في حوزته العديد من المخطوطات والمصورات التي حصل عليها، وهو لم يحصل عليها أصلا إلا من أجل العمل على إحيائها، وتسهيل الاطلاع عليها لمن يرغب من الباحثين.. ولكن كان الأمر كما تعرف من حيث «البيروقراطية» الإدارية.. أو من حيث عدم الاهتمام واللامبالاة.. فيا أخي -ياعبدالله- ما جدوى الحرص على تراثنا المتناثر في العالم إذا كنا سنأتي به، ونلقيه في زوايا الإهمال الشنيع.. وما دمنا لن نعمل على إحيائه، ولن نتيح للباحثين فرص الاطلاع عليه ؟؟!

• تراثنا بين تلميذ غربي • وأستاذ عربي مسلم

* لقد أشرت -يا أخي العزيز- إلى نقطة مهمة عندما قلت في مقالك ما نصه :

«ولعل من الطريف ما قرأته مؤخراً عن أحد تلاميذ إحدى

الجامعات الغربية الذي أهدى إلى جامعته التي يدرس فيها سبعة آلاف وخمسمائة مخطوط عربي كانت في حوزة أحد أقاربه من المستشرقين» ..

هل تظن – يا أخي عبدالله – لو أن هذا الطالب كان عربياً أو مسلماً.. هل يهتم بإهداء جامعته التي يدرس فيها تلك الثروة من المخطوطات ؟!!

أنا شخصياً.. لا أشك في أن هذا الطالب لو كان من العرب أو المسلمين.. لا بد أن يفعل أحد أمرين...

إما أن يبيعها في مزاد علني.. أو غير علني.. وإما أن يضعها في قبو، ويتركها للعتة والرطوبة !!

إن إهداء المخطوطات إلى الجامعات فكرة حضارية متقدمة.. وأذكر – بهذا الصدد – إنني نصحت أحد أصدقائي، وهو يملك مجموعة من مخطوطات قيِّمة.. نصحته ليس بإهداء مخطوطاته لإحدى جامعاتنا.. بل نصحته بالسماح لإحدى جامعاتنا بتصويرها للاستفادة منها بطرحها بين أيدي الباحثين.. فما كان منه إلا أن ضحك من اقتراحي الساذج، وأظنه – بعد ذلك – زاد من عدد الأقفال على باب قبو منزله !!

• هل نهب الغرب تراثنا • أم نحن بعناه ؟!

* وهناك نقطة مهمة في هذا الشأن، وهي كيف حصل ذلك المستشرق على «٧٥٠٠ مخطوط» ؟!

هل كان ذلك المستشرق قائد قوة اجتاحت العالم العربي، ونهبت – من ضمن ما نهبت – ذلك العدد الكبير من المخطوطات ؟!

بل دعنا نجعل السؤال أكبر من ذلك وهو :

هل المخطوطات الموجودة في المكتبات الغربية قد نهبها «كلها»

الاستعمار أثناء وجوده في البلدان العربية والإسلامية ؟!

والجوب : أبداً.. أبداً.. فمعظم تلك المخطوطات قد بيعت على الغربيين من قبل عرب ومسلمين. وأنا نفسي شاهدت بأم عيني –منذ مدة قريبة– أحد إخواننا من الأفغان، وهو يعرض على مكتبة بريطانية ثلاثة مخطوطات أحدها مخطوطة مصحف شريف.. وقد اشترتها المكتبة بالفعل !!

وأعرف –يا أخي عبدالله– أحد كبار أساتذتنا هنا في المملكة.. هذا الأستاذ قام ببيع مجموعة هائلة من المخطوطات بمبلغ مائتي ألف ليرة لبنانية، وذلك قبل نحو عشرين عاماً.. وقد اشتراها منه أحد سماسرة المخطوطات لحساب مكتبات غربية.. أو لحساب مستشرقين !!

فتأمَّل معي تصرّف هذا الأستاذ الكبير.. الأستاذ العربي المسلم الذي يتباكى الآن –من ضمن من يتباكون– على تراثنا المتناثر في المكتبات العالمية.. تأمَّل معي تصرف هذا الأستاذ العربي المسلم.. وتأمَّل تصرّف ذلك الطالب الغربي الذي أهدى جامعته (٧٥٠٠ مخطوطة) هل تظنه كان يجهل قيمتها المادية أو المعنوية ؟!

لو كان يجهل ذلك لما كان لإهدائه أي معنى !!

ولا شك عندي أن تصرف ذلك الأستاذ، وبيعه لكمية ضخمة من المخطوطات مقابل الإغراء المادي.. لا شك عندي أن هذا التصرف وأمثاله هو سبب نكبتنا في تراثنا.. ولا شك عندي أيضاً أن أي عربي أو مسلم يحتفظ في خزائنه أو في قبو منزله بمخطوطات تراثية ولا يسمح لأحد بالاطلاع عليها أو الاستفادة منها لهو أكثر جرماً من ذلك الأستاذ البائع !!

ولا شك عندي أننا جميعاً كعرب ومسلمين أكثر جرماً من هذا وذاك

عندما لا نستفيد مما بين أيدينا من تراثنا.. بل نهمله، ونتباكى على ماهو عند الغير.. في حين أن ذلك الغير قد حافظ على تراثنا واستفاد منه وأفاد أكثر منا.. وهو يعرف -على اقل- قدر هذا التراث العظيم !!

• صدق المطالبة بالتراث ؟! •

أخي... يا عبدالله .

أكرر إنني لاأقصد بكلامي هذا عدم جدوى المطالبة بتراثنا عند الغرب أو الشرق.. بل أنا أطالب بضرورة ذلك.. ولكن قبل أن نطالب بذلك يجب أن نكون أكثر صدقاً مع أنفسنا، وأكثر صدقاً في حبنا واحترامنا لتراثنا ..

وسأضرب لك مثلًا عن كيف يكون الصدق مع أنفسنا.. أو الصدق في المطالبة بحقنا.. أضرب لك مثلًا بالخبر التالي، وقد قرأته في إحدى المجلات العربية تحت عنوان «حملة قومية بريطانية لاسترداد لوحة لصموئيل بالمر» .

وهذا نصه :

«شن المتحف البريطاني حملة «قومية» تحثّ الشعب البريطاني على جمع التبرعات لإعادة لوحة «حقول القمح في ضوء القمر» للرسام البريطاني صموئيل بالمر التي اشتراها أمريكي من هواة جمع التحف.. نجحت الحملة وتم جمع مبلغ ٢٤٢ ألف دولار سوف تُرد للأمريكي الذي اشترى اللوحة «انتهى»..

أرأيت -ياأخي- كيف يكون الصدق، وكيف تكون الفعالية في المطالبة بالتراث أو التحف ؟!

إننا في عالمنا العربي أو الإسلامي.. نكل أمرنا في كل شيء إلى

حكوماتنا.. أما نحن فلا نصنع شيئاً.. أما متاحفنا ومعاهدنا، وجامعاتنا فلا تصنع شيئاً !!

ألا ترى معي -يا أخي- أية غرابة في الفارق بين تصرف المتحف البريطاني وبين تصرف مئات الملايين من العرب والمسلمين بحكوماتهم، وهيئاتهم، ومتاحفهم، وجامعاتهم نحو تراثهم الضخم، وليس نحو مجرد لوحة عن «حقول القمح» ؟!

سامحك الله -يا أخي عبدالله- لقد نكأت جرحاً كبيراً.. ولكن تشفع لك حُسن نيتك فليسامحك الله !!

أخـــــوك
علي العميـر

حـول مقـال :

• تراثنـــا بيـن الإهمـــال والتباكـي[*] •

اطلعت على المقالة القيمة المنشورة في عكاظ عدد ٦٩٧٣ بعنوان «حول تراثنا بين الإهمال والتباكي» للأخ الأستاذ علي العمير، وذلك تعقيباً على المقالة التي نشرتها في مجلة الدارة العدد الأول السنة الحادية عشرة حول أهمية تجميع تراثنا المتناثر.. وأشكر أخي العمير أعمق الشكر على اهتمامه بالموضوع الذي يهز وجدان كل مثقف عربي مسلم لا يملك من سلاح سوى الكلمة الطيبة والنية الحسنة ..

أخي : لقد جاءت كلماتك كعادتك مفعمة بالأمل والإخلاص ورغم قناعتي بما أوردت في مقالتك إلا أنني مازلت من المطالبين بضرورة تجميع تراثنا الوثائقي المتناثر في مكتبات العالم عن طريق الاسترجاع أو الاقتناء أو التصوير ووضعه في متناول جامعاتنا وباحثينا.. فلعل الدعوة تثمر ثمراً طيباً ذات يوم.. فأنت تعلم يا أخي أن التراث العربي الإسلامي حَمَل إلينا الكثير من علوم أسلافنا الميامين، ورغم اعترافنا بفضل الغرب إلا أن الوقت قد حان للمشاركة والإسهام من جانبنا في إعادة دراسة هذا التراث.. فمعارفنا الموروثة قد تركت بصماتها الواضحة في الفكر والحضارة الإنسانية عامة.. وما أحوجنا اليوم.. ونحن نعيش هذه الصحوة أن نمكّن أبناء الأمة العربية والإسلامية من التعرف على تراث أجداده وتمكينه من قراءة ذلك التراث العظيم وشحذ هممه لدراسته وتحقيقه ونشره .

(★) مجلة الدارة، العدد الثالث، السنة الحادية عشرة، ربيع الآخر ١٤٠٦ هـ .

فالأمة الإسلامية ذات حضارة متميِّزة قائمة على أسس ثابتة من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وما خلفه السلف الصالح من آداب وأخلاق وتنظيم للسلوك إلى غير ذلك مما يتوقف عليه بقاء شخصية هذه الأمة متميِّزة ومتطوِّرة..

ومما يؤسف له أننا نجد من علماء الغرب من يبني دراساته في هذه الأيام وفي كثير من العلوم على أفكار عربية إسلامية استفادها مما خلَّفه العرب والمسلمون في تراثهم.. بينما نجد آخرين من العرب يتجهون إلى دراسات أبعد ماتكون عما يجب أن يعنوا به مما هو أكثر لصوقاً بحياتهم وارتباطاً ببيئتهم..

وأنا على يقين ياأخي من أن الاهتمام بذلك التراث لا يتوقف على جهة خاصة بل كل ماينفع الإنسان ينبغي أن يكون السعي لتحقيقه عاماً وشاملًا.. ولا أعتقد بوجود أية عقبة أقوى من عقبة الجهل أو عقبة التقليد الأعمى.. وأعني بالجهل عدم إدراك أن في التراث ما هو نافع ومفيد.. أما التقليد الأعمى فهو ما نشاهده من حالة أبنائنا الذين تأثروا في دراساتهم خارج البلاد ببعض الأفكار الغربية، والدخيلة علينا، فأصبحت نظرتهم إلى أمتهم تراثاً وحياةً وأدباً وأخلاقاً نظرة استغراب إن لم تكن نظرة استنكار.. وقد لا يلزم هؤلاء حينما يشاهدون تراثهم مبعثراً على مراكز ومكتبات وجامعات العالم..

فالدعوة إذاً إلى تجميع تراثنا المتناثر في مكتبات العالم هي دعوة في نفس الوقت إلى حماية شبابنا من الأخطار التي تتعارض مع قِيَمِنا وما خلَّفه لنا السلف الصالح..

وأنا معك ياأخي الفاضل في دعوة كل المؤسسات العلمية والثقافية بل

وكل البنوك العربية والإسلامية والشخصيات العلمية ورجالات المال والفكر إلى الدخول في هذه المنافسة الشريفة، فما أحرانا أن نرى المؤسسات الخيرية والبنوك وأهل المال وقد أوقفوا مبالغ من أرصدتهم ليس فقط من أجل شراء أو تصوير هذا التراث بل منح النابهين وذوي الاختصاص من أبناء العالم العربي والإسلامي منحاً دراسية أو منح تفرغ لدراسة هذا التراث.. ولتكن هناك خطة ثقافية لكل بنك ومركز بحوث وكل مؤسسة لتولي نشر وتحقيق بعض المخطوطات المتعلقة بنفس نشاط ذلك البنك أو تلك المؤسسة.. وليس معنى ذلك أن نترك التراث في أيدي العابثين للعبث به باسم النشر فذلك وسيلة من وسائل تشويه التراث.. بل هي دعوة لحماية ماتبقّى من التراث بنشره على أيدي علماء ودارسين مختصين بذلك. لابد من إيجاد عدد من المثقفين الواعين بكل ماله صلة بالتراث .

وبعد، فإن مهمة تجميع التراث لن تبلغ غايتها إلا بتضافر الجهود قولًا وعملًا وحماساً وعزيمةً ولقد أصبح اليوم أمراً ملحاً لمجابهة التحديات الحضارية وسد حاجة الباحثين والدارسين والمهتمين بالدراسات التاريخية والتراثية وإذا كان البعض يرى صعوبة عمل كهذا لما يحتاجه من مجهودات كبيرة وإمكانيات علمية ومادية ضخمة فإن العزائم القوية وخدمة العلم والمعرفة تجعلنا نتفاعل في تحقيق ما نتمناه.. إذ أن التراث رصيد من الخبرات ينبغي النظر فيه ومحاولة فهمه لنجد فيه عوناً وسنداً على مواجهة الحاضر وتحدياته والإعداد للمستقبل. فنحن بحاجة إلى أن نجعل من التراث قوة تحرِّك المجتمع وتحفِّزه إلى الأمام. وفي تراثنا اهتمام أصيل بالعلم والسعي في طريقه وإعمال الفكر والعقل وأهمية الإبداع الذاتي المستمر .

وأخيراً فالتراث فيض غني من العطاء الفكري والإبداع العلمي في كل

المجالات والذي ينبغي أن يجول الفكر فيه ولنتلمَّس المداخل والمنافذ إليه. إذ أن تراثنا ليس كله بين أيدينا فهو مشتت في أماكن مختلفة من العالم والأمل كبير إن شاء الله في معهد المخطوطات العربية وغيره من الجهات العلمية والثقافية. في جمع هذا التراث وتصويره من مختلف أنحاء العالم ووضع الخطط لاستقطاب المخطوطات والوثائق وتصويرها من جميع أنحاء العالم .

ونأمل إيجاد مراكز تهتم بتحقيق التراث على أصول ثابتة قويمة، ليفيد منها الناس جميعاً. وبقدر اهتمامنا بالتراث الذي سوف يلقي أضواء كثيرة على ماضينا العلمي نستفيد عن طريقه أيضاً في جوانب عديدة تاريخية وجغرافية وعلمية مختلفة .

والله من وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل

• تراثنـــا من ينشـــره •

تراث الأمة هو عنوانها وجوهرها وأصالتها ، ونهضة كل أمة لا تقوم إلا على أساس من فكر عميق ومستنير، وأن عظمة الأمم تعتبر بتاريخها وعلمها. وأن الحديث عن التراث وإحيائه لهو وفاء للماضي ودعم للمستقبل واستنباط العبرة منه لما يزخر به من معطيات حضارية، ولعل من نافلة القول الإشارة إلى بيان قيمة التراث العربي الإسلامي إذ هو غني في نوعيَّته وكمِّه ويعتبر في قمَّة الإنتاج الفكري وذروة العطاء العلمي رفعة ومجداً.. حيث أنه حافل بألوان من جوانب المعرفة الإنسانية إلى جانب مصنفات الفقهاء وكتب المفسِّرين والمحدِّثين، وكم أبدع أسلافنا في علوم الفلك حيث ألفوا فيها كتباً لاتزال مصدر إشعاع في العالم حتى يومنا هذا رغم مرور القرون الطويلة عليها .

فهناك نماذج من أُمَّهات كتب الأدب واللغة لمؤلفات الثعالبي وابن جني والنويري وابن قتيبة والقلقشندي والراغب الأصفهاني وابن النديم وياقوت. وقد كان هؤلاء قبل أن توجد المطابع. فالمقريزي يذكر أنه كان في خزانة العزيز بالله أكثر من ثلاثين نسخة من كتاب العين ومائة نسخة من جمهرة ابن دريد، وفي خزانة الفاطميين ألف نسخة من كتاب تاريخ الطبري.. لقد كان أسلافنا ينسخون كتبهم بأيديهم فيروى عن أحد النحاة أنه كان يخرج في وقت العصر إلى سوق الكتب في بغداد فلا يقوم من مجلسه حتى يكتب الفصيح لثعلب ويبيعه بعد ذلك بنصف دينار والروايات في هذا المجال كثيرة ومعروفة وطريفة .

إن التراث العربي الإسلامي لايقتصر على جانب واحد من جوانب المعرفة الإنسانية بل يمتد ليشمل كل فروع الحضارة والفكر والتاريخ واللغة والجغرافية والعلوم التطبيقية بشتى أنواعها وما زال جزء منه رهين الخزائن

والرفوف والأقبية المعتمة يتطلَّع لمن ينفض عنه الغبار ويخرجه إلى ساحات النور .

وفي هذا العصر وبفضل اختراع المطابع التي كانت عاملًا قوياً وفعَّالا في نشر الثقافة والمعرفة ومن ذلك كتب التراث بشكل سريع وفي أشكال وصور شتى .

ووصلت إلينا كثير من كتب التراث مطبوعة ومحققة وموثقة وسيذكر التاريخ فضل مخترع المطبعة جوتنبرج الألماني .

لقد انتشرت مئات الكتب من أُمَّهات كتب التراث في الأدب والدين والتاريخ واللغة واستمرت تلك المطابع في نشر طائفة من كتب التراث كان لها دورها وفاعليتها في نشر الوعي والمعرفة والفائدة. وهو جهد عظيم وعمل كبير فمن يقرأ المخطوطات يدرك جهد أولئك الناشرين والمحققين في مقابلة المخطوطات القديمة ومقارنتها ودراستها ووضع الفهارس والتعليقات والإضافات والهوامش لها على قدر طاقتهم وإمكاناتهم. لقد كان لأولئك المحققين الرُّواد الفضل الكبير للمحققين والناشرين في العصر الحاضر.. فمن يطالع صبح الأعشى وكتاب الأغاني والقاموس المحيط وخزانة الأدب ولسان العرب وكتاب سيبويه وشرح الحماسة وغيرها من أُمَّهات الكتب يدرك ويعترف بالجهود الكبيرة للمحققين والناشرين الأوائل..

وبهذه المناسبة فكم نحن في حاجة إلى مجموعة من المحققين المختصِّين بتحقيق الكتب بوجه وطريقة علمية وعملية، ولعلَّ قسم المكتبات في جامعاتنا مسؤول عن إيجاد ذلك والأمل معقود عليهم في تحقيق الآمال والعناية بتراثهم المجيد الذي أثرى حقول المعرفة وهدى البشرية إلى النور.. فيقبلوا على تحقيقه وجمعه ونشره على أوسع نطاق .

• من ذكريات الأعيـــاد في المـاضي •

لكل أمة من الأمم عادات وتقاليد ، تصنع سلوكها وتحدد واقعها وملامحها بين الأمم، ومن غير المقبول أن يتنكَّر الإنسان لأصله وقيمه وعاداته التي صاغت حياته .

وبالطبع فلهذه البلاد عادات وتقاليد في الأعياد وكانت لها سمات وملامح، والحديث عن العيد قديماً في نجد حديث ذو شجون ويتناول الحديث عن إحدى بلدانه وهي بلدة المجمعة تلك البلدة التي عشت بها طفولتي وفيها مسارح صباي ومرابع أيامي ووقفت بين أطلالها وحزونها وفيافيها وغيطانها وما زالت الذاكرة تختزن تلك الذكريات وتستقر في المخيلة عبر مايزيد على ربع قرن وينبغي رصد تلك الذكريات قبل أن يطويها النسيان وتذهب في عالم الفناء والاندثار .

ولا شك أن مجال القول ذو سعة في هذا الميدان فحياة القرى في الماضي بما تمثله من عادات نافذة تطل معها على حقبة من تاريخ بلادنا .

لقد كان للعيد جاذبية وملامح عريقة وسمات ذات أصالة حيث كان الناس يستعدون له حسب قدراتهم وطاقاتهم وكانوا يحسبون للعيد كل حساب ويُولُونه كل اهتمام ويحرصون على الاحتفال به وإظهار مشاعر الفرح والسرور والبهجة، ويحرص المسافرون منهم إلى العودة للمشاركة في أيام العيد ويجتمع الشمل. وكانت الأمهات تخيط ثوب العيد قطعة من القماش الخام .

وكانت الأعياد من أهم الروابط الاجتماعية وأقوى الدعائم في تقوية الصلات..

وكان الآباء يحرصون على شراء الملابس لهم ولأولادهم وكانت النساء

تعد أفخر الملابس لارتدائها يوم العيد ويحرص البعض من الكبار على التوشح بالسيوف والتمنطق بالأحزمة الجميلة.. وكان الشباب يستعدون لهذه المناسبة باقتناء أفخر الملابس التي يعدُّونها لهذه المناسبة السعيدة كما كانوا يحرصون على جمع واقتناء عصي الخيزران والمشاعيب وغيرها ويتجمعون قبل العيد بيوم أو يومين لتنظيف المكان وحراسته من مهاجمة أقرانهم وفي صباح العيد يذهب الكبار لأداء صلاة العيد ويبقى الشباب يحرسون ساحة العيد في انتباه تام ودرجة استعداد جيدة خوفاً من أبناء الأحياء الأخرى الذين يقومون بمعاركتهم وجر فرشهم.. وإذا خرج الناس من مصلَّى العيد تبادلوا التحيات والتمنيات الطيبة ثم توجهوا لبيوتهم وأخرج كل منهم طعامه وتقديم كل ما يستطيع تقديمه من الزاد الذي يضعه في الساحة المخصصة لذلك فيجتمع الناس ومعهم الضيوف والزوار وأبناء البادية في دعوة مفتوحة في شبه حلقة دائرية في أحد الشوارع ويأكلون ويتجاذبون أطراف الحديث . ولو لم يكن في العيد إلا هذا المظهر الأخوي الرائع لكفى.. ويتكوَّن طعام العيد من الأرز واللحوم والمراصيع والجريش والمرقوق والمطازيز والقرصان والتمر وغير ذلك من الأكلات الشعبية المعروفة في ذلك الوقت، وبعد ذلك ينصرف الناس لزيارة الأمير والقاضي ثم زيارة الأقارب وكبار السن ومساعدة المحتاجين والمعوزين في هذا اليوم وغير ذلك من أنواع النشاط ويتفاعلون بكل حيوية وعزيمة وجدّ مع العيد ويذهبون بعد ذلك للمزارع والنخيل والغدران المختلفة والباقية من السيول وممارسة مختلف الألعاب والهوايات التي يمارسها الشباب والرجال معاً من سباق وصيد ورماية وسباحة ومساجلات شعر ولعب متعددة وهكذا يعيشون طوال أيام العيد في فرحة وسعادة وحب وهناء يعطف الغني على الفقير ويزور السليم المريض

ويعفوا بعضهم عن بعض ويتسامح المتخاصمون ويعيشون في تسامح وصداقة ومودة ..

لقد كانت أياماً جميلة مفعمة بكل حيوية ونشاط وتعاون وتآزر وتفاعل ومحبة وتماسك وصلات وروابط اجتماعية متينة .

فما أجمل تلك الذكريات يوم كان الناس يقفون على مآذن المساجد يرقبون هلال العيد في أُفق السماء فيراه أحدهم ببصره ثم يذهب للقاضي ليُدلي بشهادته ثم يتم الإعلان عن العيد ويجري الناس شيباً وشباناً في طرقات القرية وبين سككها فرحين مسرورين بليلة العيد حيث يسهرون إلى الصباح ، ثم يخرجون لابسين زينتهم البسيطة ذاهبين لمصلَّى العيد يسلِّم بعضهم على بعض ويعودون حاملين معهم عيدهم الذي صنعته الأمهات وأجهدت نفسها في أن يكون طيِّباً ولذيذاً ويقوم كل فرد ليتذوَّق عيد صديقه وأخيه وجاره فلا يتثاقل أو يتباطأ وهكذا يبقى العيد له معنى سام كبير في عمر السنين إنه تكافل وتعاطف وتراحم وتوثيق للصلات والمحبة يتحقق فيه الإخاء بمعناه العملي .

• صُــورٌ وذكريـات رمضانيــة •

جاء الإسلام نعمة عظيمة إذ برزت على أساسه حياة إسلامية حافلة بكل صفات الخير والطهر والسمو والإيثار.. وتتميز بجميع المثل والأخلاق والإيمان والعقيدة الراسخة.. ولذا يستقبل المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها شهر القرآن بكل حفاوة ومحبة وترحيب فهو شهر الخير والبركة والسعادة والنفحات والمكرمات وقد اصطفاه الله على الشهور يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿يا أيها الذين آمنوا كتب عليكم الصيام كما كتب على الذين من قبلكم لعلكم تتقون﴾..

«سورة البقرة : آية ١٨٣»

إذ فيه ليلة القدر التي هي خير من ألف شهر وهو شهر الصبر والصبر ثوابه الجنة .

فلا غرابة أن نستقبل الشهر الكريم بكل حفاوة وتكريم وبهجة وسرور وأن نحيي لياليه بالقيام والصلاة والدعاء والاستغفار..

والصيام عبادة يثاب عليها الصائم وقد رفع الله شأن الصيام وجعله ركناً من أركان الإسلام ﴿شهر رمضان الذي أنزل فيه القرآن هدى للناس وبينات من الهدى والفرقان فمن شهد منكم الشهر فليصمه ومن كان مريضاً أو على سفر فعدة من أيام أُخر يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ولتكملوا العدة ولتكبِّروا الله على ما هداكم ولعلكم تشكرون﴾ «سورة البقرة : آية ١٨٥»

لقد حفل شهر رمضان الكريم بذكريات إسلامية عظيمة مفعمة بالأحداث والأعمال الجليلة والفتوحات والشخصيات الخالدة .

وبعد فما يزال العالم الإسلامي عبر تاريخه الطويل في مختلف أقطاره يبتهج ويسعد باستقبال رمضان وتتلألأ عواصمه وحواضره بفرحة

غامرة وبفيض زاخر من الفرح والسرور وتبرز صور مشرقة وتتجلى شعائر الإسلام ويلتقي المسلمون في عبادة الخالق جل وعلا فيتعاونون على الخير والإحسان والذكر والصلاة والبذل ومساعدة الفقراء والمحتاجين وتظل الليالي وهَّاجة ساطعة بالأنوار والمصابيح وتنبسط الأيادي بالخصب والتكريم بشتى الوسائل.. حقاً إن رمضان لشهر منفرد بين الشهور له مناقبه وخصائصه ومظاهره .

ولا غرو فحينما جاء الإسلام سطعت أضواؤه في كل الأرجاء والأقطار فكان قوة فعالة.. وإذا كان شهر رمضان قد شهد نزول الدستور الإلهي المبين ألا وهو القرآن الكريم.. فإن نفس الشهر قد شهد أحداثاً إسلامية عظيمة قد غيّرت مجرى التاريخ.. وللإسلام تاريخ حافل بالأمجاد، وصفحات مضيئة في تاريخ البشرية جمعاء.. وإذا وعى المسلم تاريخ الإسلام، وقلَّب صفحاته لوجد رصيداً قيِّماً كفيلا لتطوير حياته، وتحصين مقوماته. وتسديد وتجديد مقدراته وإمكاناته وتحسين مستقبله العام والخاص وعالمه المادي والروحي..

فالإسلام ينبوع الأمل والعمل والقوة والحياة يبعث فينا الآمال ويدفعنا دائماً إلى الأمام.. والتاريخ هو ذلك الموضوع الذي يشترك في صنعه الزمان والمكان والإنسان.. ولا شك أن رمضان جزء من أجزاء الزمان، شهد أحداثاً عظيمة شارك في صنعها أناس عظماء، وكم في رمضان من الخيرات والبركات وفيه من الفوائد مالا يعلمه إلا الله.. فما أعظم الصور والذكريات والأحداث في هذا الشهر الكريم..

وإذا قلَّبنا صفحات التاريخ، ورجعنا القهقرى إلى صدر الإسلام وحتى عهدنا القريب لوجدناها صفحات مفعمة بالأحداث الجسام والشخصيات الخالدة ..

– ففي اليوم العاشر من رمضان بعد عشر سنوات من البعثة توفيت زوج النبي ﷺ أم المؤمنين خديجة بنت خويلد رضي الله عنها .

– وفي رمضان من نفس العام توفى أبو طالب عم النبي ﷺ فحزن عليه الرسول ﷺ كثيراً، فكان هذا العام «عام الحزن في تاريخ الدعوة الإسلامية» .

– وفي السنة الثانية للهجرة وقعت في رمضان غزوة بدر الكبرى لسبع عشرة ليلة خلت منه وكان أول انتصار حاسم لقوى الإسلام على قوى الشرك والباطل .

– وفي رمضان من نفس السنة للهجرة فرض صيام شهر رمضان ، كما فرضت زكاة الفطر..

– وفي السنة الثالثة للهجرة من رمضان كان المشركون المنهزمون في بدر قد ألبوا كثيراً من القبائل وتحالفوا وأخذوا يستعدون للثأر بينما أخذ المسلمون يستعدون لهذا..

– وفي رمضان من السنة الخامسة كانت الاستعدادات لغزوة الخندق حيث وقعت في شوال من نفس العام..

– وفي اليوم الحادي والعشرين من رمضان من السنة الثامنة للهجرة أنعم الله على رسوله وعلى المؤمنين بفتح مكة المكرمة .

– وفي رمضان من نفس العام الثامن للهجرة، بعث الرسول عليه الصلاة والسلام عدة سرايا لهدم الأصنام الشهيرة حينئذ فبعث خالد بن الوليد لهدم العزى، وعمرو بن العاص لهدم سواع، وسعد بن زيد الأشعلي لهدم مناة، فأدى كل منهم مهمته بنجاح..

– وفي السنة التاسعة في شهر رمضان كانت غزوة تبوك وعاد رسول الله ﷺ من هذه الغزوة في رمضان نفسه .

– وفي رمضام من السنة التاسعة نفسها قدم وفد ملوك حمير يعلنون إسلامهم فأكرم الرسول ﷺ وفادتهم وكتب لهم كتاباً حدد فيه الحقوق والواجبات ويعتبر هذا الكتاب وثيقة هامة من وثائق التاريخ..

– وفي العام العاشر من الهجرة في رمضان بعث الرسول عليه الصلاة والسلام الإمام عليا كرم الله وجهه في سرية من المسلمين إلى بلاد اليمن وقد حمل الإمام معه كتاباً نبوياً إلى أهل اليمن وخاصة قبيلة همدان التي أسلمت جميعها في يوم واحد وصلّوا جميعاً خلف الإمام علي .

– وفي شهر رمضان من السنة الحادية عشرة للهجرة توفّيت السيدة فاطمة بنت رسول الله ﷺ وزوج الإمام علي كرم الله وجهه، وأم سبطي رسول الله الحسن والحسين رضي الله عنهما .

– وفي رمضان من السنة الخامسة عشرة للهجرة كانت معركة القادسية التي انتصر فيها المسلمون انتصاراً مؤزراً على امبراطورية فارس ودحرت معاقل الشرك ومركز الزرادشتية .

– وفي ليلة الجمعة الخامس عشر من رمضان عام «٤٠» للهجرة وعند خروج الإمام علي كرم الله وجهه لصلاة الفجر اعتدي عليه ومات متأثراً بجراحه ليلة السابع عشر من رمضان .

– وفي رمضان سنة «٥٣» هجرية، فتح العرب جزيرة رودس .

– وفي رمضان سنة «٥٨» هجرية، توفّيت زوج النبي ﷺ أم المؤمنين الصدّيقة بنت الصدّيق عائشة بنت أبي بكر رضي الله عنهما ودفنت بالبقيع .

– وفي رمضان سنة «٦٤» للهجرة بايع الناس عبدالله بن الزبير في مكة المكرمة بالخلافة وهو الصحابي ابن الصحابي الجليل رضي الله عنهما..

– وفي رمضان سنة «١٢٩» هجرية ظهرت الدعوة لبني العباس في خراسان..

– وفي رمضان «٢١٧» للهجرة أسس العرب مدينة كانديا في جزيرة كريت..

– وفي رمضان «٢٦١» هجرية تم بناء الجامع الأزهر الذي ظل منارة للعلم.. ونبراساً للحضارة الإسلامية الزاهرة وقد بناه جوهر الصقلي..

وفي رمضان سنة «٢٦٢» للهجرة استولى المعز لدين الله على القاهرة..

– وفي رمضان سنة «٥٠٠» للهجرة حاصر السلطان محمد قلعة الباطنية بالقرب من اصفهان وقضى على الباطنية المعتصمين بها..

– وفي رمضان سنة «٥٨٤» للهجرة نهض بطل من أبطال الإسلام الأفذاذ وهو صلاح الدين الأيوبي من دمشق وخلص صفد في فلسطين من وطأة الصليبية الغاشمة ..

– وفي رمضان سنة «٥٨٨» هجرية قام نفس البطل بتحصين بيت المقدس وشيد الأسوار حولها..

– وفي رمضان سنة «٥٩١» هجرية ملك يعقوب بن عبدالمؤمن سلطان المغرب، بلاد الأندلس وكسر شوكة الافرنج هناك..

– وفي رمضان سنة «٦٥٨» هجرية هزم الجيش الإسلامي بقيادة البطل الظاهر بيبرس حشود التتار الضاربة هزيمة منكرة .

– وفي رمضان سنة «٦٦٦» هجرية هاجم الملك الظاهر بيبرس انطاكية واستولى عليها وأسر من التتار نحو عشرة آلاف أسير .

– وفي رمضان سنة «٦٦٩» هجرية هاجم نفس البطل الظاهر بيبرس حصن عكا وامتلكه من الصليبيين..

– وفي رمضان سنة «٨٧٩» هجرية استولى السلطان العثماني محمد الفاتح على بلاد القرم..

– وفي رمضان سنة «١٢٤١» استولى الجيش المصري على مدينة ميسولونجي في بلاد اليونان ورفع فيها راية الإسلام .

– وفي العاشر من رمضان «١٣٩٣» هجرية كانت الحرب العربية الإسرائيلية التي حطَّم فيها الجيش العربي المسلم غرور الصهاينة وقطع ذراعهم الطويلة وعَبَر الجيش المصري قناة السويس متخطياً خط بارليف الحصين وأنابيب النابالم والقذائف الصاروخية تحت تكبيرة «الله أكبر.. الله أكبر.. العزة للإسلام»..

وهكذا نرى عظمة الإسلام ودوره في قيادة الأمم فكم ضحَّى الإنسان المسلم وهو صائم ولم يهن الجوع والعطش من عزيمته، بل دفعته قوة الإيمان إلى التضحية والفداء.. والصبر والعطاء وقوة الإرادة فلنعمل عملًا صالحاً في هذا الشهر عسى أن نكون من المقبولين الفائزين.. أكرمنا الله بالتوفيق والإخلاص والأجر والثواب.. والله ذو الفضل العظيم .

القسم الثالث

في التربية والتعليم

التطـــور التاريخـي لإعـداد المعلّم في المملكـة(*)

• أهمية إعداد المعلّم ودوره في الرسالة التربوية وتكوين المواطن الصـــالح •

إن الهدف الأساسي للتربية هو إعداد المواطن الصالح المنتج وتنمية مواهبه والكشف عنها وتوجيهها نحو غايات نبيلة ومقاصدخيِّرة. فالمواطن الصالح دعامة قوية لوطنه وذخيرة حية لأمته يسهم في خدمتها بإخلاص وأمانة وعزيمة ونشاط. ويدرك ماعليه من واجبات وتبعات ومسؤوليات. يحتل المعلّم ولا شك مكاناً بارزاً في تكوين شخصيات أجيال المستقبل وبنائها فهو يرعى الأمانة ويؤدي الواجب ويدعم بناء النهضة التعليمية ويغرس في النشء حب المعرفة ويبصِّرهم بأثر العلم والتعليم السليم ويغذِّي عقولهم بفروع المعرفة المختلفة، ويهذِّب من طباعهم من جميع النواحي الأدبية والفنية والروحية والعقلية والخلقية على حد سواء ويربِّي أذواقهم بمزاولة مختلف الفعاليات المدرسية فهو يضيء الشموع لينير الطريق المظلمة .

فالمعلِّم هو الذي يكوِّن للأمة أبناءها ويربِّي أجيالها الصاعدة المتفتحة للحياة والتي سيقع على كاهلها عبء النهوض والتطور بالمجتمع نحو الأهداف الخيِّرة الفاضلة وسيجعل التوجيه التربوي من المعلِّم عضواً نافعاً فعالًا في مجتمعه فالمعلمون هم رعاة الأمانة والأمناء على تكوين المواطنين الصالحين. ويتوقف نجاح إعداده على اختياره في ضوء عناصر من الصفات الشخصية وعلى تفهمه لدوره وفق برامج ثقافية ومهنية وأكاديمية .

(*) نشر هذا البحث في مجلة الدارة العدد الرابع، السنة السادسة ١٤٠١ هـ .

ونتيجة لذلك نرى الأمم تتسابق اليوم في تطوير خبرة المعلمين وتنمية معارفهم وقدراتهم وميولهم واتجاهاتهم وتوسيع مفاهيمهم التربوية والوقوف على ما لديهم من استعدادات ذهنية وفكرية ووجدانية وتطويرها نحو الأفضل. إذ أن وسائل التربية تتطور بتطور الزمان ونمو المجتمع .

وفي بلادنا والحمد لله حماس رائع واهتمام متزايد لإعداد المعلّم ثقافياً وعلمياً وتربوياً إلى جانب الاهتمام بقيمنا الروحية وتراثنا الخالد وعلى أسس من العقيدة والأخلاق السامية وإلى رفع مستواه العلمي والثقافي والسعي في الوقت نفسه إلى الاكتفاء الذاتي بالمعلمين من أبناء البلاد وتحقيق تطورهم ومن هذا برزت أهمية المنطلق السليم نحو التخطيط والدراسة لإعداد المعلمين وتدريبهم وإنشاء الكليات المتوسطة والسعي لتحقيق الأهداف التربوية المنشودة .

والمعلّم الجيّد له فائدة في تحسين نوعية التعليم وتطوير العملية التربوية لذا فقد تحولت بعض المراكز والمعاهد إلى مراكز وكليات متوسطة بمستوى التعليم العالي في السنوات الأخيرة .

ولقد شاعت فكرة إنشاء الكليات المتوسطة في الكثير من بلدان العالم لتطوير إعداد المعلمين وتزويدهم بالخبرات المهنية والعلمية التي تمكّنهم من تأدية رسالتهم كمعلمين ومربّين .

التطور التاريخي لتأسيس معاهد المعلّمين في المملكة

نظرة تاريخية :

لقد تأسست مديرية المعارف لأول مرة في عام ١٣٤٤ هـ الموافق ١٩٢٦ م وكانت في الواقع بداية لفترة انتقال نحو بناء صرح العلم وتثبيت قواعده على أساس من المعرفة الصحيحة والتربية القويمة.. ولم تكن آنذاك

مدارس قائمة تذكر سوى بضع مدارس في كل من مكة المكرمة والمدينة المنورة وجدة وكانت تعني بتعليم اللغة العربية والدين.. فحسب .

وكان التعليم الشكلي نادراً في مختلف مناطق المملكة عدا بعض المدن التي تتوفر فيها بعض الكتاتيب وحلقات المساجد.. وكان مقر الكتّاب لا يتعدى الغرفتين أو الثلاث ويقوم بالتدريس فيه شخص واحد يسمى «المطوع» ولا يتعدى عما يقرأه الصبي فيها عن قراءة القرآن الكريم وحفظه وتعليم الخط مع نبذ يسيرة مقتضبة من الفقه والتوحيد .

فلم تكن تُؤتي بالثمرة المرجوّة.. أما حلقات المساجد فقد كان يدرّس فيها العلماء والقضاة ويؤمها الطلاب لتلقي العلم كما كان الطلاب يدرسون فيها الفقه والتوحيد وقواعد اللغة العربية والصرف والعروض وعلم الفرائض .

وللحقيقة والتاريخ فقد خرَّجت هذه المساجد علماء وقضاة أسهموا بنصيب كبير في نشر الدين الإسلامي والتعريف به وسدُّوا حاجة البلاد في بعض وظائف التعليم .

وبعد تأسيس هذه المديرية حرصت على تطوير المعلِّم باعتباره الركيزة الأولى ومن أهم وسائل التعليم فأنشأت المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة .

المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة :

لقد أنشأت مديرية المعارف هذا المعهد عام ١٣٤٧ هـ وقد كانت شروط القبول به حسب ما جاء في خطاب مدير المعارف المرقم ١٣٨ في ٢٧/ ١/ ١٣٤٧ هـ المرفوع إلى صاحب السمو الملكي النائب العام لجلالة الملك المعظم كالآتي حسب الإعلان المنشور في جريدة أم القرى عام ١٣٤٧ هـ .

• (إعـــــلان) •

تعلن إدارة المعارف العمومية أنها قد اعتزمت بعونه تعالى على فتح المعهد العلمي لتلقي الفنون التي تؤهل الطالب لأن يكون أستاذاً في المدارس الأميرية في مدة ثلاث سنوات وأن يخصص لكل طالب إعانة شهرية جنيهان تنشيطاً له ومساعدة لحاله وأن العدد المحدود قبوله للطالبين أربعون طالباً على أن يكون كل طالب متصفاً بما يأتي :

١ – أن يكون ملماً بقسم العبادات .

٢ – أن يكون عارفاً بقواعد اللغة العربية البسيطة .

٣ – أن يكون ملماً بالإملاء والخط والحساب إلى الأعمال الأربعة .

فعلى كل من يرغب في الانتظام في سلك الطالبين أن يراجع إدارة المعارف العامة من تاريخ الإعلان إلى يوم ٢٠ صفر ١٣٤٧ هـ لقيد اسمه ضمن الطالبين ولذلك صار الإعلان .

ملاحظة : لقد كانت هناك سنة إعدادية قبل البدء في الدراسة بالمعهد.

ولقد كانت مدة الدراسة ثلاث سنوات بعد إتمام الدراسة الابتدائية ثم طورت الدراسة في عام ١٣٦٥ هـ فأصبحت خمس سنوات كما أنشيء معهد آخر بالمدينة المنورة عام ١٣٦٨ هـ .

ومما هو جدير بالذكر أن أكثر الخريجين لم يزاولوا مهنة التدريس سوى أفراد قلائل إذ أن الغالبية منهم قد واصلوا دراساتهم العالية في كليتي الشريعة والمعلمين بمكة المكرمة كما ابتعثت أعداد أخرى إلى الخارج لمواصلة دراساتهم. والواقع أن هذين المعهدين لم يكونا في الواقع معاهد

لإعداد المعلمين بالمعنى المفهوم إذ أن مناهجهما كانت خالية من التطبيقات العملية كما أن خططهما الدراسية لم تهتم بالموضوعات التربوية والمهنية واقتصرت الدراسة فيها على الموضوعات التي لها علاقة مباشرة بالمنهج الابتدائي وكان نصيب التدريس من خريجي هذه المعاهد ضئيلًا .

ويتضح من خلال البحث أن بداية العمر الحقيقي الزمني لإعداد المعلِّمين في عام ١٣٤٧ هـ وأن فكرة إعداد المعلمين لم تكن مقتصرة على اسم معهد معلِّمين بل إن المعهد العلمي السعودي بمكة المكرمة وبالمدينة المنورة وكلية المعلمين بمكة المكرمة سابقاً والمعاهد الليلية للمعلمين وكلية الشريعة بمكة المكرمة .

كل هذه المؤسسات ذات الأسماء المتباينة قد أسهمت في تخريج عدد من المعلِّمين حيث أن إعداد المعلِّم كان ضمن أهدافها .

الخطة الدراسية بالمعهد العلمي السعودي :

السنة الإعدادية	صحة
قواعد	تفسير
إنشاء	مطالعة
حساب	حساب
أصول حديث	**السنة الأولى**
تاريخ	التربية العملية
فقه اللغة	رسم
رسم	قواعد
تقويم	خط
إملاء	تاريخ

توحيد	صحة
أصول تفسير	فقه
أدب	إنشاء
خط	تقويم البلدان
أصول حديث	تفسير
توحيد	حديث
توحيد	مطالعة
أصول تفسير	**السنة الثالثة**
حساب	توحيد
أدب	هندسة
هندسة	فقه
حديث	مسك الدفاتر
مطالعة	تفسير
السنة الثانية	حديث
التربية العملية	فرائض
رسم	نحو
قواعد	جبر
إنشاء	بلاغة
حساب	إنشاء
تاريخ	آداب اللغة
خط	العربية
مبادىء فرائض	تاريخ
هندسة	خط

توحيد	جغرافيا
فقه	حساب
أدب	تربية عملية
تقويم البلدان	لغة إنجليزية
	المباديء والصحة

خطة الدراسة في منهج عام ١٣٧٢ هـ بالمعهد العلمي السعودي ·

المادة	السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	السنة الخامسة
التوحيد	٣	٣	٢	٢	٢
الفقه	٤	٤	٣	٤	٤
الفرائض	١	١	١	١	١
التفسير	٢	٢	٢	٢	٢
أصول الفقه	—	—	٢	٢	٢
المصطلح	١	١	—	—	—
الحديث	٢	٣	٣	٣	٢
أصول الفقه	—	—	٢	٢	٢
البلاغة	—	١	١	١	١
الحساب	٣	٣	٢	—	—
الأدب والمحفوظات	٢	٢	٢	٢	٢
التربية وعلم النفس	—	—	—	٣	٣
التربية العملية	—	—	—	١	١
تقويم البلدان	٢	٢	٢	١	١
التاريخ	٢	٢	٢	٢	٢

المـــادة	السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	السنة الخامسة
الهنـــدسة	–	–	١	١	١
القواعـــد	٣	٣	٣	٤	٤
فقـه اللغـة	–	–	–	١	١
الإنشـــاء	٢	٢	٢	٢	٢
الخطابـــة	–	–	١	–	–
الخـــط	١	١	١	١	–
المطالعـــة	١	١	١	١	١

المعهد العلمي السعودي – من عام ١٣٦٥ هـ :

قامت مديرية المعارف في عام ١٣٦٥ هـ بتطوير الدراسة في المعهد العلمي وأصبحت الدراسة فيه عبارة عن خمس سنوات وأطلق على شهادة الثلاث السنوات الأولى (شهادة القسم التجهيزي) أما شهادة قسم المعلّمين الثانوي فتمنح بعد دراسة خمس سنوات به وبعدها يتمكن الطالب من الالتحاق في كليات الآداب ودار العلوم في جامعات الأزهر وكلية الشريعة بمكة التي تم افتتاحها عام ١٣٦٩ هـ .

الخطة الدراسية عام ١٣٦٥ هـ :

المـــادة	السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	السنة الخامسة
التفسيـــــــر	٣	٢	٢	٢	٢
الحديـــــــث	٣	٣	٣	٣	٣
الفقـــــــه	٤	٤	٣	٣	٣

المادة	السنة الأولى	السنة الثانية	السنة الثالثة	السنة الرابعة	السنة الخامسة
التوحيد	٣	٣	٢	٢	٢
أصول التفسير	١	–	–	–	–
أصول الحديث	١	١	–	–	١
أصول الفقه	–	١	١	١	١
القواعد	٣	٣	٣	٤	٤
الإنشاء	٢	١	٢	١	١
أدب	٢	٢	٢	٢	٢
البلاغة	–	٢	١	١	١
فقه اللغة	–	–	–	–	١
الخطابة	–	–	١	–	١
المطالعة	١	–	١	١	١
الإملاء	١	–	–	–	–
الخط	١	١	١	١	١
التربية وعلم النفس	–	–	–	٣	٣
التاريخ	٢	٢	٢	٢	٢
الجغرافيا	٢	٢	٢	١	١
علوم حديثة	١	١	١	١	١
الحساب	٣	٣	٢	–	–
الهندسة	–	–	١	١	١
الرسم	١	١	١	١	١
اللغة الإنجليزية	٣	٣	٣	٣	٣
	—	—	—	—	—

نظـام الامتحان :

كانت نظم الامتحان في المعهد العلمي السعودي وفق ما جاء في نظام المدارس الصادر عام ١٣٤٧ هـ وفي نظام المدارس الأميرية عام ١٣٥٨ هـ وقد كانت أنظمة هذه المعاهد تسير حسب نظام الامتحانات في المدارس الثانوية حتى عام ١٣٨١ هـ حيث أن هذه المرحلة تعادل المرحلة الثانوية في مجموعها .

العلامات الكبرى والصغرى :

المـــادة	النهاية الكبرى	النهاية الصغرى
القواعـــد	٣٠	١٥
إنشـــاء	٢٠	٨
حســـاب	٣٠	١٥
أصـــول حديث	٢٠	٨
تاريـــخ	٢١	٨
فقـــه اللغـــة	٢٠	٨
فقـــه	٣٠	١٥
رســـم	٢٠	٨
تقويـــم البلـــدان	٢٠	٨
إمـــلاء	٣٠	١٨
توحيـــد	٣٠	١٥
أصـــول تفسيـــر	٢٠	٨
أدب	٢٠	٨
خـــط	٢٠	٨

المـــادة	النهاية الكبرى	النهاية الصغرى
صحـــــة	٢٠	٨
مطالعـــــة	٢٠	١٠
تفســـــير	٣٠	١٥
حديـــــث	٣٠	١٥
تربيــة عمليــة	٣٠	١٥
هنـــــدسة	٢٠	٨
مسـك الدفاتـر	٢٠	٨
القرآن الكريم	٣٠	١٥
جبـــــر	٢٠	٨
بلاغـــــة	٢٠	٨
أدب اللغة العربية	٣٠	١٥

لقد دفعت الحاجة لتوفير المعلمين خلال تلك الفترة إلى الاستعانة بكل من يرغب في العمل في هذا الميدان ويحسن القراءة والكتابة إلى جانب استقدام الأعداد الكبيرة من أبناء البلاد العربية الشقيقة ولم تكن الظروف تسمح بمراعاة المستويات التربوية والمسلكية العالية خلال استخدام المعلمين في تلك الحقبة فكانوا من الفئات التي أطلق عليها معلمي الضرورة .

وعند صدور المرسوم الملكي بإنشاء وزارة المعارف أخذت الوزارة على عاتقها إيصال نور العلم والمعرفة إلى أبناء الأمة كافة وفي مختلف المناطق وكان ذلك في ١٣٧٣/٤/١٨ هـ حيث وضعت سياسة تعليمية وبرامج تربوية تستهدف تطوير التعليم وازدهاره وتوفير الأعداد

الكافية من المعلمين وتطوير مفاهيمهم التربوية وإعدادهم إعداداً مسلكياً يمكّنهم من القيام بواجباتهم على أفضل وجه وفقاً لإمكانيات الوزارة وأنظمة التعليم المعمول بها آنذاك فوضعت خطة لإعداد المعلمين وتدريبهم أثناء الخدمة وفق الحاجة وفي ضوء الواقع ومحاولة الاكتفاء الذاتي بالمعلمين من أبناء البلاد . ولغرض تحسين الخدمة التعليمية وتطويرها ودفعها قدماً إلى الأمام بكل وسائل الدفع المادية والمعنوية .

ومن خلال ذلك بدأت الوزارة بتنفيذ خطة في إعداد المعلمين وتدريبهم ليكونوا محققين لأحسن النتائج التعليمية فبدأت المرحلة الأولى اعتباراً من عام ١٣٧٣ هـ حيث رسمت خطة تربوية تهدف إلى إنشاء معاهد المعلمين الابتدائية ومعاهد المعلمين الثانوية وتدريب المعلمين أثناء الخدمة ومعاهد المعلمين الليلية وتنظيم دورات صيفية في الطائف بغية النهوض بمستوى معلّمي الضرورة وتدريبهم وتطوير مداركهم وتشجيعهم على التطور والابتكار .

ولقد أسهمت تلك البرامج والخطط في تكوين المعلمين ورفع مستوياتهم نحو الأفضل وتحقيق الأهداف المتوخاة وتوجيههم إلى طرق المعرفة ووسائل التربية الحديثة التي تعينهم وترشدهم إلى تأدية واجباتهم أثناء خدمتهم التعليمية والتي أسهمت ولا شك في تطوير التعليم بصورة عامة .

وهكذا فإن هذه الفترات التاريخية لإعداد المعلم تمثل تراثاً ثقافياً وتربوياً ويمكن لهذا التراث أن ندرك من خلاله الدور الحيوي الفعال للنهضة المباركة كما نستلهم من خلاله العزم والقوة في مسيرتنا التعليمية والثقافية لتحقيق الأهداف نحو مستقبل علمي رفيع وحياة ثقافية كريمة تحمل الأصالة والوعي والمعرفة .

• معاهـــد المعـلمين •

متى بدأت – عدد المعاهد – تطورها :

مسايرة للتطور الحثيث الذي يهدف إلى النهوض في كافة الميادين وعملا بدفع عجلة التعليم قدماً إلى الأمام، عمدت وزارة المعارف إلى تهيئة الوسائل الكفيلة لإعداد المعلمين المؤهلين للقيام بمهمة التدريس إذ أن إعداد المعلم الصالح للمدرسة الابتدائية هو الموضوع الذي يجب العناية والاهتمام به.. ورغبة في أن يكون معلِّم المرحلة الابتدائية من أبناء البلاد إذ هو بلا شك أكثر فهماً لأحوال التلاميذ وأعرف بعاداتهم وأدرى بأساليب تفكيرهم ونشاطهم وبالتالي هو أقدر على التفاعل معهم .

ولذلك أنشأت وزارة المعارف معاهد لإعداد معلمي المرحلة الابتدائية منذ عام ١٣٧٣ هـ ١٩٥٢ م حتى عام ١٣٨٥ هـ ١٩٦٥ م وقد تم خلال تلك الفترة :

(أ) إنشاء معاهد المعلمين الابتدائية .

(ب) معاهد المعلمين الثانوية .

(جـ) دورات تربوية لتدريب المعلمين أثناء الخدمة .

معاهد المعلمين الابتدائية :

أنشئت هذه المعاهد في مطلع عام ١٣٧٣ هـ – ١٩٥٣ م وأخذت في النمو والتطور والاتساع حتى بلغ عددها في عام ١٣٨١ هـ – ١٩٦١ م ستة وثلاثين معهداً وانتشرت في مختلف مناطق المملكة وكانت نسبة الملتحقين بهذه المعاهد من خريجي المدارس الابتدائية ٢٥٪ . وسأوضح في جدول إحصائي عدد هذه المعاهد وطلابها وفصولها .

لقد كانت الدراسة في هذه المعاهد في مستوى مرحلة الدراسة المتوسطة وكانت مهمتها تخريج معلمين أشبه بمعلمي الضرورة للمرحلة الابتدائية وقد بلغ مجموع من تخرج من هذه المعاهد « ٩٦٠٠ » معلِّم .

وكان شروط القبول في هذه المعاهد تنص على مايلي :

١ – أن يكون الطالب حائزاً على الشهادة الابتدائية .

٢ – ألا يقل عمره عن الـ ١٥ عاما ولا يزيد عن ٢٠ سنة .

٣ – سلامة الجسم وحسن السلوك ولياقته للخدمة في مهنة التعليم .

ومدة الدراسة فيها ثلاث سنوات وقد خصصت مكافأة شهرية تتراوح بين (٦٠ – ١٥٠) ريالا سعودياً حسب المستوى المعيشي في مكان كل معهد ؟

وينال الطالب بعد تخرجه شهادة تسمى «كفاءة معاهد المعلمين الابتدائية» .

• الخطة الدراسية •

مواد الدراسة	الصف الأول	الصف الثاني	الصف الثالث	ملاحظات
العلوم الدينية	٨	٧	٧	بما في ذلك الطرق
اللغة العربية	٩	٩	٩	الخاصة لتدريس كل
التاريخ	٢	٢	٢	مادة منها .
الجغرافيا	٢	٢	٢	
الرياضيات	٥	٤	٤	
مبادىء العلوم	١	٢	٢	
الصحة العامة والمدرسية	٢	١	١	
أصول التربية وطرق التدريس وعلم النفس التعليمي	٢	٢	٢	
التربية العملية	—	٤	٤	بما فيه حصة واحدة
الرسم	٢	٢	٢	للطرق الخاصة في
الأشغال اليدوية	٤	٢	٢	الثانية والثالثة
التربية البدنية	١	١	١	
	—	—	—	
المجموع	٣٨	٣٨	٣٨	

جدول إحصائي يوضح عدد المعاهد والفصول والطلاب
منذ عام ١٣٧٣ هـ إلى عام ١٣٨٨ م

السنة	عدد المعاهد	عدذ الفصول	عدد الطلاب	ملاحظـــــات
١٣٧٣	٣	٣	٧٩	
١٣٧٤	٣	٦	١٣٩	
١٣٧٥	٥	١٣	٢٥٢	
١٣٧٦	–	١٨	٣٩٩	
١٣٧٧	٢٨	٥٢	١٠٥٢	
١٣٧٨	٢٨	٨٧	١٦٦٨	
١٣٧٩	٣٢	١٢٨	٢٦٨٧	
١٣٨٠	٣٥	١٤٦	٣٤٩٧	
١٣٨١	٣٧	١٦٤	٤٣٩٥	
١٣٨٢	٣١	١٩٤	٥٥٧٥	
١٣٨٣	٣١	٢١٩	٦٨٧٦	
١٣٨٤	٣٠	٢٣٨	٧٧٥٦	
١٣٨٥	٣٠	١٦٢	٤٧٩٥	بـدأت تصفيـة المعاهـد
١٣٨٦	٣٠	٩٨	٢٧٩٥	
١٣٨٧	١٤	٢٧	٨٣٢	
١٣٨٨	٣	٤	١٤٨	

إن مناهج الدراسة في هذه المعاهد تماثل مناهج المرحلة المتوسطة باستثناء موضوع اللغة الأجنبية حيث استبدلت بمادة التربية وعلم النفس ودروس التربية العملية ثم جرى تعديل لتلك الخطة في عام ١٣٧٧ هـ ١٩٥٧م حيث أضيفت مادتا الرسم والأشغال اليدوية كما قد خصص أسبوع للتدريب العملي بالنسبة لطلاب السنة الثانية وخصص أسبوعان لطلاب السنة الثالثة في تمرين متصل كما جرى تعديل في منهج التربية وعلم النفس ثم استقرت الخطة بعد ذلك لتعليمها النهائي وحينما رأت الوزارة أن هذه المعاهد بحاجة إلى التطوير والتحسين عمدت إلى تصفية هذه المعاهد منذ عام ٨٦/٨٥هـ -٦٦/٦٥م وتحويلها إلى مدارس متوسطة. وقد انتهت تصفيتها بنهاية عام ١٣٨٩/١٣٨٨ هـ -١٩٦٩/١٩٦٨م. لقد تخرجت أول دفعة من هذه المعاهد مع بداية العام الدراسي عام ١٣٧٦ هـ -١٩٥٦م حيث باشرت عملها في المدارس الابتدائية كمعلمين مؤهلين وأخذ عددهم يزداد عاماً بعد عام وأصبحت نسبتهم في العام الدراسي ١٣٨٣ هـ/ ١٣٨٤ هـ -١٩٦٣/ ١٩٦٤م تمثل ٥ر٦٢٪ من مجموع المعلمين السعوديين .

ونتيجة للتطورات التربوية ورغبة في تكوين المعلِّم الناجح الذي هو في الواقع العامل الأساسي للمضي بالعملية التعليمية بنجاح فقد تقرر منذ العام الدراسي ١٣٨٧/٨٦ هـ -١٩٦٦/٦٥م إلغاء هذه المعاهد القديمة وإنشاء سبعة معاهد جديدة تتناسب وتطورات التربية الحديثة كماً وكيفاً وقد اختير لها في البداية سبع مدن رئيسية هي :

١ - الرياض .

٢ - مكة المكرمة .

٣ - جـده .

٤ – المدينة المنورة .

٥ – الدمام .

٦ – بريدة .

٧ – الطائف .

وأطلق عليها اسم معاهد إعداد المعلمين للمرحلة الابتدائية وقد آتت هذه المعاهد أُكُلها فتخرجت أول دفعة في عام ١٣٨٧ – ١٣٨٨ هـ ٦٧ – ١٩٦٨م .

ونتيجة للإقبال على هذه المعاهد وارتفاع نسبة الملتحقين بها والإقبال الشديد عليها نتيجة لهذا النمو والتطور فقد تقرر افتتاح معهدين آخرين في عام ١٣٩٠/٨٩ هـ أسِّس أحدهما في مدينة الهفوف والآخر في مدينة أبها . ثم بُوشر بافتتاح أربعة معاهد أخرى في عام ١٣٩١/٩٠ هـ ١٩٧١/٧٠م في كل من الباحة وجازان والقنفذة وحائل . كما أن الخطة الخمسية الأولى لوزارة المعارف تضمنت افتتاح معاهد جديدة في كل من الوشم والجوف وببشة .

تدريب المعلمين :

حرصت وزارة المعارف على معالجة مشكلة معلِّمي الضرورة الذين لا يحملون مؤهلات علمية أو مسلكية فوضعت خطة لتدريبهم ورفع مستواهم وتنميتهم من الناحية المسلكية إذ أن تطوير المدرس ونموه سيساعد حتماً على الوصول إلى الأهداف التربوية المنشودة والمعلِّم أحوج من غيره للتدريب لأنه يعمل في مجال متطور وفي ميدان يتطلب النمو والتقدم ليتفاعل مع متطلبات التربية والتعليم وهو ماكانت تهدف إليه هذه الدورة ليتمكن الدارسون من الاطلاع على النظريات والتطورات العلمية

توسيعاً لآفاقهم والنأي بهم عن الجمود وقد اختير للتدريس فيها صفوة مختارة من أساتذة المدارس الثانوية والمعاهد إلى جانب الاستعانة ببعض العاملين في جهاز الوزارة من مفتشين ومديري إدارات ومختصين في الشئون التربوية .

ولقد شَرُفْتُ بالعمل والتدريس في تلك الدورات والتي عقدت في مدينة الطائف وكم لنا من ذكريات مع طلاب هذه الدورات مازالت عالقة في الذهن فقد كنا نعقد الأمسيات الثقافية والندوات الاجتماعية والتربوية والشعرية في منتزهات الطائف وبين جباله وأوديته خلال الرحلات التي ننظمها للدارسين في هذه الدورات ووقفنا وقفات متعددة في موقع سوق عكاظ تحقيقاً للتقارب بين المدرسين فكرياً وشعورياً .

ولقد كنت وزملائي نستدل على سوق عكاظ من خلال أقوال علمائنا الأجلاء من القدامى والمعاصرين فمن القدامى كالأصمعي والمبرد والفيروزابادي وابن الأثير والأصفهاني وياقوت الحموي ومن المعاصرين كابن بليهد والجاسر وابن خميس والأنصاري وغيرهم .

ولكي يلم القارئ ببرنامج هذه الدورات أضع نموذجاً لخطة الدراسة لعام ١٣٧٩/١٩٨٠ هـ .

مواد الدراسة	عدد الحصص في الأسبوع	
	السنة الأولى	السنة الثانية
اللغة العربية وطرق تدريس اللغة والدين	٨	٨
العلوم والصحة العامة والصحة المدرسية والاجتماعية وطرق خاصة	٤	٤
الحساب والهندسة وطرق خاصة	٦	٦
الجغرافيا والتاريخ وطرق خاصة	٥	٥
التربية وعلم النفس التعليمي	٤	٤
المدرسة الابتدائية	١	١
التربية الفنية ووسائل الإيضاح التعليمية	٦	٦
مكتبة وأبحاث ومناقشات	٢	٢
	٢٦	٢٦

• ونموذج آخر لخطة الدراسة لعام ١٣٨٢هـ •

مواد الدراسة	عدد الحصص في الأسبوع	
	السنة الأولى	السنة الثانية
١ – اللغة العربية وطرق تدريس اللغة العربية والدين	٩	٩
٢ – العلوم والصحة العامة والصحة المدرسية والاجتماعية	٥	٥
٣ – الحساب والهندسة وطرق خاصة والوسائل	٦	٦
٤ – الجغرافيا والتاريخ وطرق خاصة والوسائل	٦	٦
٥ – التربية وعلم النفس التعليمي	٤	٤
٦ – المدرسة الابتدائية «مناهجها ومشكلاتها»	١	١
٧ – المكتبة والبحوث والمناقشات	٢	٢
٨ – الرسم والأشغال ووسائل الإيضاح	٣	٣

لقد روعي أن يشتمل منهاج هذه الدورات الصيفية لتدريب المعلمين على التعريف بوظيفة المعلِّم وكيفية تأديته لعمله وإعداده لدروسه والطريقة المثلى في ذلك وتوجيه نشاطاته وتنمية روح المسؤولية في نفسه .

والصفات الواجب توافرها في المعلم الناجح وضرورة تعرف المعلِّم على طبيعة تلاميذه وأسلوب معاملتهم إلى غير ذلك مما يساعد على نجاح المعلِّم في مهنته مع تمكينه من الاطلاع على كتب التربية وعلم النفس وطرق التدريس وتعميق معلوماته عن ذلك واستنباط أفضل الوسائل للتغلب على ألوان المشكلات التي تصادفه .

والواقع أن خطة الدراسة تقوم على أسلوب اجتماعي مرن يتسق مع مستوى تفكير الدارسين بهذه الدورة وبذلك أتاحت هذه الدورات فرصة التحصيل والتثقيف. والاستنارة العقلية والاستفادة من الخبرات التربوية والفنية الحديثة في التعليم والوقوف على أنجح الطرق في كيفية التدريس وطرائق الأداء إلى جانب ضروب شتى من الخبرات والمهارات التربوية وعلاوة على ما لهذه الدورة من أثر تربوي فهي عامل من عوامل بث روح التعاون والانسجام والتفاهم والتجاوب وغرس تلك المعاني في نفوس الدارسين وتعزيزها في أفئدتهم ومشاعرهم .

والواقع أن هذه الدورات حققت هدفين : الهدف الأول تربوي والثاني اجتماعي فاجتماع المعلمين وحضورهم من مناطق يبعد بعضها عن بعض وتتباين في طباعها وعاداتها ونفسياتها وتتغاير في تقاليدها فيلتقون على صعيد واحد وفي جو يسوده الصفاء والحب والود ويظلله الوئام والاخوة المتينة والهدف الموحد. فهذه الصلات الحيوية الوثيقة لها أهميتها وشأنها في توطيد العلاقات والتفاعل بين معلمي الجيل وحاملي مشاعل التربية والتعليم إذ ينطلقون بروح صادقة وعزيمة قوية إلى ارتياد آفاق العلم

والمعرفة... والواقع أن هذه الدورات أخذت بيد الدارسين إلى المجالات المفيدة وتوجيههم ليكتسبوا الخبرة والمران والمعرفة .

وحيث أن هذه الدورة أنجزت تدريب عدد كبير من معلمي الضرورة فقد صدر الأمر الوزاري في ١٣٨٥/٣/١٧ هـ (١٩٦٥م) بإلغاء هذه الدورة .

معاهد المعلمين الليلية :

لكي يكون المعلم قادراً على تأدية رسالته وأكثر فهماً لواجبه فلا بد من إتاحة الفرصة له وتدريبه تدريباً يتيح له التطور والنمو والتقدم وتزويده بالقدر الكافي من الدراسات الثقافية العامة والدراسات التي تتصل بأصول التربية وعلم النفس التعليمي لتجعل منه معلماً مدرَّباً فاهماً لنفسيات التلاميذ وطبائع الأطفال الذين يقوم بتربيتهم وتوجيههم وتعليمهم في المدرسة الابتدائية. ومراعياً للأهداف والغايات والواجبات التي يضطلع بها خاصة وأن الكثيرين من أولئك المعلمين غير مؤهلين تأهيلاً تربوياً والكثيرون منهم لا يحملون مؤهلات .

ولما لهذه الدراسات الليلية من أثر فعال في تنمية ثقافة أولئك المعلمين وتطوير كفاءتهم وإعدادهم.. فقد رأت الوزارة إقامة معاهد المعلمين الليلية وكان تأسيسها عام ١٣٧٥هـ - ١٩٥٥م .

ووضع لها منهج يتفق وظروف الدارسين واستعداداتهم وشجعت المدرسين على الانتساب إلى هذه المعاهد ووضعت مكافأة شهرية مقدارها خمسون ريالًا لكل دارس بها. وتدعيمها بمختلف الوسائل المادية والمعنوية حرصاً على أن يتم الاستفادة منها.. وليحقِّق المعلم لنفسه التقدم وليشارك مشاركة إيجابية فعالة في تعليم نفسه بضروب العلم وفنون المعرفة ووسائل التربية .

وكانت الدراسة في هذه المعاهد مسائية ولمدة ثلاث سنوات حسب الخطة التالية :

• خطــة الدراســة •

دراسات ثقافيــة	عدد الحصص في الأسبوع			ملحوظات
	الأولى	الثانية	الثالثة	
لغة عربية ودين	٣	٣	٣	
الرياضيات ومباديء العلوم والصحة	٣	٣	٣	
جغرافيا وتاريخ	٢	٢	٢	
رسم وأشغال يدوية	٢	٢	٢	
	١٠	١٠	١٠	

• (تابع) خطة الدراسة •

دراسات تربوية وثقافية	عدد الحصص في الأسبوع			ملحوظات
	الأولى	الثانية	الثالثة	
لغة عربية ودين	٢	١	١	
أصول التربية وعلم النفس	٢	٣	٣	
طرق تدريس اللغة العربية والدين	٢	٢	٢	
طرق تدريس الرياضيات	١	١	١	
طرق تدريس المواد الاجتماعية	١	١	١	
طرق تدريس الرسم والأشغال	١	١	١	
مناقشات عامة	١	١	١	
	١٠	١٠	١٠	

ولقد ألغيت هذه المعاهد في عام ٨٥/٨٤ هـ - ١٩٦٥/٦٤ م بعد أن أدت مهمتها في تدريب معلمي الضرورة .

معاهد المعلمين الثانوية :

تمشياً مع مرحلة النمو والتطوير والتي تسير قدماً إلى الأمام في مملكتنا الفتية والتي تستهدف النهوض بهذا البلد الأمين في شتى المجالات قامت وزارة المعارف بدورها في تحمل مسئولياتها التربوية والتعليمية إذ أن أي تقدم وتطور يعتمدان إلى حد كبير على إعداد المواطن الصالح وهذا يتطلب ولا شك إعداد وتكوين المعلّم الصالح الذي سيقوم بهذه المهمة وعلى هذا الأساس فقد عمدت وزارة المعارف إلى إعداد المعلمين للتعليم في المدارس المتوسطة .

ففي عام ١٣٨١ هـ - ١٩٦١ م أسست المعاهد الثانوية للمعلمين وحددت مدة الدراسة فيها بأربع سنوات واشترط للقبول فيها .

١ – أن يكون الطالب سعودي الجنسية .
٢ – وسليماً من العاهات الجسمية .
٣ – ولائقاً للخدمة التعليمية .
٤ – وألا يقل عمره عن الـ (١٥) عاماً ولا يزيد عن الـ (٢٠) عاماً .
٥ – وأن يكون حائزاً على شهادة الكفاءة المتوسطة .
٦ – وأن ينجح في الاختبار الشخصي الذي تجريه وزارة المعارف .

أما مايخص الخطة الدراسية فنوضحها في الجدول التالي :

عدد الحصص في الأسبوع

المـــواد	السنة الأولى	السنة الثانية	السنتـان الثالثـة والرابعـة				
			لغة عربية	لغة انجليزية	المواد الاجتماعية	الرياضيات والعلوم	التربية الفنية
العلوم الدينية	٤	٤	٢	٢	٢	٢	٢
اللغة العربية	٦	٦	٨	٢	٢	٢	٢
اللغة الإنجليزية	٧	٧	٢	١٥	٦	٢	٢
المواد الاجتماعية	٤	٤	٢	٥	١٤	–	–
الرياضيات والعلوم	٨	٨	–	–	–	٨	٢
التربية الفنية والتربية	١	١	١	١	١	١	٢
التربية العملية	١	١	٢	٢	٢	٢	٢
التربية الرياضية	٢	٢	١	١	١	١	١
علم النفس	١	١	٢	٢	٢	٢	٢
المكتبة والبحث	٢	٢	٢	٢	٢	٢	١
الخدمة الاجتماعية	–	–	١	١	١	١	١
التربية العلمية والنقد	–	–	٣	٣	٣	٣	٣

ولقد ألغيت بقرار وزاري في عام ١٣٨٥ هـ - ١٩٦٥ م على أساس أن ارتفاع مستوى التعليم في المرحلة المتوسطة يتطلب إعداد مدرسين جامعيين مؤهلين لهذا الغرض .

كما اتجه البعض من خريجي هذه المعاهد إلى مواصلة دراستهم في كلية التربية كما انخرط البعض الآخر للتعليم في المدارس الابتدائية .

وبعد، فمن يلق نظرة اليوم على نشأة وتطور وواقع المعلم يدرك الفرق الكبير بين اليوم والأمس، وتتعاون وزارة المعارف اليوم مع الجامعات في وضع مجموعة من البرامج التدريبية التربوية لمديري ومدرِّسي مراحل التعليم المختلفة يتلقون خلالها محاضرات في مجالات الأمور التربوية والتعليمية وأساليب التقنية التعليمية مع القيام بزيارات ميدانية للوقوف على التطورات التربوية الحديثة والاستفادة من المهارات التي تساعدهم على أداء واجباتهم ومسئولياتهم بفعالية وعزم وكفاءة.. وهكذا بذلت جهود في مجال إعداد المعلِّم بتطور أغراض التربية وواقع العصر .

المراجـــــع

١ – وزارة المعارف . مركز المعلومات الاحصائية والتوثيق التربوي .

٢ – احصاءات التعليم في المملكة العربية السعودية .

٣ – وزارة المعارف سياسة التعليم في المملكة العربية السعودية .

٤ – وزارة المعارف تطور التعليم في المملكة العربية السعودية عرض احصائي .

٥ – جريدة أم القرى .

من ذكرياتي عن :

• التعليـــم فـي بلادنـــا •

إن تطور الأمم ونهضتها يقاس بمدى تقدمها العلمي واحتفائها بالمعرفة واهتمامها بالتربية والتعليم والثقافة.. ونحن أمة ذات تراث عريق ومجد سامق ورصيد جم من العلم والأدب والتراث الفكري والتربوي الرصين.. فهذه البلاد هي مهد اللغة العربية والعرب ومنطلق الإسلام وعلى يد «محمد ﷺ) نشر النور والضياء والخير في أرجاء الدنيا..

ولقد عني المسؤولون في هذه البلاد بنشر التعليم وتوسيعه وإيفاد البعثات التعليمية للدراسة والتدريب الأكاديمي التربوي في مختلف الجامعات والمعاهد المختلفة وتخصص عدد كبير من المعلمين في مجالات التربية المختلفة كالإدارة التربوية وإعداد المعلمين والتربية المقارنة وطرق التدريس والبحث العلمي والتربوي وتوفير المكتبة التربوية التي تزدهي بها مدارس اليوم وتحوي العديد من الكتب والمراجع القيمة التي تعين المدرس وتشتمل على تفاصيل ودقائق المنهج وأهم موضوعات التربية والتعليم إدراكاً من المسؤولين بما للتربية والتعليم من أثر وأهمية في حياة الأفراد والمجتمعات وتطورها نحو مستقبل مجيد .

ولذا فإن الفارق كبير بين الأمس واليوم وقد يكون للأمس متاعبه ولكنه له أيضاً مزاياه وكم يسوقنا الحنين وتدفعنا الذكرى له.. وبلادنا كغيرها من البلدان مرت بفترات متنوعة وفقاً لظروفها وكان طبيعياً أن تشهد البدايات الأولى للتعليم صعوبة وتأرجحاً..

وإن الحديث عن ذكريات الأيام التي قضيتها وتشرَّفت فيها بالعمل في ميدان التربية والتعليم طويل وممتد.. حيث واكبت مراحل متعددة منذ أن

كانت مديرية المعارف ذات الإمكانيات المحدودة إلى أن أصبحت وزارة المعارف ذات الامتداد الواسع والانتشار البعيد ولا بد لي في هذا المقام أن أشير إلى الفرق الكبير والتفاوت الواضح والبون الشاسع والاختلاف الجذري بين الحاضر والماضي حيث كانت سبل العيش محدودة والإمكانيات ضئيلة وكانت المتاعب تواجه العمل التعليمي. أما اليوم فقد تطورت وزارة المعارف ونهض التعليم في مختلف المجالات والأنشطة التربوية المتنوعة، ومما لا ريب فيه أن الجهود المكثفة والأعمال المتواصلة والصعاب والتضحيات التي قام بها القدامى من رجال التعليم قد مهدت وأوجدت هذا الحاضر الذي ينعم به جيل اليوم حيث توفرت له الوسائل التعليمية والإمكانيات والسبل والثقافية بمختلف أشكالها وتعدد ألوانها وتطورت تبعاً لذلك مناهج التعليم وطرق التدريس وتوفرت مراكز البحوث التربوية وأوجدت الجامعات ومراكز إعداد المعلمين وتطوير معارفهم وتنمية خبراتهم عن طريق الكليات المتوسطة والدورات التدريبية والبعثات العلمية في الداخل والخارج..

وأصبح المسؤولون والموجهون التربويون اليوم ينتقلون خلال زياراتهم للمدارس بواسطة الطائرات والقطارات والطرق السريعة ويصلون خلال ساعات وقد يعودون في يومهم بعكس ما كنا نواجهه.. فقد كنا قبل الذهاب في الجولات التفتيشية وزيارة المدارس نبدأ في تحضير مستلزمات الرحلة وما يتعلق بها من أدوات خاصة كأمتعة السفر والمياه والحطب وتأمين السيارة وانتظارها وكانت من ذوات الموديلات القديمة ولها أصوات مزعجة وخرابها كثير ومتعدد خلال الرحلة وكم أدركنا المبيت في وسط الفيافي والصحاري نتيجة الضياع وعدم معرفة الطريق فنضطر للمبيت حتى تشرق الشمس وتتضح الرؤيا ومعرفة الطريق وكم نفاجأ

ونحن في المنام في تلك البقاع بالعقارب والحشرات والحيوانات المفترسة في بعض الأحايين فتقطع علينا النوم وتنغِّص علينا الهدوء والراحة ونسأل الله العافية والسلامة من هذه الأماكن المحفوفة بالمخاطر.. ولكم فاجأتنا السيول وداهمت سياراتنا وأوقفت حركتها وعطلت سيرها ولجأنا إلى التلال والجبال والمرتفعات نحتمي بها.. وكم أدركنا العطش ووقفنا مع إخوتنا من أبناء البادية ورعاة الماشية نتزاحم حول البئر وقد يطول الانتظار فلا يتيسَّر الحصول على الماء إلا بعد جهد جهيد ثم نأخذ وصف الطريق وتحديد الاتجاهات من أفواه الرعاة.. وفي كثير من الأحيان يكون الوصف غير محدد فنضل الطريق ونسلك دروباً رديئة وطرقاً سيئة ونفاجأ بكثبان الرمال ثم تغوص السيارات بين تلك الرمال ولا تخرج إلا بعد معاناة ومشقة ووضع آلات رافعة وجلب الأحجار والحشائش والحطب.. ولكم ابتلعت هذه الرمال أفواجاً من المسافرين وغمرت سياراتهم..

لقد كنا نأخذ الحذر ونحتاط خلال اجتياز هذه الرمال عادة قبل طلوع الشمس إذ أن منطقة النفود وكذا الدهناء وغيرها يحتاج اجتيازها من قبل السائق إلى شيء من الصلابة والعزيمة والثبات والجرأة والشجاعة فهي تلال رملية وكلما سارت السيارة اضطرت للتوقف لأن حرارتها تصل إلى معدل مرتفع فنقف وقفات متعددة ثم نستأنف المسير ونحن نجري وراءها على أقدامنا في بعض الأحيان.. ويحدق بنا الخطر فنحتمل التعب بصبر وجلد..

وفي جنوب المملكة ركبنا الدواب وصعدنا الجبال لزيارة المدارس ومكثنا فترة من الوقت فوق الجبال وقد ننتقل بالعير ونحمل عليه أمتعتنا وكم من زميل سقط منها وانكسرت يده وبحثنا عن مجبِّر فلم نجد وتجمعنا مع سكان القرية وساعدناه بما نستطيع من تضميد جراحه وذلك يعود إلى

عدم مقدرة البعض على حفظ التوازن والركوب فوق البردعة ولكبوات العير وسط الصخور.. وكم طلب منا أصحابها النزول والمشي على الأقدام وضربوا لنا موعداً نلتقي فيه بعد أداء مهمتنا في المدرسة وزيارتها وخاصة أن الطريق إلى بعض المدارس في مناطق تهامة وعسير ملتوية وصعبة الاجتياز وكنت دائماً أقول لا مفرَّ مما كتبه الله وقدَّره وأتذكر قول الله.. ﴿أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم في بروج مشيدة﴾ . سورة النساء آية (٧٨) .

إنها مشاهد ومناظر وذكريات مازالت ماثلة في النفس وكم رافقت مجموعة من الإخوة المتعاقدين الذين كانوا يعملون في التفتيش وقد ضلوا بالصحراء وقطعوا على أنفسهم العهود والمواثيق ألا يعودوا إلى الصحراء أبداً إذا قدّر الله لهم وعادوا سالمين..

ومن الذكريات التي عايشتها وهي بالطبع كثيرة ومتفرقة وسأجتزيء جانباً منها ففي عام ١٣٨٠ هـ كلِّفت من قِبَل معالي وزير المعارف بالقيام برحلة وزيارة لمنطقتي سدير والوشم والعمل على مسحها ومعرفة احتياج كل قرية وهجرة ولعل معرفتي بدروب هاتين المنطقتين وصلتي بأهلها جعل المسؤولين يصرون على ذهابي في هذه المهمة.. فبعد تهيئة مستلزمات الرحلة وأدواتها بدأت بمنطقة الوشم وكانت تشمل مناطق متعددة كعفيف والشعراء والدوادمي والجمش وديارة المتعددة وهي بلدان للروقة والدلابحة من قبيلة «عتيبة» حيث بقيت معهم فترة من الوقت فكنت أتنقل بين قراهم وهجرهم ومراعيهم لمعرفة أولادهم وننتظر الآخرين لتسجيلهم بعد مجيئهم من المرعى مع دوابهم وماشيتهم ويمتد الانتظار إلى مابعد الهزيع الأول من الليل حيث لم يصل الآخرون وفي بعض الأحيان نذهب في الصباح لتلك المراعي التي تحفل بأفانين النبات التي يفوح

عبيرها وتكثر طيورها وذلك للوقوف على معرفة عدد أولادهم وكان أحد الإخوة من أبناء البادية يقول نريد المدرسة هنا في هذه الرياض حيث أشجار السلم والرمث والطلح فكنت أقول لهم سوف ننصب لكم الخيام في وسط هذا الربيع والمهم أن تلحقوا أبناءكم بالمدرسة..

كانت الحياة في الثمانينات تختلف اختلافاً كبيراً عما هي عليه الآن، وفي الثمانينات لم يكن السَّفر مريحاً، وكنا خلال الجولات التفتيشية على المدارس نعاني العنت والمشقة في الفترة من ١٣٧٩ هـ - ١٣٩٠ هـ ، وخلال جولة لمسح بعض المناطق لمعرفة احتياجاتها من المدارس في كل من الدوادمي والجمش، وبالطبع، فإن الطرق في ذلك الوقت كانت غير ممهدة وهذه المناطق صحراء مرتفعة تربتها رملية وتكثر فيها النتوءات الصخرية الخشنة مما يسبب لسيارتنا العطب.. ولكن الإخوة في هذه المناطق سرعان ما يهبُّون لنجدتنا ونسير على الأقدام لأقرب قرية حتى يتم إسعاف السيارة وجلب الوقود لها حيث لم تكن محطات البنزين متوفرة بل يأخذ المرء معه برميلًا في السيارة، وكلما نفد البنزين نقوم بتوصيله للسيارة من خلال «شافط» لهذا الغرض وخلال البقاء مع السكان كنت أبذل الكثير من الجهود نحو توضيح رسالة المدرسة وأهميتها وضرورة إلحاق الأبناء بها، وقد كنا نصطدم بعض الأحيان بالكثير من المعوقات.. بسبب اختلاف الآراء حول مكان المدرسة ومقرَّها وموقعها ومن سيكون مدرساً بها وغير ذلك من النقاش والكلام الطويل، وكنت أدعوهم إلى الارتفاع عن الخلافات والنزاعات وأقوم بقياس الأرض وأحرص على توسطها بين القرى المتجاورة تلافياً للنزاع والمشاحنات التي تعقب ذلك .

أذكر ذات مرة في تلك الهجر التي زرتها، وإذا بأحدهم يقول لا نريد المدرسة، فقلت ولماذا؟ فقال: إنها سوف تأتي لنا بالغرباء، وقد يوجد منهم

من يشرب الدخان.. إلخ فقلت له سامحك الله إن المدرسة سوف تكون عوناً لكم على إصلاح أولادكم وتهذيب أخلاقكم وستلقن هؤلاء الشباب دينهم الإسلامي ولغتهم العربية ولن يكون فيها أي شيء مما أشرت إليه وسيختار لها أصلح المعلمين وأحسنهم خلقاً وسلوكاً وديناً.. فقال إذا كانت هكذا فأهلًا وسهلًا ثم فوجئت في مكان آخر من يقول إذا كنتم مصرِّين على فتح المدرسة فلا بد من تعيين إمام المسجد والمطوع معلمين بالمدرسة فكنت أعِدُهم بتحقيق ذلك بعد موافقة الوزارة..

والذكريات كثيرة في هذا المجال.. وبعد ذلك ذهبت لمنطقة السر وبها العديد من القرى وبعد زيارتها ومعرفة احتياجها من المدارس مضينا في طريقنا إلى الدوادمي وعفيف حيث كان اللقاء مع أسرة التعليم في الدوادمي في جبل «البيضتين» وهما هضبتان حمراوان على شكل بيض وحجارتهما ملساء ومن هذه الربوة شاهدنا أعلام الجبال والمعروفة شهرة ومكانة في الشعر العربي، وبعد تمضية يوم حافل مع الإخوة الكرام في تلك المنطقة انطلقنا إلى منازل البادية ومسح تلك المناطق..

ومن الوشم اتجهت لمنطقة سدير عبر كثبان رملية، كدت مع السائق أن نندفن بها لولا عناية الله فقلت له ويحك كيف تجتاز بنا هذا الطريق الرملي الرهيب وهناك طرق أيسر منه.. فقال: إنه مختصر ولكنه يحتاج إلى مغامرة.. فكم مات فيه من أناس دون أن يعرف بهم أحد.. كما رأيت رمالًا مخيفة لا يوجد بها إنس ولا جان..

ثم أخذنا في الانحدار التدريجي من هذه الرمال، ولكم تذكرت شاعر اليمامة الذي حن إلى هذه المناطق وكان متغرباً في اليمن «وهو زياد بن منقذ» إذ يقول وكنت على مشارف «أشى» :

وحبذا حين تمسي الريح باردة

وادي أشى وفتيان به هضم

والوشم قد خرجت منه وقابلها

من الثنايا التي لم يقلها ثرم

ومنذ أن دخلنا بلدان سدير ونحن نرنو إلى جبل طويق بشماريخه الطويلة الفارعة..

وفي هذه المنطقة قمت بزيارات متعددة لمناطقها وهجرها النائية ومناهل المياه القريبة من مضارب البادية. ومن الذكريات التي واجهت فيها بعض الصعوبات زيارة «عقل الزلفي» وهي جمع عقلة وهي قرى ومزارع داخل نفود الثويرات وسمِّيت عقلًا أخذاً من عقال الراحلة الذي يمكن أن يؤخذ الماء به من آبارها لقرب تناولها فهي بمثابة الأحساء في جوف هذا الرمل. وتحيط بهذه العقل الرمال من جميع جوانبها وتبعد عن الزلفي حوالي ١٨ كيلاً في جنوبه الغربي.. فكنت حريصاً على زيارتها والاجتماع بسكانها ومعرفة احتياجهم للمدارس، وكان اجتياز هذه الرمال في النهار صعباً وينبغي الذهاب ليلًا فبعد صلاة المغرب نتوجه إلى هذه العقل مشياً على الأقدام فزرتها عقلة عقلة ووجدت من بعض أهلها ترحيباً بالمدرسة وعدم حماس من الآخرين وبالنقاش والتوضيح لدور المدرسة وأهميتها والاهتمام بشروط سكانها تم بحمد الله افتتاح مدارس بها..

حقاً ماأكثر الذكريات.. لقد كانت أياماً من أجمل أيام العمر وأحفلها بالذكريات الطيِّبة التي تزخر بها النفس، وكنا نبتهج بافتتاح أي مدرسة وننسى المتاعب والصعوبات ونتذكر أسلافنا رحمهم الله الذين كانوا يضربون آباط الإبل من أنحاء هذه البلاد لحضور مواسم العلم والأدب .

وهناك ذكريات كثيرة كنقص الكتاب المدرسي والمعلم والأجهزة ووسائل التعليم في ذلك الوقت.. إلخ . فلم أذكر إلا جزءاً يسيراً مما ينبغي ذكره في مواقف كثيرة.. ولرجال كثيرين عرفتهم واجتمعت بهم لا يتسع المقام لذكرهم خلال تلك الجولات التفتيشية.. وأن ما تحقق اليوم من تطور تربوي ونهضة تعليمية حديثة تجعلنا نشعر بالفخر والاعتزاز وما نراه اليوم هو بلا شك امتداد لمجهودات الأوائل ومحاولاتهم وبداياتهم التي تمخّضت عنها هذه الوثبة التربوية الجبّارة والمسيرة التعليمية الشامخة في طريق العلم والمعرفة والبناء وتحقيق الآمال والطموحات.. والله الموفّق إلى سواء السبيل..

العلم رحـــم بين أهلـــه ..

المكتبة ركن أساسي في الحياة العلمية ومظهر حضاري في حياة الأمم والشعوب.. حيث أن الكتاب من أهم وسائل المعرفة وفي تكوين طلاب العلم تكويناً سليماً وعلى مدى التاريخ كله مازل الكتاب يضيف إلى تراث الأمم مزيداً من المعارف في مختلف مجالات الفكر والإبداع.. وقد بدأ الاهتمام بالعلم عند المسلمين منذ بداية الدعوة الإسلامية وذلك التزاماً بالأمر الرباني لرسوله ﷺ بقوله عز وجل ﴿اقرأ﴾ وبالأحاديث النبوية التي تحث على العلم والبحث عنه..

فالكتاب وسيلة تثقيف ومعرفة وترفيه.. وفي المكتبة يلتقي الماضي بالحاضر، ويطل الحاضر على المستقبل.. وعلى مدى التاريخ فالمكتبات تجسّد بجلاء صورة أمينة لتاريخ الأمم وستظل المكتبات من أهم مراكز الإشعاع الثقافي والفكري وما زالت تحمل على عاتقها هذه المسؤولية التاريخية المجيدة فهي شاهدة على الحضارة ودليل على المعرفة.. والمكتبة تخدم الدارسين والباحثين، وأصبحت اليوم موضع اهتمام الأمم، وتحرص الجامعات ومراكز البحوث على تطوير مكتباتها وتسخيرها لخدمة طلابها وروادها.. فالمكتبة هي المكان الذي يجمع المادة المكتوبة وينظمها ويحفظها وييسِّر استعمالها لمن يبتغيها وعلى مدى قرون من الزمان لم يكن أمام الإنسانية من وسائل الثقافة غير الكتاب.. ولذا فكم يسعد المرء حينما يسمع بقيام البعض من العلماء والأدباء بوقف مكتباتهم للجامعات.. ولا شك أن هذا العمل يعتبر بادرة طيبة وعملًا جليلًا وتاريخاً مجيداً.. فمتى قدم المرء مكتبته لإحدى الهيئات العلمية فإنها ستعنى بها، وستحافظ على

ما بها من مخطوطات نادرة وتعمل على صيانتها والحفاظ عليها وتحقيق مايستحق التحقيق وطباعته ونشره ..

وتشهد بلادنا اليوم نشاطاً مكتبياً عريقاً ولا غرو فتاريخ الكتاب والمكتبات عند أسلافنا تاريخ ممتد وطويل.. ولذا نرجو من كل صاحب مكتبة أن يبادر بالتبرع بها للهيئات والمؤسسات العلمية حفاظاً عليها وصيانة لها من التلف والضياع بعد وفاته.. فقد يرثها من لايعرف قدرها وقيمتها العلمية، وكونها تراثاً والتراث لايورث، وإنما هو ملك للجميع.. فكم من مكتبات أحرقت وضاعت وأهملت وفقدت لأنها تركت في أيد لاتعرف قدرها..

لقد شغف علماؤنا بالكتب وجمعها حتى كانوا يرون نكبتهم في أموالهم أيسر عليهم من نكبتهم في كتبهم، والأدب العربي هو أغنى الآداب العلمية القديمة بالإشادة بالكتاب والولع به والتحدث عنه حتى حق لعالم كبير مثل غوستاف لوبون أن يقول: إن حب العرب للعلم والكتاب كان عظيماً وأنهم بلغوا درجة رفيعة من الثقافة بعد أن أتموا فتوحهم بزمن قصير حتى استطاعوا أن يبدعوا حضارة أينعت فيها الآداب والعلوم والفنون وبلغت الذروة .

إن الكثير من المكتبات الخاصة تحفل بنفائس المخطوطات النادرة والكتب القيمة.. لقد كان أسلافنا يرحمهم الله يعنون بالكتاب ويحرصون على ابتياعه أو نسخه وكانوا يوصون بوقفه على معاهد العلم والمساجد مع الحرص على اختيار الحذّاق من النسّاخ والمهرة في الضبط والنقل، والإجادة في التجليد. ومن المعروف أن مكتبة العباسيين في بغداد والفاطميين في القاهرة، والأمويين في قرطبة من أعظم المكتبات، ولها الفضل الكبير في حفظ التراث الإسلامي .

إن الكتاب ركن أساسي من أركان العملية التعليمية لا تقوم إلا به، ولذا ينبغي أن نحرص على اقتنائه وتوفيره لطلاب العلم ليسهم في زيادة رصيدهم العلمي من المعرفة والثقافة.. ولقد روى ياقوت أن عدداً من المكتبات تبرَّع بها أصحابها وأن الكثير من العلماء كانوا يوصون بأن تؤول مكتباتهم إلى دور العلم، كما فعل الصاحب بن عباد حين أوقف مكتبته على الري، كما أن مرو كان بها في مطلع القرن السابع الهجري عشر خزائن للوقف وجميعها مجانية والإعارة فيها بدون رهن. وكذلك في البصرة والكوفة والقاهرة والأندلس كانت مساجدها تحتفظ بكنوز الثقافة وديعة غالية تصونها وتؤديها لأبناء الإسلام جيلًا بعد جيل..

إنه نداء موجه إلى كل صاحب مكتبة في بلادنا ألا يحبسها أو يجعلها عرضة للتلف والإهمال إذ لا ينبغي حبس الكتب والمخطوطات.. ولقد اتصل بي منذ أيام مجموعة من الإخوة الباحثين يسألون عن بعض المخطوطات، ويرغبون في تحقيقها وجزء منها لدى ورثة أصحاب تلك المكتبات الخاصة وبالاتصال بهم لتصويرها واستعارتها استجاب البعض ورفض البعض بكل أسف إن وقف المكتبة والتبرع بها للمدارس والجامعات والأندية الأدبية والمكتبات العامة والهيئات العلمية إلى غير ذلك عمل خيري عظيم، لأنه ذو نفع كبير فهو كالصدقة الجارية.. فقارئ الكتاب يستزيد منه علماً، وهذا العلم ينفع به نفسه، وينفع الآخرين.. وناشر المخطوطة يبرز مافيها من علم دفين، فأتاحه لنفسه ولغيره.. وتداول العلم مطلوب شرعاً، وثواب ذلك يعود لمؤلف الكتاب.، وناشره، وناقله لغيره.. والساعي في طلبه، وميسِّره لكل ظمآن لطلب العلم.. فكن ياأخي واحداً من هؤلاء.. ولتكن قدوة حسنة، ومثلًا طيباً في التسابق لهذا العمل الخيري الجليل.. فالعلم رحم بين أهله.. والله الموفق والهادي إلى أقوم طريق ..

• في التربية والتعليم •

يتميز المجتمع بمؤسساته التربوية والتعليمية التي تقوم بدور حيوي فعال في مجال التعليم وبقدر فاعلية تلك المؤسسات العلمية يكون تقدم المجتمع ورقيه وتحقيق أهدافه من خلال المؤسسات التعليمية كالمعاهد والجامعات والمدارس ومراكز البحث العلمي والتي تعمل على إعداد القوى البشرية المؤهلة والتي تسهم في تطور الأمة ونهضة المجتمع ورقيه وتقدمه.. والعمل في شتى مجالات الحياة المختلفة.. وكلما هيَّأنا الأجيال وفق أسس تربوية وأحسنا تعليمهم حققوا الخير لأنفسهم ولوطنهم ومجتمعهم ..

وإن التربية لعملية اجتماعية تجسد تاريخ الأمة وتعكس فلسفة المجتمع ومدى رقيه وتبرز طموحه وتعبر عن تطلعاته وآماله .

ولقد ركزت فلسفة وأهداف النظام التعليمي في بلادنا على الاهتمام بالفرد والمجتمع ونموه روحياً وأخلاقياً واجتماعياً وبناء اتجاهاته ومهاراته وتفكيره العلمي ليكون عضواً مؤمناً منتجاً متعاوناً في تحقيق الأهداف الإسلامية في مجتمعه وتبصيره بالأمجاد التاريخية والحضارية للأمة الإسلامية وتنمية الإحساس بمشكلات المجتمع ومساعدة النشء ومن هنا يأتي التركيز والاهتمام بإعداد المعلمين المؤهلين تربوياً ومن ذوي الكفاية العلمية والتربوية والخلق الإسلامي الرشيد .

ويتصف الأسلوب التربوي والتعليمي في بلادنا بمواكبة التطور العلمي والتفاعل مع معطيات التقدم وفق حاجات المجتمع وتطلعاته وما يتناسب مع مراحل النمو وتحقيق التفاعل المستمر المتوازن مع حياته وبيئته وتقاليده

وقيمه ومثله مع الاستفادة من جميع أنواع المعارف الإنسانية النافعة على ضوء الإسلام للنهوض بالأمة ورفع مستوى حياتها والتفاعل الواعي مع التطورات الحضارية العالمية في مجالات العلوم وميادين الثقافة والآداب والمشاركة فيها .

ومجمل القول فقد تطورت جوانب العملية التربوية تطوراً جذرياً في مناهج التعليم المختلفة واستخدام التقنيات التعليمية لخدمة الأهداف التربوية .

ولا مراء في أن للتربية بمفهومها الواسع ومضامينها المتعددة أثراً وأهمية في حياة الأمم والمجتمعات وتجددها وتطورها ونموها، فالتربية وظيفة اجتماعية تهدف إلى تطوير الأفراد وبلورة مفاهيم الجماعات وبتطورها وتقدمها يتطور المجتمع ويرتفع بنيانه ويعلو صرحه .

فالتربية تساعد الفرد على النمو المتكامل لنواحي شخصيته المتعددة واكتساب المزيد من الخبرات والمهارات العلمية والحضارية لخيره وسعادته وللمجتمع الذي يحيا فيه وتحقيق أكبر قدر ممكن من التوازن للتكيف بينه وبين بيئته ومجتمعه الذي ينتمي إليه دون خلل أو اضطراب .

ولقد ركزت أهداف التربية على أهمية السلوك الإنساني وتطويره في إطار من عادات وتقاليد الأمة بحيث يشعر الفرد باستمرار بانتمائه للأمة التي يعيش فيها وللجماعة التي يتعايش معها، متفاعلًا مع قيمها ومتكيفاً مع المقاييس الخلقية والاجتماعية لها ومراعاة المعايير والاهتمامات الخاصة بالمجتمع .

وللمدرسة دور حيوي وأثر بارز في تطوير المفاهيم التربوية حيث حلت محل الأسرة والتي كانت لزمن غير قصير هي المكان الوحيد الذي

يمارس عملية تربية الأفراد وتعليمهم حتى وجدت المدرسة وأقبل الناس عليها كمؤسسة تربوية تمارس دورها الحيوي في تربية الأفراد وصقل مواهبهم وتطوير معارفهم وتوسيع آفاقهم وتزويدهم بالخبرة والمعرفة المتجددة وتوعية المجتمع بمشاكله، واستغلال قدرات الفرد في العمل والابتكار والإبداع مع تنمية شخصيته من جوانبها الروحية والأخلاقية والجسمية والاجتماعية والفكرية .

إن أي مجتمع من المجتمعات لن يتسنى له التطور دون أن يتقدم ويتطور أسلوب التربية والتعليم فيه . فالتربية تحقق بوسائلها الأمور الأساسية التي يقوم عليها بناء المجتمع فعبر وسائل التربية تحافظ الأمة على تراثها الحضاري وتصونه من الضياع والاندثار وتصوغه بأساليب تربوية للناشئين، ان التقدم السريع للمعرفة يضع على التربية مسؤولية الملاحقة والمتابعة في كافة ميادين النشاط الإنساني وتمحيص تلك المعلومات وتنقيتها من الشوائب والأمور السلبية .

فالبحوث التربوية عامل مهم في تصفية مصادر المعرفة لتكون هادفة وبناءة تتسم بالتكامل والابتكار والابداع والموضوعية وتطوير النشاطات المنتجة مما يشمل العلوم والفنون والمعارف والمهارات وتكوين الميول والاتجاهات الصحيحة السليمة. لقد لعبت التربية دوراً هاماً في حياة الإنسان وتطوره وإصلاح النفس والمجتمع وذلك بتربيته على حب الخير والحق والجمال والخلق والإيمان والصدق والأمانة والاستقامة وغير ذلك من الفضائل الخلقية الكريمة والخصائص الطيبة النبيلة والقدوة الحسنة وممارسة ذلك قولًا وعملًا وسلوكاً ومنهجاً مما يتفق مع التفكير الإسلامي السديد ويعود على المجتمع والإنسانية بالخير والتقدم وتحقيق السعادة لبني الإنسان وإنقاذ البشرية مما تردَّت فيه من فساد وشقاء .

القسم الرابع

في اللغة والأدب

قضيـــة اللغـــة العربيـــة ..

بيـن الفصحـــى والعاميـــة (*)

من القضايا التي تثار بين وقت وآخر قضية الفصحى والعامية .

ومما لا مراء فيه أن اللغة العربية الفصحى عامل حيوي في مجال التفاهم والتقارب العربي ووسيلة مثلى في توطيد الوشائج وتأكيد الأواصر .

ولذا حرص المخلصون من أبناء الأمة العربية قديماً وحديثاً على حراسة هذه اللغة وصيانتها من العبث والتمزق ودرء كل عامل يهددها ونبذ كل محاولة لتقويضها .

ولقد طلعت علينا فئة تحاول النيل من اللغة العربية الفصحى وطعنها في الصميم وراحت تعمل جاهدة على محاربة اللغة العربية بكل ما تملك من أفانين الحرب مسخرة كل طاقاتها وشتى أساليبها لتفتيت اللغة وهدمها .

ويقيني أن هذه المحاولات مهما كانت أسلحتها فهي واهية وعاجزة عن تحقيق ما رسمته وهدفت إليه من مآرب وغايات. إذ هدفهم هو إغفال كل ما كُتب فيها من العلوم على تعددها .

فاللغة العربية الفصحى تصدى لها الكثيرون من مختلف عصورها وغابر أزمانها ومع ما كانت تلقاه تلك الدعوات من مروّجين فإنها وُئِدت في مهدها لأن الأمة العربية بطبيعتها وأصالتها لن تفرط في تراثها وتاريخها وآدابها ومشاعرها وإحساساتها وعروبتها ودينها بمجرد دعوة لا تستند على منطق ولا تقوم على برهان ..

(*) محاضرة ألقيتها بثانوية الدوحة في بيروت سنة ١٣٩٠ هـ حينما كنت منتدباً للتدريس هناك .

فكيف يريد دُعاة العامية أن تكون وسيلة للتخاطب بين الشعوب العربية وكل قطر كما هو معروف له لهجته المحلية الخاصة به يتخاطب بها في محيطه وبيئته ولا تتعداه لسواه..

فالسعودي مثلا لا يستطيع فهم اللهجة المحلية اللبنانية أو التونسية، وكذا الليبي لا يستطيع فهم اللهجة اليمنية أو السورية وهكذا دواليك بالنسبة للشعوب العربية الأخرى .

إذاً كيف نستطيع التخاطب وفهم مايُكتب وتميز مايُقصد .

وفي معرض حديث أدبي للدكتور طه حسين حول هذا الموضوع قال: (إن اللهجات المحلية لاتساوي هذا الجهد واللغة العربية الفصحى خير أداة لتوحيد الأمة العربية والعرب جميعاً يفهمون اللغة الفصحى وأقصد بالفصحى وأي فصحى وهؤلاء الذين يكتبون بالعامية ألتمس لهم عذراً وهو أنهم لم يتعلَّموا العربية تعليماً سليماً وأعتقد أن الجهل – بالفصحى هو الذي يضطرهم إلى الكتابة بالعامية إلى أن قال: لقد قاطعت المسرح لأنه يتكلم بالعامية وأنا لاأحب أن أضيِّع وقتي في مسرحيات لاتُكتب إلا بالعامية.. المسرحية الأصل فيها أنها من أرفع فنون الأدب وأخص مزاياها أنها تُكتب باللغة العربية الأدبية الفصحى وهذا موجود في جميع البلاد المتحضرة منذ العصر اليوناني إلى الآن) .

لا شك أن حملة لواء الدعوة إلى العامية يريدون أن تذوب عوامل القربى وتنفصم الصلات وتذوب الأواصر ويعيش كل قطر عربي في بوتقته الضيقة ومحيطه الخاص لالقاء ولا تفاعل ولا امتزاج ولا يجمعه جامع .

لقد تنبَّه الكثيرون من كتَّاب وأدباء إلى خطورة الاتجاه نحو العامية وأثر

ذلك على مستقبل اللغة العربية وغيرتهم على الدين واللغة والدفاع عن ذلك فقاموا بدافع من حماسهم وغيرتهم .

ولقد نشرت الصحف في أركانها الأدبية منذ أيام خبراً فحواه أن أحد الأدباء بعث برسالة للدكتور طه حسين مكتوبة باللغة (الفينيقية) وقد رد عليه الدكتور طه حسين برسالة مكتوبة باللغة (الهيروغليفية) وبالمناسبة فقد سبق هذا كثيرون فمنذ عشرين عاماً قامت معركة حامية الوطيس حول موضوع الكتابة بالحروف اللاتينية وقد بدأها السيد عبدالعزيز فهمي عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة عام ١٩٤٤م وتصدى له وقتها كثير من الكتاب والمفكرين وعلى رأسهم الدكتور عبدالوهاب عزام والعقاد وغيرهما كثير، ونثبت هنا جانباً مختصراً من آراء الطرفين للاطلاع عليهما وللتدليل على ما بلغه هذا الموضوع في السابق من اهتمام وخطورة..

لقد حاول الأستاذ عبدالعزيز فهمي في اقتراحه بأن تتخذ الحروف اللاتينية لرسم الكتابة العربية قائلا أن اللغة العربية كائن كالكائنات الحية ينمو ويهرم ويموت مخلفاً من بعده ذريَّة لغوية متشعبة الأفراد هي أيضاً في تطور مستمر ولن يستطيع قومه للآن أن يغالبوا هذه الظاهرة الطبيعية فإن الطبع يكبح شراسة من غالبه .

كانت اليونانية القديمة لغة شعر وحكمة فلما استبد التبلبل في ألسنة أهلها اضطروا على الرغم منهم أن يتخذوا من عاميَّتهم لهجة جعلوا لها قواعد نحو وصرف وهي التي يكتبون بها اليوم ويتكلمونها اليوم .

وكانت اللاتينية لغة الامبراطورية الرومانية فأتى عليها التطور فاشتقت منها الإيطالية والفرنسية والأسبانية وغيرها .

وكل لغة من تلك اللغات الذراري هي كل يوم في تطور، ولكن حال

اللغة العربية حال غربية بل أغرب من الغربية لأنها مع سريان التطور في مفاصلها في عدة بلاد من آسية وإفريقية إلى لهجات لا يعلم عددها إلا الله ، لم يدر بخُلد أي سلطة في أي بلد، أن تجعل من لهجة أهله لغة قائمة بذاتها لها نحوها وصرفها. وتكون هي المستعملة في الكلام الملفوظ وفي الكتابة معاً تيسيراً على الناس كما فعل الفرنسيون والأسبان والإيطاليون وبقي أهل اللغة العربية من أتعس خلق الله في الحياة .

إلى أن يقول إن أهل اللغة العربية مستكرهون على أن تكون العربية الفصحى لغة الكتابة عند الجميع وأن يجعلوا على قلوبهم أكنَّة وفي آذانهم وقرا، وأن يردعوا عقولهم عن التأثير بقانون التطور الحتمي الآخذ مجراه بالضرورة رغم أنوفهم في لهجات الجماهير .

هذا الاستكراه الذي يوجب على الناس تعلم العربية الفصحى كي تصح قراءاتهم وكتاباتهم هو في ذاته محنة حائقة بأهل العربية إنه طغيان وبغي لأنه تكليف للناس فوق طاقاتهم .

وبعد أن أورد صعوبات العربية الأفعال مجرد ومزيد الفعل الثلاثي وأوزانه الأسماء المصروفة والممنوعة استطرد قائلًا تلك الأشواك والعقبات وهذا التعدد يريك الواقع من أن هذه اللغة العربية ليست أمة واحدة لقوم بعينهم بل إنها مجموع كل لهجات الأعراب في جزيرة العرب من أكثر من ألف وأربع مائة سنة جمعها علماء اللغة وأودعوها المعاجم وجعلوها حجة على كل من يريد الانتساب للغة العربية ولا يعلم إلا الله كل لهجة كانت .

إلى أن يقول إذن أول واجب على أهل اللغة العربية هو أن يبحثوا عن الطريقة التي تيسر لهم كتابة هذه اللغة على وجه لا تحمل فيه الكلمة إلا صورة واحدة من صور الأداء ...

ثم يقول ولقد فكرت في هذا الموضوع من زمن طويل فلم يهدني

التفكير إلا في طريقة واحدة هي اتخاذ الحروف اللاتينية وما فيها من حروف الحركات بدل حروفنا العربية كما فعلت تركيا .

الحروف الهجائية بحسب ماوضعناها لا تخل بشيء من نغمات الحروف العربية بل هي تبرزها جميعاً بلا استثناء .

ثم راح يصور مزايا استعمال الحروف اللاتينية فقال: إن ختام اقتراحه طريقة الحروف اللاتينية التي أقرها هي الوسيلة الوحيدة لتحلية لغتنا الفصحى في جمالها وجلالها على الوجه الواحد المتعين من أوجه النطق بكلماتها .

وقد عارضه الأستاذ اسعاف النشاشيبي في مجلة الرسالة المصرية فكتب قائلًا : يحق لنا أن نتساءل إذا كان من الحكمة الاستغناء عن حروف الهجاء العربية التي تمتاز على الأقل بأنها وضعت خصوصاً للغة العربية واستبدال حروف بها إلى أن يقول أما مقترح تصوير العربية بالحروف اللاتينية فهو كمقترح استعمال تلك العامية ولكل إقليم عربي عامية والاسم العربية قد أجمعت على أن تكون في هذه الدنيا في الكائنين لا أن تبيد في البائدين وأن دعوة الباطل متلاشية ودعوة الحق هي الباقية .

وكذا فقد كتب الأستاذ محمود محمد شاكر في مجلة الرسالة قائلًا : عبدالعزيز فهمي رجل كنا نعرفه بالجد والحرص والفقه وطول الباع في القانون وكنا نظنه رجلًا محكم العقل في جميع نواحيه لا يرمي بنفسه في غمرات الرأي إلا على بصيرة وهدى إلى أن يقول: إن أول التضليل في رسم العربية باللاتينية أن يضيع على القارئ تبين اشتقاق اللفظ الذي يقرؤه فإذا عسر عليه ذلك صار اللفظ عنده بمنزلة المجهول الذي لا نسب له إلى أن يقول في ختام مقالته إنها فتنة اغتر بها شيخ صالح فاستغلها من لا يرى للعربية حرمة ولا حقاً .

وكذلك فقد كتب الأستاذ الكبير عباس محمود العقاد في مجلة الرسالة نفسها بعد مناقشة طويلة استطرد قائلًا: لقد حاول الأستاذ عبدالعزيز فهمي أن يصلح من اللغة العربية بمشروعه ذلك بأن يجد طريقاً ليسهِّل على الناس قراءة العربية صحيحة كما تلقيناها من الفصحاء ونسي أن اللغة العربية تمتاز على جميع لغات العالم من هذه الناحية نسي أن بها حروف مد وحروف حركة .

فهذه اللغة لغة دين ولغة أدب وعلم وفن انحدرت إلينا منذ خمسة عشر قرناً إلا قليلًا تحمل إلينا في تضاعيفها مشعل الماضي مضيئاً إلى هذه النزعات نزعات يبعثها ضعف القومية واستهتار بتراث العرب الموروث ونبذ لكل قديم تلقيناه عن أصولنا. وأختتم ذلك بقول الأديب النابغة المرحوم مصطفى صادق الرافعي حيث يقول: لا نعلم كيف يكون إيحاء العربية باستعمال العامة وكيف ترضى لغة القرآن التي تأبى إلا أن تتقيَّد بها اللهجات الأخرى كما محت من قبل لغات العرب جميعها على فصاحتها وقوة الفطنة في أهلها وردتها إلى لغة واحدة وهي القرشية ترضى من جهة أخرى هذه اللهجات العامية التي تأبى أن تتقيَّد بشيء ويستطرد قائلًا: إذا حاولنا مذهب الإصلاح العامي فليت شعري أي لهجة تأخذ وأي لهجة تنبذ؟...

وهنا أكتفي بهذا العرض الموجز من آراء رجال الفكر والأدب الذين دفعهم حماسهم القومي وغيرتهم الدينية والوطنية إلى وضع الحق في نصابه وإزهاق الباطل ونسف كل قول معوج وتفنيد هذا المشروع الذي لا يرتكز على دعائم معقولة ونقول لدعاة العامية وسواها دقوا مختلف النواقيس والأجراس واضربوا على كل وتر فلن تجدوا أُذناً صاغية أو سمعاً يرهف ونردد مع الفرزدق قوله :

إن الأراقم لن ينال قديمها كلب عوى متهتم الأسنان

فهذه اللغة العربية التي صمدت قروناً طويلة وأحقاباً عديدة محتفظة بشخصيتها في وجه الغزاة والمستعمرين من الأمم المختلفة كالأتراك والبربر والمماليك وسواهم من المستعمرين ممن حرصوا على تفتيت اللغة العربية وغزو الثقافة العربية والتأثير عليها ومحاولة اغتيالها بطرق وأساليب شتى لقادرة على البقاء والخلود... لأنها بالغة من حسن البيان والكمال والإبداع أقصى ما يمكن أن تبلغه لغات أخرى...

فليس من السهل هجر اللغة العربية والتخلي عنها وكفى أنها لغة القرآن الكريم الذي هو معجزة الرسالة وفي تساؤل رائع يقول العالِم اللغوي الشهير ابن جني صاحب كتاب (الخصائص) إنا نسأل علماء العربية ممن أصله أعجمي، وقد تدرب قبل استعرابه عن حال اللغة فلا يجمع بينها بل يكاد يقبل السؤال عن تلك لبعده في نفسه وتقدم لطف العربية في رأيه وحسه ونرى كثيراً من خصوم العربية والإسلام يشيد بالعربية ويعترف بمزاياها وخصائصها .

إذ يقول المستشرق أرنست رينال في كتابه تاريخ اللغات السامية (من أغرب المدهشات أن تنبت تلك اللغة القومية وتصل إلى درجة الكمال وسط الصحارى عند أمة من الرحل تلك اللغة التي فاقت أخواتها بكثرة مفرداتها ودقة معانيها وحسن نظام مبانيها وكانت هذه اللغة مجهولة عند الأمم ومن يوم علمت ظهرت لنا في حُلل من الكمال إلى درجة أنها لم تتغيَّر أي تغيّر يُذكر حتى أنها لم يعرف لها من كل أطوار حياتها لا طفولة ولا شيخوخة ولا نكاد نعلم من نشأتها إلا فتوحاتها وانتصاراتها التي لا تُبارى ولا نعلم شبيهاً لهذه اللغة التي ظهرت للباحثين كاملة من غير تدرج وبقيت حافظة لكيانها من كل شائبة، ويقول المطران يوسف داود

الموصلي (من خواص اللغة العربية وفضائلها أنها أقرب سائر لغات الدنيا إلى قواعد المنطق بحيث أن عباراتها سلسة طبيعية يهون على الناطق صافي الفكر أن يعبِّر فيها عما يريده من دون تصنُّع وتكلُّف باتباع ما يدل عليه القانون الطبيعي . وهذه الخاصة إن كانت اللغات السامية تشترك فيها مع العربية في وجه من الوجوه فقلَّما نجدها في اللغات المسماة (الهندية الجرمانية) ولا سيَّما الإفرنجية منها..

ولقد كتب جول فرن قصة خيالية بناها على سياح يخترقون طبقات الكرة الأرضية حتى يصلوا أو يدنوا من وسطها . ولما أرادوا العودة إلى ظاهر الأرض بدا لهم أن يتركوا هنالك أثراً يدل على مبلغ رحلتهم فنقشوا على الصخر كتابة باللغة العربية، ولما سئل جول فرن عن وجهة اختياره للغة العربية. قال: إنها لغة المستقبل، ولا شك أنه يموت غيرها وتبقى حيَّة خالدة .

ويقول المستشرق جاك بيرك : إن مستقبل الأدب في العالم العربي هو اللغة الفصحى وحدها الزاخرة بالثروة والغنى والتراث، وليست اللهجات العامية بلغة كيانية بل هي تحريف وتشويه للفصحى ولن تتمكن هذه اللهجات إطلاقاً من اجتياز جدار التراث...

وليس غريباً اليوم على الذين ينادون بهجر اللغة العربية واستبدالها بغيرها فلهم في ذلك مآرب شتى من هدم للإسلام ونبذ لما خلّفه من تراث رائع ممتاز وتفتيت للمثُل العربية، وما أكثر ما ينطبق عليهم قول الشاعر العربي :

كناطح صخرة يوما ليوهنها فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل

حرس الله لغة القرآن وحفظها وصانها من كل الأعداء وأدام لها القوة والانتصار .

وكم عز أقوام بعز لغات

شاعت في السنوات الأخيرة مسميات أعجمية كثيرة في مجتمعنا الذي يعتز بحفاظه على اللغة العربية لغة القرآن الكريم والسنة المطهرة..

حقيقة إننا نمر بمرحلة نمو وتطور حضاري تشهده بلادنا وتبعاً لذلك كثر الوافدون من شتى الأمم إلى هذه البلاد فصرنا نسمع كلمات أعجمية كثيرة تتدفَّق علينا باستمرار.. وفي مختلف الأماكن.. ولا بد من أن يتعلَّم أولئك الوافدون لغتنا نرى البعض تعلَّم لغتهم فشاعت كلمات ومسميات كثيرة .

وإذا كانت كل أمة تعتز بلغتها وتاريخها وتُراثها فأولى بنا الحفاظ على لغتنا وخاصة أن هذه البلاد هي موطن العرب وموئل الفصحى والمهد الأول الذي وُلدت فيه اللغة العربية وشبَّ البيان العربي الفصيح فيها وهي المثابة التي تهوي إليها الأفئدة وتتعلق بها القلوب والأبصار، لقد كان أسلافنا شديدي الاعتزاز بلغتهم وحريصين على صيانتها من عبث العابثين ووضعها في أكرم صورة وأحسن منزلة ويتجلى ذلك في نفورهم من كل عيب يشوب النطق أو يشوِّه التعبير. فلنحرص على الاهتمام بلغتنا ولنعلِّم صغارنا وشبابنا على ذلك وألا يكون حماسنا لها ضعيفاً أمام تلك التيارات الأجنبية .

فقضية اللغة قضية حيوية وعظيمة ورحم الله حافظ ابراهيم القائل :

وسعت كتاب الله لفظاً وغايةً ... وما ضقت عن آي به وعظات
رموني بعقم في الشباب وليتني ... عقمت فلم أجزع لقول عداتي
فيا ويحكم ابلى وتبلى محاسني ... وفيكم وإن عز الدواء اساتي
أرى لرجال الغرب عزاً ومنعةً ... وكم عزّ أقوام بعزّ لغات

• الحفـــاظ على الفصحـــى سلاح له شـــأن •

الاهتمام باللغة العربية والحرص عليها عمل رائع وعظيم ومنذ مدة صدر الأمر الملكي الكريم بالتأكيد على وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية من صحافة وإذاعة وتلفاز بأن تلتزم بقواعد اللغة العربية في جميع الاستعمالات من محادثة وكتابة وتخاطب حيث لوحظ بعض الظواهر المتفشية على اللسان العربي وفي أساليب الكتابة ولا شك فإن هذا التوجه فيه توعية للمواطنين للشعور بأهمية اللغة العربية والالتزام بها في سائر المجالات وذلك للحد من ظاهرة تفشي الكلمات الأجنبية ومنعاً لانتشار اللحن في اللغة العربية .

لقد كان لهذا القرار صداه حيث يحمل الاهتمام بلغة القرآن الكريم وصيانتها من مزاحمة اللغات الأجنبية لها فالغزو الأجنبي اللغوي يحاول جاهداً منافستها بشتى الأساليب ومختلف الوسائل.حتى تفشَّت الكلمات الأعجمية بيننا اليوم وكذلك اللغة العامية بحيث تتوسع على حساب الفصحى.. إن التركيز على اللغة العربية في مناهج التعليم أمر مهم ودراسة مناهجها وطرق تدريسها وتأثير اللغات الأجنبية في تعليم اللغة العربية. كل ذلك ينبغي التركيز عليه مع توجيه المعلمين إلى الحرص على تقويم ألسنة طلابهم وشرح دروسهم باللغة العربية وعدم التحدث بالعامية .

إن الواجب يفرض علينا أن نحافظ على اللغة العربية ونقنع الآخرين بأهميتها وما لها من قيمة حضارية وتاريخية وفكرية كما أنها تمتاز بأمور وخصائص لغوية كبيرة وكفاها شرفاً وفخراً أنها لغة القرآن الكريم والسنة المطهرة وما تزخر به من روائع البيان والبلاغة والإعجاز والفصاحة . وعلينا أن نعطي لغتنا كل اهتماماتنا بحيث تكون المحور والقاعدة التي نعبِّر

من خلالها عن طموحاتنا وتطلعاتنا وممارستنا الاقتصادية والتجارية والاجتماعية وأن نكون قادرين على مواجهة التحديات التي تتعرض لها فلتكن حية في عقولنا ونفوسنا وقلوبنا ووجداننا.. إن الحفاظ على اللغة العربية الفصحى سلاح له شأن ومتى فرَّطنا فيها ضعُف تماسكنا وتراخت الصلة بيننا وبين ديننا وثقافتنا وفكرنا وتاريخنا ومن أجل هذا ينبغي الحفاظ عليها .

• ظاهـرة الضعف اللغـوي •

لهذه البلاد مكانة أثيرة في قلوب العرب والمسلمين فهي موطن الفصحى ومنبت العربية ومهبط الوحي وأرومة العروبة ، وهي لذلك قدوة ومنهج لغيرها من الأمم ، ولذا ينبغي أن نحرص دائماً على تعزيز مكانة اللغة العربية والحرص عليها والعناية بقواعدها ومصطلحاتها والتقيد بنحوها وقواعدها كتابة، ونطقاً.. ولقد حفل تاريخنا وتراثنا الإسلامي بنماذج رائعة من اهتمام أسلافنا وغيرتهم على اللغة العربية فقد نهى عمر ابن الخطاب رضي الله عنه عن رطانة الأعاجم وقال: «تعلَّموا العربية فإنها من دينكم» .

ولقد قال الإمام ابن تيمية رحمه الله : إن نفس اللغة العربية من الدين ومعرفتها فرض واجب فإن فهم الكتاب والسنة فرض لا يفهم إلا بفهم اللغة العربية وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب.. وما أكثر الأقوال والآراء لأئمة البيان والعلم الذين يؤكدون على أهمية الاعتزاز باللغة العربية وعدم التساهل في أمرها.. ولذا فإن الواجب والغيرة على هذه اللغة تدفعنا باستمرار إلى التنبيه بين حين وآخر على معالجة ضعف طلابنا وشبابنا في اللغة العربية وأهمية الإصلاح والعلاج ولعل واجب معلمي اللغة العربية كبير في هذا المجال فهم قدوة لغوية بنطقهم دائماً بالفصحى وإصلاح أخطاء تلاميذهم والالتزام بالفصحى في تدريسهم وتقديم المادة والشرح والمناقشة بالفصحى وإشعار تلاميذهم بأهمية ذلك وإشعارهم وإحساسهم دائماً بالاعتزاز بها وأنها لغة حيوية ثرية واسعة قادرة على استيعاب كافة المصطلحات الحضارية.. وما أعظم قول القائل :

وسعت كتاب الله لفظاً وغاية ... وما ضقت عن أي به وعظات
سقى الله في بطن الجزيرة أعظماً ... يعز عليها أن تلين قناتي
حفظن ودادي في البلى وحفظته ... لهن بقلب دائم الحسرات

• حـــوار أدبـــي (*) •

– الأدب لسان الأمة الناطق. والأديب ثروة قومية ليس من السهل تبديدها وضياعها أو تجاهل ماقدمه من أعمال لها ذكريات وتاريخ .

فالأديب الحق هو من يقدم الأعمال الأدبية الرفيعة التي تحقق له الشأو البعيد في شتى المجالات الفكرية والأدبية.. وبلورة التفكير والدراسات الفكرية.

ولا شك أنه يتحقق بُعده ويزداد عطاؤه كلما واجه نتائج أمم وأفراد سبقوه في تلك الميادين.. فهو يطمح أن يرتفع إلى آفاق فسيحة أرحب وأسمى من سماء بيئته المحدودة ليستفيد من إبداعاتها ولا سيَّما في هذا العصر الذي ارتقت فيه أسباب الاتصال على نحو عجيب وشاع فيه التلفاز والمذياع والأقمار الصناعية.. وتقدمت الطباعة تقدماً عظيماً وراحت المطابع تُخرج الآلاف المؤلفة من الكتب والنشرات والمطبوعات بحيث يُحار المرء بين ما يأخذ وما يَدَع.. وهكذا يتأكد عطاؤه كلما استفاد من تجارب السابقين فيملأ النفس أملًا وعطاءً وصوراً واستقراءً وتفكيراً وتأثيراً .

• وفي هذه الأرض الطيبة المعطاءة ينساب جدول الأدب ويبشِّر خيراً بمستقبل الأدب والثقافة بهذه الديار ويُؤذن بتباشير فجر جديد مضمخ بالحب. حب العلم والفكر والثقافة والأدب الأصيل المشع بالروح الإسلامية والمثل الكريمة والقيم النبيلة.. حب ينسجم مع الأخلاق

(*) بعث رئيس تحرير مجلة المنهل بأسئلة أدبية إلى المؤلف فأجاب عليها حيث نشرت في عدد المنهل ٤٠٣٤ جمادى الآخرة ١٤٠٥ هـ .

ويعتز بالتراث ويرتفع عن الصغائر.. يتميز بالموضوعية ويستفيد من خصائص تجارب السابقين مما يعطيه حجمه الحقيقي ومكانه الصحيح بمنظوره الحديث.

وللأديب رسالة عظيمة وأهداف نبيلة.. وللأديب في هذه الرسالة دور وأهداف حية في بناء الحياة وتطوير المجتمع والانطلاق به إلى غد أفضل.. ومستقبل كريم يستهدف الحق والخير والجمال .

• فالأديب فنان صادق يمس بكلمته شغاف القلوب وخبايا الصدور وأعماق الأفئدة فهو كالمصباح المضيء ينير الدروب ويجب ألا ينطفيء في زحام الحياة – فهو أي الأديب يخصب الحياة الأدبية.. ويغذي العقول.. ويثري الأفكار والألباب.. ويمتِّع النفوس.. ولذا فهو قادر على نشر رسالته وامتدادها وسموقها لتظل شامخة بحكم عوامل عدة **من وسائلها النشر والتأليف والطباعة التي أصبحت تمطرنا كل صباح بوابل غزير من الكتب والمؤلفات والقصص والروايات والدواوين الشعرية والآثار الأدبية المتنوعة في مختلف فنون المعرفة الفكرية والميادين الأدبية .**

• **وما من سبيل لقياس الآثار الأدبية من نثر وشعر خير من انتشارها.. ولا ينتشر سوى الفكر العميق والأدب الناضج والكاتب المبدع والمحتوى الجيد الذي يعالج قضايا الفكر والحياة والبيئة والمجتمع.. فالأديب يستمد أدبه من واقع الحياة وتجربته فيها. ومما يزيد في إثراء الأدب المكتبة السعودية التي أصبحت تعطي نتاجاً كريماً وتسهم إسهاماً فعالًا في تنشيط الحركة الأدبية في شتى الفنون الأدبية والآثار الفكرية ولقد آن الأوان وبلادنا اليوم تنطلق الانطلاقة الرائعة في مختلف المجالات أن ينطلق إنتاجنا الأدبي إلى مختلف الآفاق والأبعاد بعزم لا يعرف الكلل والتعريف بالوجه الحضاري والأدبي لبلادنا.**

إن الأدب القوي والأديب المبدع والمفكر الموهوب والفنان الصادق قادر على فرض وجوده في الساحة الأدبية لأنه يأتي بأفكار وموضوعات حيوية جديدة فيقيم المجتمع لأفكاره وزناً.. ولآرائه قيمة لأنه يفكر بعمق وصدق ووضوح.. ويحمل راية الإبداع الأدبي .

إن أدبنا اليوم أخذ دوره واحتل مكانة مرموقة بين أدب المجاورين والمهاجرين ووصل إلى أيديهم وبلغ معاقلهم.. كما تأثرنا بأدبهم وخاصة الأدباء العمالقة «من الرعيل الأول» في مصر وسوريا ولبنان والمهجر .

- **ومما يدل على انتشار أدبنا أننا نقرأ مايكتب عن أدبنا وخصائصه ومميزاته ونكهته وإن كانت الآداب والعلوم والفنون لاوطن لها ولا جنسية كما يقول النقاد .**

إن أدبنا جدير بأن يكون له قيمة ثقافية ومكانة فكرية وأن يكون له قراء فهو يصور واقعاً من حياتنا وأفكارنا ونهضتنا وتطورنا..

- **إن أدبنا يمثل الفكر السليم والنهج القويم شكلًا ومضموناً بعيداً عن الأفكار المتطرفة والاتجاهات المريضة وتحاشي الاسفاف والمهاترات.. ويتزايد اليوم اهتمام دولتنا عاماً بعد عام بالنهضة الأدبية في كافة مجالاتها..**

مما لا شك فيه أن المطبوعات الموجودة على الساحة تجعلنا نحتاج إلى مطبوعات جديدة في الأدب والنقد والترجمة عن الآداب واللغات الأخرى للوقوف على التيارات الأدبية والفكرية المعاصرة خاصة وأن وسائل المعرفة الحديثة قد تخطت الحدود حيث ارتقت أسباب الاتصال على نحو عجيب وتقدمت الطباعة تقدماً عظيماً. ولذلك فنحن في أمس الحاجة إلى مطبوعات نافعة مفيدة تجعل الأديب يقف على تجارب

ومعطيات الأمم الأخرى في كل فنون الإبداع الفكري والأدبي والثقافي شعراً ونثراً ورواية وقصة وما شابه ذلك بحيث تأخذ هذه المطبوعات أشكالًا متنوعة.. **فحبذا لو أصبح هناك مطبوعة تهتم بالنقد ومدارسه.. وأخرى بالقصة والمسرحية والرواية والشعر وتياراته وأعلامه.. ومطبوعة تنقل إبداعاتنا الفكرية إلى اللغات الأخرى العالمية ليقف العالم الآخر على ما تتفتق عنه قريحة المبدعين من أدبائنا وشعرائنا ومما لاريب فيه أن الاحتكاك بالآداب الأخرى سيصقل المواهب الواعدة ويتيح لها فرص التعرف على تجارب أقرانهم..**

• ومتى تحقق ذلك سيكون زخماً جديداً لفكرنا وَلبَث ذلك في الشباب روح التصور ودقة التحسس وبصيرة المحاكاة وديمومة الاستظهار وصولا للخلق والإبداع والابتكار الذاتي .

• إن أدبنا كغيره من الآداب شهد نهضة في شتى الميادين وانطلق في الآفاق الفكرية شكلًا ومضموناً سواء في مجال الشعر أو القصة أو المقالة ونحو ذلك مما أبدعه أدباؤنا وسايروا فيه التيارات الفكرية الحديثة التي هي شأن وسمة هذا العصر .

• إنني واحد من أدباء هذه البلاد ممن أسهموا بجهودهم الأدبية المتواضعة في ذلك مع الالتزام بصدق العاطفة ووحي القلب ونُبل الضمير وصفاء الوطنية.. والحب لهذا الوطن الكريم والحنو عليه وإن كنت أشعر بالتقصير ويشاركني في ذلك الكثير من الزملاء.. وإن ما نرجوه أن يوفق الله الجميع لإظهار أدبنا وإبرازه في الإطار اللائق به وتجسيد ثقافتنا وفكرنا بالمظهر المشرف خاصة وأننا أمة يقترن تاريخها بالأمجاد .

وكل هذا جدير بأن يكون حافزاً لنا على العناية بأدبنا وبعث ما انطوى من صفحاته وتاريخه وتالده وآثاره .

وكم يساورني الشعور بالفرح وتخامرني اختلاجة السرور كلما رأيت كتاباً أو بحثاً يعنى بالتعريف ببلادنا وآثارها وآدابها.. **إنَّ لهذه البلاد ماضياً أدبياً عريقاً فهي منارة الأدب وقلعة المعرفة.. ومهد الفصاحة والبلاغة ومنطلق الشعر ومأرز الفكر والأدب والبيان.. ومهوى أفئدة العرب والمسلمين.. وملتقى الشعر والشعراء على امتداد التاريخ. ولعل التاريخ يعيد نفسه فقد بدأت بشائر نهضة أدبية وطلائع وثبة فكرية تتدافع نحو الأمام وترسم السبل لتوصل اللاحق بالسابق .**

وبعد : ففي بلادنا اليوم بحمد الله حركة أدبية واعية بفضل الوعي والمعرفة.. واتساع آفاق الثقافة والفكر حيث نمت حركة التعليم الجامعي وتعددت منشآت الثقافة ومؤسسات الفكر وذلك يمثل ذخيرة حية مزدهرة تمد القارئ بروافد المعرفة والثقافة المستندة إلى أساس من العقيدة الصافية والقيم الروحية الخالدة.

إن مسؤليتنا مضاعفة في العمل على رقي الأدب وازدهاره وتطوره ليبلغ أوجه وغايته ومجده الغابر.. وليأخذ مكانه اللائق به بين مواكب الآداب العالمية الأخرى .

إن أدبنا هو مرآتنا فلننطلق به انطلاقة جادة متوثبة لتحقيق أهدافه وأغراضه وتحقيق ما نصبوا إليه من آمال وما يراودنا من أمنيات لنسهم في بناء صرح النهضة الأدبية في بلادنا الفتية الناهضة .

* * *

• في ميـدان الرحـلات •

يحرص كثير من الناس على الاهتمام بأدب الرحلات.. حيث أن الرحالة دائماً ينقل للقارئ صوراً وقصصاً وطرائف ومشاهدات لكل ما شاهد وسمع ورأى وما أكثر ما حفل به التراث العربي الإسلامي من أخبار الرحلات والرحالة كرحلة ابن فضلان إلى اسكندنافيا والتي اعتبرت أقدم تسجيل كتبه شاهد عيان عن حياة ومجتمع «الفايكنج» فهو وثيقة فريدة تصف بدقة أحداثاً وقعت منذ أكثر من ألف سنة.. ولقد وصفت تلك الرسالة الرحلة بأنها المصدر الوحيد لتاريخ روسيا وبلغاريا وتركيا في تلك الفترة من القرن العاشر الميلادي.. كذلك رحلة الإمام الشافعي من مكة إلى المدينة ورحلة أبي دلف ورحلة ابن جبير ورحلة العبدري ورحلة ابن بطوطة ورحلة ابن خلدون ورحلة العياشي وغيرهم كثير ممن يضيق المجال عن استعراضه.. فكم فيها من الصور والمشاهدات والتي أصبحت تاريخاً ومعرفة وفائدة للباحثين والدارسين بل وثائق تمثل نشاط أسلافنا وطموحاتهم وارتيادهم للمجهول ومعرفة العالم وطلب العلم والمعرفة ورواية الأخبار والأحاديث من أفواه الرجال وكم تفيض كتب التاريخ والحديث بالروايات والأخبار والقصص عن المحدثين الذين قاموا برحلات بصدد جمع الأحاديث وتدوينها كذلك كان الرحالة يذهبون ويرتحلون من أجل التجارة والالتقاء بالعلماء والأدباء والمؤرخين والأطباء ووصف طريق الحج والمشاعر المقدسة والحرمين وما بهما من آثار ومعالم وعلماء ومخطوطات وأماكن ومساجد ومكتبات وما أعظم ما كتبه الرحالة ابن بطوطة في كتابه «تحفة الأنظار في غرائب الأمصار وعجائب الأشعار»..

ولقد حفل التراث العربي بالأقوال والأشعار والحكم والأمثال حول

السفر والرحلات وأن أدب الرحلات حينما يتصدى له العلماء والمفكرون فإنه يظل مخصباً ومفيداً وذا عطاء علمي غزير بحيث يبرز فيه الجانب التصويري والسياق الأدبي والتحقيق التاريخي والبحث الاجتماعي مع تطعيمه بمأثور الشعر والحكم مما تقتضيه المناسبة..

ولقد أوصى حكيم عربي صديقاً له أراد سفراً فقال :

«إنك تدخل بلداً لاتعرفه ولا يعرفك أهله فتمسك بوصيتي تكتب لك السلامة، عليك بحسن الشمائل فإنها تدل على الحرية ونقاء الأطراف فإنه يشهد بكرم المنبت والمحتد ونظافة البزه فإنها تنبيء عن النشأة في النعمة وطيب الرائحة.. فإنها تظهر المروءة.. والأدب الجميل فإنه يكسب المحبة وليكن عقلك دون دينك وقولك دون فعلك ولباسك دون قدرك والزم الحياء والألفة فإنك إن استحييت من الفضاضة اجتنبت الخساسة وإن أنفت من الغلبة لم يتقدمك نظير في مرتبه. ويروى لأحد الشعراء قوله :

يزين الغريب إذا ما اغترب ثلاث فمنهن حسن الأدب
وثانية حسن أخلاقه وثالثة في اجتناب الريب

ويروى عن الإمام الشافعي قوله :

تغرَّب عن الأوطان في طلب العلا وسافر ففي الأسفار خمس فوائد
تفرج هم واكتساب معيشة وعلم وآداب وصحبة ماجد
فإن قيل في الأسفار ذل وغربة وقطع فياف وارتكاب الشدائد
فموت الفتى خير له من حياته بدار هوان بين واش وحاسد

ويقول شاعر آخر في معارضة الأسفار وما يصحبها من المتاعب والأهوال :

تخلف عن الأسفار إن كنت طالبا نجاة ففي الأسفار سبع عوائق
تفكر إخوان وفقد أحبة وتشتيت أموال وخيفة سارق
وكثرة إيحاش وقلة مؤنس واعظمها يا صاح سكنى الفنادق
فإن قيل في الأسفار كسب معيشة وعلم وآداب وصحبة فائق
فقل كان ذا دهرا تقادم عهده وأعقبه دهر كثير العوائق

ولقد أوصت إعرابية ابنها في سفر فقالت : يابني انك تجاور الغرباء وترحل عن الأصدقاء ولعلك لا تلقى غير الأعداء.. فخالط الناس بجميل البشر واتق الله في العلانية والسر.. ويقول أحد الشعراء في الأسفار :

سفر الفتى لممالك وديار وتجول في سائر الأمصار
علم ومعرفة وفهم واسع وتجارب ورواية الأخبار

ويقول المقدسي في كتابه «أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم» : «ما تم لي جمع (هذا) الكتاب إلا بعد جولاتي في البلدان ودخولي أقاليم الإسلام ولقائي العلماء وخدمتي الملوك ومجالستي الثقاة ودرسي على الفقهاء واختلافي إلى الأدباء والقراء وكتبة الحديث ومخالطة الزهاد وحضور مجالس القصاص والمذكرين، مع لزوم التجارة في كل بلد، والمعاشرة مع كل أحد، والتفطن في هذه الأسباب بفهم قوي حتى عرفتها ومساحة الأقاليم بالفراسخ حتى أتقنتها، ودوراني على التخوم حتى حررتها، وتنقلي على الأجناد حتى عرفتها، وتفتيشي عن المذاهب حتى علمتها، وتفطني في الألسن والألوان حتى رتبتها، وتدبري في الكور (يقصد المحافظات والولايات) حتى فصلتها، وبحثي عن الأخرجة (يقصد الضرائب) حتى أحصيتها، مع ذوق الهوان، ووزن الماء، وشدة العناء»..

ولقد أمد الكثير من الرحالة الثقافة العربية بثروة فكرية وتاريخية وجغرافية وجمعوا قدراً كبيراً من المعلومات وكتبوا الرحلات التي قاموا بها –والرحلات كما يقال شيء ثابت لا يأكله الدهر وتظل لها طابعها.. فرحلة ابن جبير وابن بطوطة زادها الدهر خلوداً ورونقاً وإعجاباً وترجمت إلى لغات شتى لأن النفس البشرية بطبيعتها تواقة إلى المعرفة واستطلاع ما كان عليه العالم قديماً وكيف كانت حياته وتقاليده.. فالرحلات من أهم مصادر دراسة التاريخ وتتحول إلى وثائق علمية وذكريات لها خصائصها وسماتها.. ولقد قيل « إن من يسافر كثيراً يتعلم ويعرف كثيراً » .

والمهم أن يستفيد الرحالة من رحلته بحيث يكتسب الخبرة والمعرفة وأن يهدف أيضاً إلى الأسوة والقدوة الحسنة والعبرة مما يشاهد ويرى وأن يترك الأثر الحسن في تعامله وسلوكه وأخلاقه.. ولا سيما في هذا العصر الذي تعج به الحياة من المغريات وما يفيض به سطحها من سلوكيات..

ونختتم القول بقول أبي تمام :

وطول مقام المرء في الحي مخلق لديباجتيه فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبة إلى الناس إن ليست عليهم بسرمد

ولقد قال الرحالة ابن جبير الذي تعب كثيراً من رحلاته :

فألقت عصاها واستقر بها النوى كما قر عينا بالإياب المسافر

رحم الله أسلافنا من الرحالة الذين كانوا ينشرون العلم والدين والمعارف والآداب والفضائل خلال رحلاتهم وما زالت آثارهم باقية خالدة في تاريخ الحضارة الإسلامية وكم نحن في حاجة في هذا الزمان إلى إعادة قراءة كنوز تراثنا والتأمل والنظر فيه والإفادة منه حقق الله الآمال .

في النقــد الأدبي

يحفل تاريخ الأدب العربي في شعره ونثره بروائع الآداب في مراحله التاريخية الطويلة وتطوراته الفكرية وجوانبه المتعددة خلال العصور . وتتنوع الدراسات في هذا المجال التي تبحث عن منظور متكامل لكل أبعاد وخصائص الحياة الأدبية وما لها من ركائز فكرية ومحور الموضوع عن النقد والذي هو التمييز بين الجيد والرديء نتيجة معرفة وخبرة وحكم سديد ودراسة الأشياء وتمييزها وتحليلها وموازنتها بغيرها والنقد الأدبي يختص بالأدب وحده شعره ونثره الذي يصور العقل والشعور وركنا النقد كما يقال الناقد والمنقود .

فالنقد في أدق معانيه هو «فن دراسة النصوص والتمييز بين الأساليب المختلفة» وهو روح كل دراسة أدبية إذا صح أن الأدب هو «كل المؤلفات التي تكتب لكافة المثقفين لتثير لديهم بفضل خصائص صياغتها صوراً خيالية أو انفعالات شعورية أو إحساسات فنية[1]» والنقد هو الذي يظهر تلك الخصائص ويحللها . ويسلكها في سمط ولا بد للناقد أن يكون حسن الفهم ثاقب النظر يعين القارىء على الفهم والاستيعاب والإدراك والتقدير .

ويأتي التاريخ الأدبي «فيجمع تلك المؤلّفات تبعاً لما بينها من وشائج في الموضوع والصياغة وبفضل تسلسل تلك الصياغات يضع تاريخ الفنون

---

(١) ج. لانسون : منهج البحث في تاريخ الآداب، ص ٢١ (في كتاب: منهج البحث في الأدب واللغة، ترجمة د. محمد مندور، من منشورات دار العلم للملايين ببيروت سنة ١٩٤٦م) .

الأدبية، وبتسلسل الأفكار والاحساسات يضع تاريخ التيارات العقلية والأخلاقية، وبالمشاركة في بعض الألوان وبعض المناحي الفنية المتشابهة في الكتب التي هي من نوع أدبي واحد ومن تأليف نفوس مختلفة يضع تاريخ عصور الذوق[1]». وللناقد الفرنسي أناتول فرانس قول في النقد فهو يرى أن الناقد إنسان يطوف رياض الأدب والفن ويسهل بذلك على الناس ارتيادها فيهيء لهم مجلساً لكي يستمتعوا بجمالها .

وعلى هذا يدرس النقد رثاء المهلهل لأخيه كليب والخنساء لأخيها صخر وابن الرومي لابنه والمتنبي لأخت سيف الدولة، كلا منهم منفرداً، ثم يأتي تاريخ الأدب فيؤرخ للمرائي عند العرب فيكون عمله تأريخاً لفن أدبي. ويدرس غزل جميل وكثير أو غزل العرجي وعمر بن أبي لأبيعة، ويأتي التاريخ الأدبي فيؤرخ للنسيب العذري أو لغزل اللذة الحسية ويكون عمله تأريخاً لتيار فني أخلاقي – وأخيراً يدرس النقد شعر مسلم بن الوليد وشعر أبي تمام أو شعر الحطيئة وشعر زهير ثم يأتي التاريخ الأدبي فيؤرخ لتذوق الصناعة في الشعر أو تذوق الخيال الحسي ويكون عمله تأريخاً لعصر من عصور الذوق المختلفة. وفهم الخصائص والمزايا الفنية والأدبية .

والتاريخ يأخذ نفس الحقيقة – فالنقد الأدبي سابق عند العرب للتاريخ الأدبي، وذلك لما هو واضح في تاريخ كل الأمم القديمة من أن الدراسات التاريخية المنظمة لم تنشأ إلا بعد أن اجتمع لدى كل أمة تراث شعرت بالحاجة إلى مراجعته، وهذا لم يحدث في الأدب إلا بعد أن تراخى الزمن بعهد الإنتاج الحقيقي، فعندئذ تكون العقول قد اتسع إدراكها وتمت لديها

---

(٢) ج. لانسون : منهج البحث في تاريخ الآداب (كتاب : منهج البحث في الأدب واللغة ، ص ٣٩ – ٤٠) .

قوة التفكير النظري الذي يستطيع أن يصل إلى الكليات. وهذه العهود من الملاحظ أنها كانت في الغالب عهود انحلال في الأدب وفقر في أصالته. وهذا واضح في تاريخ اليونان حيث لم تبدأ دراسات التاريخ الأدبي إلا في عصر الاسكندرية، وعهد اللاتين حيث لا نرى تلك الدراسات إلا ابتداء من عصر الامبراطورية بعد انقضاء حكم أغسطس، وكذلك عند العرب فهي لم تظهر إلا في العصر العباسي حيث غلبت الصنعة على الطبع والتقليد على الأصالة وهذا صحيح عند الشعوب القديمة، أما الشعوب الحديثة فأمرها أمر آخر لتمشي كل ملكات البشر فيها جنباً إلى جنب خلقاً ونقداً وتاريخاً .

ولكن إذا صح ذلك على التاريخ الأدبي فهل يصح أيضاً عن النقد الأدبي؟ ذلك مالا يراه نظر ولا يؤيده تاريخ، فما دمنا قد عرّفنا الأدب بأنه كل مايثير فينا بفضل خصائص صياغته أنواعاً خاصة من الانفعال، فمن الضروري أن تكون هناك استجابات وأن يصدر عنها النقد، والذي لاشك فيه أن استجابات العرب لم تكن فاترة، وفي أخلاقهم عنف البداوة، كما أن في شعرهم مايحرّك ضروباً من الانفعال الشخصي والقبلي، وهذا ما كان. فلقد وجد النقد الأدبي عند العرب ملازماً للشعر، ليس من شك في أننا لا نستطيع أن ندرك طعم شراب أو طعم مالم نتذوقه بأنفسنا ولا يمكن أن يغنينا عن هذا التذوق الشخصي أي تحليل كيماوي أو تقرير خبراء، وكذلك الأمر في كافة الفنون فأي وصف للوحة زيتية أو تمثال من الرخام لايمكن أن يغني عن الرؤيا المباشرة، وكذلك الأمر في الأدب، فذوقنا الخاص هو أساس كل فهم له، بحيث يبدو النقد الذوقي أمراً مشروعاً، فهو بعد حقيقة واقعة حتى عند العلماء من النقاد المحدثين .

فالتأثيرية قائمة في أساس كل نقد حتى لنرى ناقداً عالماً كلنسون

يقول: «إذا كانت أولى قواعد المنهج العلمي إخضاع نفوسنا لموضوع دراستنا لكي ننظم وسائل المعرفة وفقاً لطبيعة الشيء الذي نريد معرفته، فإننا نكون أكثر تمشياً مع الروح العلمية بإقرارنا بوجود التأثيرية في دراستنا وتنظيم الدور الذي نلعبه فيها، وذلك لأنه لما كان إنكار الحقيقة الواقعة لا يمحوها، فإن هذا العنصر الشخصي الذي نحاول تنحيته سيتسلل بخبث إلى أعمالنا ويعمل غير خاضع للقاعدة، وما دامت التأثيرية هي المنهج الوحيد الذي يمكننا من الإحساس بقوة المؤلفات وجمالها، فلنستخدمه في ذلك صراحة، ولكن لنقصره على ذلك في عزم، ولنعرف مع احتفاظنا به كيف نميّزه ونقدّره ونراجعه ونحدده – وهذه هي الشروط الأربعة لاستخدامه. ومرجع الكل هو عدم الخلط بين المعرفة والإحساس، واصطناع الحذر حتى يصبح الإحساس وسيلة مشروعة للمعرفة»[1] .

وإذاً فالنقد الذوقي نقد مشروع وحقيقة واقعة .

ولكننا نتساءل عن توفر الشروط اللازمة في الذوق ليصبح أداة صالحة للنقد ثم نبحث هل توفّرت تلك الشروط لدى العرب عندئذ أم لا ؟.

الواقع أنه قد وجد عند الجاهليين والأمويين نقد ذوقي يقوم على كافة الألسن كقولهم : «أشعر الناس أمرؤ القيس إذا ركب وزهير إذا رغب والنابغة إذا رهب والأعشى إذا طرب» وأمثال ذلك مما نعرفه .

ولكن هذا النقد الذوقي يعيبه أمران :

١ – عدم وجود منهج : وهذا أمر طبيعي في حالة البداوة التي كانت تسيطر على العرب فالرجل الفطري يستطيع بإحساسه أن يخلق أجمل الشعر، يصوغه من مشاعره ومعطيات حواسه وهو لذلك ليس

---

(١) ج. لانسون : منهج البحث في تاريخ الآداب (كتاب: منهج البحث في الأدب واللغة، ص ١٩) .

في حاجة إلى عقل مكون ناضج يرى جوانب الأشياء كلها ولا يحكم إلا عن استقصاء: ومن الثابت أن الشعر لا يحتاج إلى معرفة كبيرة بالحياة ونظر فيها، بل ربما كان الجهل به أكثر مواتاة له، وكثيراً ما يكون أجوده أشده سذاجة .

والنقد الموضوعي لا يكون إلا لرجل نما تفكيره فاستطاع أن يخضع ذوقه لنظر العقل، وهذا مالم يكن عند قدماء العرب وما لا يمكن أن يكون: ومن ثمّ جاء نقدهم جزئياً مسرفاً في التعميم: يحس أحدهم بجمال بيت من الشعر وتنفعل به نفسه فلا يرى غيره، ولا يذكر سواه كدأبه في كل أمور حياته، إذ تجتمع نفسه في الحاضر الماثل أمامه. وفي هذا ما يفسر مانجده في كتب الأدب من أحكام مسرفة كقولهم: «هذا أجود ما قالت العرب» و «هذا الرجل أشعر العرب» وما إلى ذلك .

٢ - **عدم التعليل المفصل** : وهذا أيضاً شرط لم يكن من الممكن أن يتوفر لعرب البداوة: فالتعليل أمر عقلي لا يستطيعه إلا تفكير مكون: وكل تعليل لا بد من استناده إلى مباديء عامة والعرب لم يكونوا قد وضعوا شيئاً من مباديء العلوم اللغوية المختلفة التي لم تدوّن إلا في العصر العباسي. ومن الواضح أن الاتجاه إلى التعليل خليق بذاته أن يسوق - حتى في النقد الذوقي - إلى التمييز والتقدير والمراجعة والتحديد، ليصبح إحساسنا أداة مشروعة للمعرفة.. وإذا فقد ظل النقد في هذه المرحلة إحساساً خالصاً ولم يستطع أن يصبح معرفة تصح لدى الغير بفضل ماتستند إليه من تعليل .

وهذان العيبان واضحان في كثير من الأحكام التقليدية المروية في كتب الأدب، فهي لا تستند إلى تحليل للنصوص أو إلى نظر شامل فيما قال هذا الشاعر أو ذاك. وما زال الموضوع يحتاج إلى مزيد من البسط والإيضاح ودراسة أكثر شمولًا واستيعاباً .

في مسيرة العلم والأدب

لقد حثّ الإسلام على العلم والمعرفة وجعل شريعة الإسلام تقوم على العلم في كل ماتدعو إليه وعني أعظم عناية بالعلم والبحث في كل ميدان من ميادينه وفي كل مجال من مجالات الحياة لأن العلم قوام الحياة وأساس الرفعة وركيزة النهضة وعماد التقدم وينبوع الحضارة. والإسلام قائم على العلم وداع إليه في كل أمر من الأمور. وبمناسبة ذكرى اليوم الوطني نستعرض بعض الجوانب المضيئة والمشرّفة لعناية الملك عبدالعزيز واهتمامه بالعلم ورعايته للعلماء .

ولقد كان يهتم بالكتاب ويحرص عليه فجهوده المباركة في نشر العلم والمعرفة واضحة وملموسة وان مكتبته الحافلة تدل على اهتمامه بالعلم وحرصه على نشر المعرفة بما لها من أثر إيجابي فهي الأساس والمنطلق الحقيقي لأية نهضة .

وأن الجانب الثقافي في حياة الملك عبدالعزيز لعظيم جداً.. فقد حرص على تنقية العقيدة الإسلامية من الخرافات والبدع كما اتخذ خطوات عديدة نحو نشر العلم وطباعة أمهات الكتب الإسلامية ونشرها مجاناً في جميع أنحاء المملكة وتوزيعها في العالم الإسلامي على حسابه الخاص وكان يكتب التوجيهات والنصائح الدينية التي تحث على العقيدة السلفية الصحيحة .

ولقد طبعت في الفترة الأولى من حكمه عدة كتب لابن تيمية ولابن القيم وأحمد بن حنبل ومحمد بن عبدالوهاب وغيرهم من علماء الإسلام كما استضاف العديد من علماء الإسلام الذين يدينون بالعقيدة السلفية الصافية كما شجع الأدب والتراث وكان يحفظ الكثير من الأشعار ويتمثل بها وكان مجلسه العام والخاص لايبدأه إلا بعد درس في القرآن والحديث

والسيرة النبوية، كما أنشأ جريدة أم القرى والتي كانت تنشر الفكر السليم والثقافة والأخبار والتراث الجليل وغير ذلك من الأسس الفكرية والبذور الثقافية والمقومات العلمية التي كانت النواة للمستوى الثقافي والعلمي الذي نعيش فيه.. حيث وضع لبنات هذا الكيان.. ولذا فقد أقام دولته على أسس راسخة من العلم والإيمان ولقد كان من أهم أسباب نجاح جلالته –رحمه الله– هو تمسكه بكتاب الله وسنة رسوله عليه الصلاة والسلام فاتخذ من كتاب الله دستوراً يعمل بموجبه وطبّق أحكام الشريعة الإسلامية السمحة.. فنشر الأمن والطمأنينة في أنحاء المملكة.. وأصبح العدل شريعة تطبق في كل شبر من أراضيها..

فضل العلم والأدب

ولم ينس فضل العلم والأدب. بل كان حريصاً على أن يتزوّد بذلك كل فرد من أبناء شعبه.. فأنشأ كثيراً من المدارس الحديثة بمراحلها المختلفة في معظم بلدان المملكة وأرسل البعثات إلى الخارج واستقدم المعلمين من الدول العربية الشقيقة.. ثم أخذ في طبع الكثير من الكتب العلمية والثقافية.. ووجه عناية خاصة إلى كتب العلوم الإسلامية المخطوطة.. فأمر بطبع طائفة منها وتوزيعها مجاناً.. كما طبعت على نفقته كتب كثيرة في الهند ومصر ولم يذكر عليها اسمه.. إلا ما جاء على بعض مطبوعاته في الهند من أنها طبعت على نفقة من قصده الثواب من رب الأرباب كما أمر بشراء مجموعات من كتب التفسير والحديث والتاريخ والآداب، القديمة والحديثة.. لتوزيعها مجاناً..

ولقد كان من شدة اهتمام جلالته بالعلم والأدب، أن كان له مجلس يومي يبدأ بعد صلاة العشاء وينتهي بانقضاء سهرة الملك.. يفتتح هذا

المجلس بالدرس الذي تتلى فيه أنواع مختلفة من الكتب في التفسير والتاريخ والأدب.. وكانت العادة أن يبدأ بتفسير القرآن، ويثنى بالتاريخ.. ويتناول الحاضرون من أهل المعرفة وسواهم من الجالسين، ما يثار من تساؤلات ومناقشات بتعليقاتهم .

وكان هذا المجلس يزدان بالمقرئين والعلماء من أمثال الشيخ حمد بن فارس والشيخ عبدالله بن أحمد العجيري، حيث كان يتلو عليه الآيات القرآنية والأحاديث النبوية وكان راوية يحفظ مسند الإمام أحمد عن ظهر قلب وأخبار العرب وأقوال الشعراء والحكماء والأدباء .

وكان لجلالته عناية باختيار القراء ولا بد أن يكون من حفاظ القرآن الكريم والعارفين باللغة العربية ومن ذوي الأصوات الحسنة والاطلاع الجيد، وكان -رحمه الله- يستقبل العلماء ويجتمع بهم في كل يوم خميس من كل أسبوع في جلسة عامة مفتوحة في قصره .

وفي موسم الحج كان يلتقي بكبار العلماء والزعماء للعالمين العربي والإسلامي، ويناقش معهم القضايا الإسلامية ومسائل العقيدة الإسلامية كما بعث الدعاة والمرشدين إلى العالم الإسلامي .

وكان سخياً في الإنفاق على إحياء كتب التراث الإسلامي.. ويذكر خير الدين الزركلي أن الملك عبدالعزيز قد وجه عناية خاصة إلى كتب العلوم الإسلامية المخطوطة.. فأمر بطبع طائفة منها وتوزيعها مجاناً .

ولقد كانت مكتبة جلالته الخاصة خير شاهد على ماذكرناه كما أنها تعكس لنا مدى اهتمام جلالته بعلوم الدين الإسلامي ودعوته المستمرة للتمسك بمبادئه والعمل بأحكامه، وتحتوي هذه المكتبة على ١٥٥١ مجلداً في شتى فروع المعرفة الإنسانية تحتل كتب الدين الإسلامي بعلومه المختلفة من التفسيرات والحديث والفقه والتوحيد والسيرة النبوية ٣٥٪ منها أي

مايزيد عن ثلث المكتبة، كما بلغت نسبة الكتب التاريخية والجغرافية وكتب التراجم أكثر من ٢٥٪ معظمها عن التاريخ الإسلامي والعربي في عصوره المختلفة بالإضافة إلى تاريخ الدول الأوربية والآسيوية والافريقية .

أما اللغة العربية وآدابها فقد لقيت مكاناً رحباً في مكتبة جلالته . إذ بلغت نسبتها مايقرب ٢٠٪ فيها دواوين الشعر الجاهلي والشعر الإسلامي والشعر الحديث بالإضافة إلى المعاجم اللغوية وقواميس المصطلحات وكتب النحو وتنوعت النسبة الباقية من المكتبة بين كتب السياسة والقانون الدولي، والعلوم العسكرية والطب والاقتصاد، والزراعة، بالإضافة إلى الكتب العامة والموسوعات العربية مثل : صبح الأعشى للقلقشندي، ودائرة معارف القرن العشرين لمحمد فريد وجدي، ودائرة معارف بطرس البستاني وغيرها .

وتضم المكتبة في داخل الموضوعات العديد من أمهات الكتب، من بينها ماقد مضى على طباعته مايزيد على مائة عام، مما يضعها في عداد الكتب النادرة .

كما تحتوي على بعض المخطوطات منها (نهاية الراغب في شرح عروض ابن الحاجب المسماة المقصد الجليل في علم الخليل) .

ولقد لقيت مكتبة الملك عبدالعزيز –رحمه الله– اهتماماً بالغاً، كان لجامعة الملك سعود شرف استلامها، فاهتمت بتجليد مجموعاتها للحفاظ عليها، وجندت لها الخبراء، والفنيين الذين تولوا فهرستها وتصنيفها وإعداد فهرس المؤلف والعنوان، وعندما أنشئت دارة الملك عبدالعزيز بالمرسوم الملكي الكريم رقم م/٤٥ وتاريخ ١٣٩٢/٨/٥ هـ . نصت الفقرة (د) من المادة الثالثة من نظامها على إنشاء قاعة تذكارية تضم كل مايصور حياة الملك عبدالعزيز وآثار الدولة السعودية منذ نشأتها .

فكان أن انتقلت المكتبة إلى الدارة في شوال ١٣٩٢ هـ ووضعت في مكان خاص، هيئ لهذا الغرض داخل القاعة التذكارية، يتصدره مكتب جلالته الذي أهداه إليه الرئيس الأمريكي ترومان في عام ١٣٧٠ هـ ١٩٥٠م، وهو مصنوع من خشب الأرو الممتاز .

ولقدنشرت قائمة ببليوجرافية لمحتويات هذه المكتبة في العددين الأول والثاني من السنة الأولى لمجلة (الدارة) حتى تتبين للقارئ والباحث أهمية هذه المكتبة من استعراض محتوياتها فهي تشتمل على الآتي :

الموسوعة العربية، الدوريات العربية العامة، المؤلفات المجموعة، الدراسات النفسية، المنطق والأخلاق، الدين الإسلامي، القرآن وعلومه، التفسير، الحديث وعلومه، أصول الدين، الفقه وأصوله، فقه المذاهب الإسلامية، الأخلاق الإسلامية، السيرة النبوية، العلوم العسكرية، الإدارة العامة، الاقتصاد، اللغة العربية وآدابها، الطب، الأدب، الشعر، التاريخ، آداب اللغات الأخرى، الجغرافيا، التراجم، الفلاسفة، الملوك والرؤساء والقادة، اللغويون، رجال الآداب، الأنساب، التاريخ القديم، وغير ذلك من العلوم والمعارف والآداب من أمهات الكتب ونوادرها .

وبعد فهذا قليل من كثير ولمحة سريعة من تاريخ حافل مجيد .

الكتاب وعاء المعرفة

يحفل الأدب العربي بالاهتمام بالكتاب والتغني به والولع به والرغبة فيه إذ هو يجمع خلاصة المعرفة وغايتها وكان أسلافنا يحرصون على مسامرة الكتاب وتاريخ العرب والمسلمين يحفل بالمزيد من العناية والاهتمام بصحبة الكتاب ويروى أن أحد الخلفاء طلب أحد الأدباء ليسامره فلما جاءه الحاجب وجده جالساً وحواليه كتب يقرأ فيها فقال له: ان أمير المؤمنين يستدعيك فأجابه: قل له: عندي قوم من الحكماء أحادثهم فإذا فرغت منهم حضرت، فلما عاد الحاجب إلى الخليفة وأخبره بذلك قال له ويحك من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عنده؟ قال: والله ياأمير المؤمنين ما كان عنده أحد، قال: فأحضره الساعة كيف كان فلما أحضر العالم قال له الخليفة: من هؤلاء الحكماء الذين كانوا عندك؟ قال ياأمير المؤمنين :

هم جلساء ما تمل حديثهـــم أمينون مأمونون غيبا ومشهـدا
إذا ما خلونا كان خير حديثهم معيناً على نفي الهمـوم مؤيـدا
يفيدوننا من علمهم علم ما مضى وعقـلا وتأديباً ورأياً وسؤددا
فلا ريبة تخشى ولا سوء عشرة ولا نتقي منهم لسانا ولا يدا
فإن قلت أموات فلست بكاذب وإن قلت أحياء فلست مفندا

فعلم الخليفة أنه يعني الحكماء الذين كان يجتمع بهم عن كثب العلماء والحكماء فلم ينكر عليه تأخره..

وهكذا يتجلى اهتمام أسلافنا من العلماء والأدباء بالروح العلمية والتنافس حباً لذلك. ومن ذلك يتبين ما أحرزوه من تقدم علمي في شتى فنون المعرفة والثقافة.

ويلعب الكتاب دوراً فعالاً في تنمية المعرفة والثقافة.. ولقد قيل أن الأمة الواعية هي الأمة القارئة.. فالكتاب هو الدعاية الأساسية في مجالات البحث والدراسة والمطالعة.. ولقد مر الكتاب في تطوره بمراحل متعددة وليس هناك

شك في أن ما طرأ على طباعة وصناعة الورق من تطورات تقنية قد أدى إلى تغيير شامل في حركة نشر الكتاب .

وقد مر الكتاب السعودي بفترة عانى من خلالها الكساد والركود ولم يجد السوق الرائجة لعرض ماتجود به قرائح الأدباء والمفكرين الأمر الذي قد يحدو بالكثير من أدبائنا ومفكرينا إلى العدول والانصراف عن حقل التأليف والكتابة .

إن قضايا الكتاب ومشاكله عديدة ومتعددة من حيث الإنتاج الفكري والإنتاج الطباعي وقلة منافذ التسويق وارتفاع التكاليف والمنافسة المتصاعدة من جانب الوسائل الالكترونية الجديدة للاتصال بالقارئ.. ومع هذا فلا زال الكتاب من أبسط الوسائل وأكثرها فاعلية في نقل المعرفة وتيسير الحصول عليها .

والكتاب كما هو معروف يتعلق بجوانب كثيرة سواء ما اختص منها بالشكل أو ما اختص بالمضمون أو الطبع أو النشر أو التسويق أو التوزيع.

وفي هذا الصدد لابد من الإشارة إلى دور النشر وواجبها في هذا المجال؛ فلا يكون الدافع الأول من تأسيسها هو الربح المادي فحسب؛ ولكن بجانب ذلك يراعى الهدف الأسمى؛ وهو تيسير المعرفة ونشر الثقافة لكل طبقات الشعب ومستوياته، فالغذاء الروحي هو أثمن وأبقى من مادة تفنى وتزول، إنها رسالة قبل كل شيء وواجب وطني ومسئولية كبرى فالكتاب أجلّ وأسمى من أية سلعة مادية أخرى .

والمؤمل بعد ذلك أن تتظافر الجهود وأن يتعاون الجميع بروح الجد والإخلاص لرفع مستوى الكتاب وتذليل الصعوبات أمام نشره وتسويقه وتوزيعه وأن يحتل مكانه المرموق ويجب ألا يغيب عن البال أن الكتاب وعاء المعرفة وهو الذاكرة التي تحفظ ما مضى علماً وتاريخاً وهو الينبوع الثّر والمنهل الفيّاض، وديننا الإسلامي يحث على العلم والقراءة ويكرّم العلم والعلماء ويرفع من قدرهم ومكانتهم ويقول الله تعالى : ﴿يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات﴾، وهكذا فالكتاب مصدر للعلم والنور والرفعة .

• مـــن أدب الرحـــلات •

يحرص كثير من الرَّحالة الذين تتاح لهم الظروف على التجوُّل في الأرض لمشاهدة البلدان والآثار والمعالم والسهول والجبال والأنهار والبحار والطرائف والأحداث والعمران واللغات والعادات والتقاليد والثقافة والعلوم والمعرفة بحيث يصفون مشاهداتهم ومعلوماتهم عن خبرة ودراية.. فلا يخزنونها لأنفسهم فقط ويضنون بها على القراء..

لذا فإن أدب الرحلات أدب شهي لذيذ بما يقصه من ذكريات وأخبار ومعلومات عن أحوال الأمم وما يتميز به من عادات وتقاليد.. ولقد كان أسلافنا يهتمون به ويحرصون عليه ويدونون ذكرياتهم وانطباعاتهم ورحلاتهم ويقصون مايحدث لهم من مشاهدات ومشقات وضياع وما يعترضهم من قطاع الطرق، وكثيراً ماوقعوا في قبضتهم.. فقد كانت الأسفار قديماً مشقة وعناء وَنَصَبَاً وكان السفر من بلد إلى بلد يستغرق أياماً وشهوراً بل أعواماً.. حيث كانت المواصلات هي الإبل والدواب والسفن الشراعية التي تمخر عباب البحار وتسيرها الرياح وتتعرض للعواصف والأمواج والأرزاء..

وقد استأثر أدب الرحلات باهتمام كثير من طبقات مثقفي العالم قديماً وحديثاً وعني به أعلام بارزون عبر أطوار التاريخ فتركوا لنا منه ثروة تعتبر من أهم روافد الثقافة على اختلاف مناهج الرحّل من أجناس العالم..

لقد كانت الرحلات فيما مضى عملًا شاقاً وأسلوباً مضنياً كما يقول أحدهم :

نشق القيافي فدفدا بعد فدفد جبالًا وأوعاراً وأرضاً وطية

ورحم الله أسلافنا الذين سلكوا فجاج الأرض وجابوا الأمصار

وركبوا متن البحر وصارعوا هياجه وتحملوا اضطرابه وواجهوا أعاصيره وتكبدوا العنت والإرهاق في جوب القفار والسير في الفيافي والمفاوز.. من أمثال ابن جبير وابن بطوطة والسيرافي وياقوت الحموي والهمداني والبكري والمسعودي والأصمعي والأصفهاني والزمخشري وابن وهب القرشي وابن فضلان.. ولقد كان لإخواننا المغاربة نشاط كبير في هذا الميدان؛ فلهم كتب كثيرة ولم يطبع إلا القليل منها وما تزال موجودة في خزائن دور المخطوطات. وخلال زيارتي لبعض المكتبات في فاس والرباط رأيت الكثير مخطوطاً، وبعضها مصور على شريط (ميكروفيلم) .

وهكذا فإن لأدب الرحلات شأناً كبيراً. ولقد حفل تراثنا العربي الإسلامي بنماذج عظينة، وترك أسلافنا ثروة كبيرة تعتبر من أهم روافد الثقافة والتاريخ والأدب. وإذا كانت الرحلات بالأمس ممارسة شاقة فإن الرحلات في هذا العصر أصبحت ممتعة بفضل تطور وسائل المواصلات. والرحلات بطبيعتها سبيل من سبل المعرفة ومعين ثر للفائدة والاطلاع والمشاهدة ولذا نرى البعض يحرص على الاستفادة منها كما قال أبو تمام :

كأن به شوقاً إلى كل جانب
من الأرض أو ضغناً على كل جانب

ولكم أثار هذا البيت اهتمام الدكتور طه حسين حيث قال لاأعرف بيتاً تتسع آفاقه وتبتعد آماده ويجمع الأرض كلها في كلمات معدودة مثل هذا البيت .

واستجابة لرغبة أخي رئيس تحرير مجلة الدارة فإنه يسعدني أن أقدم جانباً من هذه الرحلة التي قمت بها إلى اليمن .

منذ مدة والنفس تحدثني بزيارة اليمن والوقوف على معالمها وأخبارها وآثارها.. ولكم قرأت الكثير من كتابات المؤرخين اليمنيين ممن لهم باع في

التاريخ تأليفاً وتحقيقاً ودراسات ولقد تتبعت كتابات مؤرخ اليمن المعروف أبو محمد الحسن بن أحمد الهمداني صاحب الإكليل وصفة جزيرة العرب الذي تبعه واعتمده الكثير من المؤرخين والمحققين من قدامى ومعاصرين وكذا صاحب معجم البلدان «ياقوت بن عبدالله الحموي».. وغيرهم فقد أحاطوا بأوصاف تلك البلاد وتاريخها ومعالمها وآثارها وما يتعلق بأوصافها وآدابها وشعرائها. وقد سميت بالخضراء كما يقول الهمداني لكثرة أشجارها وزروعها وثمارها، ولقد كانت حفاوة العلماء والمؤرخين **والباحثين** كبيرة في هذا المجال كل ذلك شدني إلى الوقوف على تلك المعالم فتطلعت إلى الفرصة المناسبة للقيام برحلة إلى تلك الربوع.. فصادف أن تلقيت دعوة كريمة من مدير جامعة صنعاء ورئيس مركز البحوث والدراسات اليمني بالحضور للمشاركة في أعمال الدورة الثامنة للمراكز والهيئات العلمية المهتمة بدراسات الخليج العربي والجزيرة العربية فتوجهت يوم الجمعة الموافق ١٤٠٥/١٠/١٧ هـ على متن إحدى طائرات البوينج، وقد أقلعت بنا الطائرة من الرياض في رحلة استمرت زهاء ثلاث ساعات حيث مررنا بمدينة تعز ولقد كنت أشاهد من علٍ جبال السروات ثم جبال اليمن الشامخة[1] حتى وصلنا إلى صنعاء المدينة التاريخية والتي كتب عنها المؤرخون كثيراً، فهي من أقدم المدن، نعم ها هي صنعاء والتي قال فيها أبو محمد الحسن الهمداني :

أرض تخيرها سام وأوطنها وأسى غمدان فيها بعدما احتفرا
أم العيون فلا عين تقدمها ولا علا حجر من قبله حجرا

---

(١) مردداً قول الشاعر :

إذا مضى علم منها بدا علم وإن مضى علم منه بدا علم

قال أحد الشعراء ولعله يؤرخ هنا لها :

صنعاء ذات الدور والأطام والقدم القدام ذي الأقدام
والعز عن ذي السطوة الغشام أست بعلم لابن نوح سام
يعلـــم رب ملك علام إذ رادها سام بلا توهام
ورادها من قبل ألفي عام ما بين سفحي نقم النقام
وبين عيبان العبير السام فأسها في سالف الأيام

ويقول الهمداني :

ما زال سام يرود الأرض مطلبا للطيب خير بقاع الأرض يبنيها
حتى تبوأ غمدانا وشيدها عشرين سقفاً يناغي النجم عاليها

فلقد كانت معشوقة الشعراء وما أكثر ماقرأنا من أشعار رقيقة يتغنون فيها بقصائد مفعمة بالحنين والشوق لهذه المدينة وكنت أتلفت يمنة ويسرة في ربوع هذه المدينة، وأنا في طريقي إلى فندق «سبأ» فأرى فيها تاريخ الحياة لأمم عديدة تذكرت خلالها عرش بلقيس وسد مأرب وسبأ وحمير ومعين والتتابعة وسيف بن ذي يزن... الخ .

وحضارة مأرب ومدنيتها، وهي حضارة رواها القرآن الكريم في سورة سبأ وأطلق عليها المؤرخون اسم أرض (الجنتين)..

مدينة «مأرب» هي العاصمة التاريخية لليمن، وتقع على بعد ١٧٠ كيلا شرق العاصمة صنعاء وتربطها بالعاصمة طريق مرصوفة..

وهي مدينة مشهورة عاشت حضارات دول غابرة هي دول معين وسبأ وحمير، وبها آثار تلك الحضارات من منشآت ومعابد مثل معبد الشمس، وطرق وسدود لا تزال أطلالها شاهدة. وقد حظيت هذه المدينة الأثرية – وخصوصاً منذ مطلع هذا القرن – باهتمام الباحثين وعلماء الآثار العرب والأجانب، كما شدت إليها السواح من كثير من بلدان العالم،

وكتبت عنها عدة مؤلفات وأبحاث، كما حظيت اللغة اليمنية القديمة وأبجديتها التي توجد نصوص منها منحوتة على الصخور والكهوف والجبال في مدينة مأرب وما جاورها باهتمام كثير من الدارسين اليمنيين الذين أخرجوا عدداً من هذه النصوص التي تسمى (خط المسند) وقاموا بترجمة مفرداتها التي لا يزال البعض منها ينطق حتى اليوم ضمن بعض اللهجات اليمنية..

وفي اليمن معالم تاريخية كقصر غمدان الشهير ومسجد الصحابي الجليل معاذ بن جبل وجامع صنعاء والهمداني والزبيدي وعمرو بن معد يكرب وغير ذلك مما هو موضع اهتمام الباحث والمؤرخ والأثري والأديب .

وتذكرت الرحالة المعروف أمين الريحاني وهو يدخل صنعاء مبهوراً بزحمة التاريخ وجلال الزمن. حقاً إن الحديث عن هذه البلاد وما فيها له نكهة تاريخية تستهوي القارئ والمؤرخ والرحالة بل وعلماء التاريخ والآثار .

إن صنعاء مدينة محاطة بالجبال تمتد شرقاً وغرباً كأنها وهي كلها بيضاء سلسلة من التلال في سهل مخضر جميل وعن شمالها وجنوبها هضاب وآكام وأودية.. وهكذا نزلنا في صنعاء مردداً قول الإمام الشافعي رحمه الله الذي سار سير الأمثال :

«لابد من صنعاء وإن طال السفر» .

وقول الشاعر :

يا حبذا أنت ياصنعاء من بلد وحبذا واديك الظهر والضلع

وما أكثر ما بكى شعراء اليمن بين يديها ومن ذلك قول أحدهم :

إني إلى صنعاء يحملني وجه النهار وترحل الأصل
فمتى تظللني مآذنها ويضيء من أحضانها الجبل
أأموت يا صنعاء مغتربا لا الدمع يدنيني ولا القبل

لقد اطلعت خلال الزيارة على الكثير من المعالم والآثار التاريخية حيث تمكنت من التجول بين عدد من المدن والقرى.. ولقد قمت بزيارة جامع صنعاء الكبير والذي بناه ابان بن سعيد وقيل أيوب بن يحيى في السنة السادسة للهجرة وقد بني بأحجار كبيرة ضخمة متقنة النحت به زخارف ونقوش وسقفه تحفة من تحف الفن الإسلامي النادرة ويحيط بالسقف من جميع جنباته حزام خشبي محفور عليه آيات من القرآن الكريم بالكتابة الكوفية .

وفي هذا الجامع مكتبة خاصة تحتوي على مجموعة كثيرة من المخطوطات والمصاحف المكتوبة على الرق بالخط الكوفي والحجازي على مختلف الأحجام. وقمت بزيارة لدار الكتب والمخطوطات المجاورة للجامع حيث استقبلنا الأخ عبده حسين صلاح حيث قام يشرح لنا المعدات الفنية لترميم المخطوطات وتجليدها وتصويرها وفرز كل نوع على حدة.. ثم دخلنا قاعة معرض المخطوطات المكتوبة بالخط الكوفي والحجازي والنسخي. وكذا بعض النقوش وحروف المسند .

والواقع أن الجامع يزخر بثروة كبيرة من المخطوطات في شتى العلوم والمعارف. ومن جامع صنعاء خرجنا نتجول وسط المدينة القديمة ومشاهدة بيوتها وآثارها فزرنا قصر غمدان ومسجد صلاح الدين وغرفة القليس وسوق الملح وغير ذلك من أحيائها القديمة وحواريها وتراثها المعماري والأثري وأبوابها العشرة. أما مبانيها فهي تضم أنماطاً من المباني أولًا المباني العربية والتي كانت شائعة قبل الإسلام ثم النمط الإسلامي الذي انتشر وشاع بعد ظهور الإسلام ثم النمط العثماني وكل صنعاء القديمة مازالت تحتفظ بكل هذا التنوع مع ملاحظة الزخرفة وتعدد الطوابق .

حقاً إن صنعاء لمدينة قديمة يقال إنها أول مدينة عمرت بعد الطوفان

وسميت باسم بانيها سام بن نوح، ولكم حفلت كتب التاريخ والأدب بأخبارها. وهناك عدد جم من الشعراء والمؤرخين والأدباء عنوا بوصفها وآثارها ومعالمها ونقوشها وأنسابها وتاريخها وأخبارها .

دار الكتب والمخطوطات :

قمت والصديق الدكتور عبدالله الغنيم عميد كلية الآداب بجامعة الكويت ورئيس تحرير مجلة دراسات الخليج والجزيرة العربية بزيارة لهذه الدار الحافلة بخزائن المخطوطات وقد استقبلنا رئيسها القاضي اسماعيل بن علي الأكوع وهو من المحققين والمشتغلين بكتب التراث وله اهتمام وخبرة بالمخطوطات والتقينا عنده بكل من مدير المتحف الأستاذ زيد بن علي عنان وبعض الأخوة العلماء فكان الحديث عن الكتب والمخطوطات والوثائق ودور مراكز البحوث والمخطوطات في نشر ذلك وأهمية الحفاظ على التراث ودور العلماء والباحثين.. وجهود البعض من المستشرقين في هذا المجال وأهمية تسهيل الحصول على المخطوطات للباحثين والاستفادة منها بأسهل الطرق.. ولقد أمضينا وقتاً ممتعاً انغمسنا خلاله في أغوار التاريخ والتراث والعلم.. حقاً إن واجب جامعاتنا ومراكز البحوث الاهتمام بالتراث وتحقيق المخطوطات كما أن الكثير من المخطوطات مهدد بالضياع مالم نبادر إلى صيانته وتعقيمه وحفظه خاصة ماكتب منه على الرقوق والجلود كما أن الاهتمام بالوثائق ناحية مهمة باعتبارها مصادر مهمة في البحث والدراسة .

زيارة السفارة السعودية :

قمت بزيارة لسفارتنا وقد وجدت من سعادة السفير الأستاذ علي القفيدي كل حفاوة وتقدير ولقد حرص /أكرمه الله/ على إكرامي فدعاني

للغداء وألح ولكني اعتذرت فقال لي لا بد من ذلك فقبلت دعوته على الغداء حيث دعا الإخوة السعوديين فكان لقاءً أخوياً ودياً وفي أثناء وجودي هناك رغبت في زيارة مكتب الملحق التعليمي السعودي ولقد سررت بما يقدمه المكتب من خدمات جليلة حيث أن هناك بعثة تعليمية سعودية كبيرة تقوم بالتدريس في مختلف المناطق. وحكومتنا الجليلة تأتي في مقدمة الأمم بذلًا وعطاءً حيث تسهم في بناء المدارس والمستشفيات والطرق والمساجد.. ثم خرجت من مكتب الملحق التعليمي بعد أن زودني بمجموعة من صحف بلادنا..

زيارة مدينة تعز :

وفي الصباح الباكر ذهبنا إلى مدينة تعز وانطلقت بنا السيارة شطرها وكان الطريق مائتين وخمسة وستين كيلًا جنوب العاصمة ومررنا بمناطق خضراء وجبال مجللة بالجمال والخضرة وسهول تغطيها المزارع ومررنا بعشرات البلدان والقرى كذمار، والتي سبق أن تعرضت لكارثة الزلزال حيث شاهدنا آثاره وكذا إب ويريم وغيرها من القرى والبلدان وهي أجمل مناطق هذه البلاد، ولقد صعدنا جبالًا شامخة فارعة فكنا نرتفع تارة ونهبط أخرى إنها لقمم شامخة خطرة كجبل سمارة الشهير وكان مرافقي الأخ محمد المعلمي يشرح لي أسماء هذه الأماكن والجبال والوديان وكان السائق ماهراً حاذقاً بالطريق فعندما رآني مكتئباً من وعورة الطريق قال لي لا تخف فقد ترددت على هذا الطريق عدة سنوات وما زلت أتردد بين جنباته فهو شيء سهل فقلت زادك الله نشاطاً وقوة ومهارة فعليك بالرفق ففي التأني السلامة وفي العجلة الندامة . ولقد تعودت على صعود واجتياز مناطق جبلية أصعب منها .

ثم لاحت لنا تعز المدينة الخضراء يحتضنها الجبل الأشم «صبر» وهي مدينة جميلة تقع على الربوات المتناثرة هنا وهناك تغريك خضرتها وجبالها وجمال مبانيها، وقد زرنا أسواقها القديمة وجامعها وحصونها القديمة وجبالها الجميلة وقمت بزيارة للمتحف الوطني .

ثم غادرناها إلى بعض القرى والأرياف حتى عدنا إلى العاصمة بعد أن مررنا بالعديد من قصور اليمن ومعاقلها الكثيرة والأثرية وهي غاية في فن العمارة والنقش ومن القصور التاريخية التي لازالت باقية قصر غمدان وصرواح وناعط وفيه يقول الهمداني :

فمن كان ذا جهل بأيام حمير وآثارهم في الأرض فليأت ناعط
يجد عمداً تعلو الفنا مرمرية وكرسي رخام حولها وبلائط
ملاحقها لا ينفذ الماء بينها ومبهوقة مثل الفراخ خرائط
ترى كل تمثال عليها وصورة سباعاً ووحشاً في الجبال وباسط

وفي قصر صرواح يقول الشاعر :

أبونا الذي كانت بصرواح داره وفي جبل النعمان عز تمكنا
ونحن ورثنا عز خولان ذي الندى مآثر عز مثلها لم يدم لنا

وقبل أن نعود للعاصمة لاحت لنا قصورها فتذكرت قول الشاعر :

إذا طلعنا جبال السود لاح لنا من أرض صنعاء معطاف ومرتبع
يا حبذا أنت يا صنعاء من بلد وحبذا واديك الظهر والضلع

وطلبت من مرافقي أن نعرج لمشاهدة هذين الواديين ثم عدنا إلى الفندق بعد رحلة حافلة بالأدب والتراث والمعرفة والآثار والمشي والبرد وهطول المطر واستغرقت في نوم عميق حتى الفجر حيث الاستعداد للسفر مردداً قول الشاعر :

نزلنا ها هنا ثم ارتحلنا فدنيانا نزول وارتحال

• من كوبنهـــاجن إلى صنعـــاء •

تفضل مركز الدراسات والبحوث اليمني بإهدائي نسخة من مطبوعاته ومن بينها هذا الكتاب الذي يحكي قصة البعثة الدنماركية العلمية التي قام بها العلامة نيبور مع أربعة علماء أوربيين إلى بلاد اليمن بين عامي ١٧٦١م - ١٧٦٧م .. ويشتمل الكتاب على مقدمتين وسبعة أقسام، المقدمة الأولى كتبها الدكتور عبدالعزيز المقالح، والثانية مقدمة المترجم محمد أحمد الرعدي، ويبدو أن النص الأصلي للكتاب المكتوب باللغة الإنجليزية والذي ترجم إلى اللغة العربية لاتوجد له مقدمة..، وإذا ألقينا نظرة شاملة على موضوع الكتاب فإننا نجده يحكي لنا بأسلوب قصصي طريق رحلة بعثة علمية أمر بإرسالها ملك الدنمارك إلى بلاد اليمن التي يسمونها «العربية السعيدة» على أن تمر البعثة في رحلة الذهاب باستانبول ثم مصر وأخيراً اليمن، وبعد إنجاز مهمتها هناك تعود إلى أوربا عن طريق العراق وسوريا واستانبول..

تتكون تلك البعثة من خمسة أعضاء وخادم، اثنان منهم من الدنمارك، واثنان من ألمانيا، وواحد من السويد، بالإضافة إلى الخادم وهو سويدي وأسماؤهم كما يلي :

١ - البروفسور فردريك كريستيان فون هافن.. متخصص في اللغات وهو دنماركي..

٢ - البروفسور بتر فوركسال عالم نبات وفيزيائي.. وهو سويدي..

٣ - المهندس الملازم كارستن نيبور عالم في الرياضيات والفلك.. ألماني.

٤ - الدكتور كرستيان كرامر، طبيب وفيزيائي - دنماركي..

٥ - الهر جورج ولهم بورنفانيد فنان ونحات - ألماني..

٦ - برجرن - خادم البعثة - سويدي..

كانت المحطة الأولى للبعثة التي تحركت من كوبنهاجن في الرابع من شهر كانون الثاني «يناير سنة ١٧٦١» هي مدينة استانبول، وبعدها توجهت إلى الإسكندرية والقاهرة، وبعد القاهرة ذهبت إلى سيناء وبعد ذلك غادرت السويس متجهة إلى جدة ومنها إلى بلاد اليمن «العربية السعيدة» وبعد أن تجوَّل أعضاؤها في المناطق المختلفة بالأراضي اليمنية ورسموا خرائط للأماكن التي زاروها وجمعوا نماذج من النباتات والزهور التي عثروا عليها، مرض أحدهم وهو فون هافن وتوفى، ثم مرض عضو آخر ومات بعده بشهر واحد، وهو فرسكال، وعلى إثر ذلك غادر الباقون من أفراد البعثة اليمن على ظهر سفينة إنجليزية، وذهبوا إلى الهند وهم في حالة إعياء شديد، وفي أثناء إبحارهم مات فنان البعثة بورنفانيد وبعده بيوم مات خادم البعثة برجرن وألقي بجثتيهما في ماء المحيط، وبعد ذلك مات الدكتور مرامر في بومباي بالهند، ولم يبق على قيد الحياة من أعضاء البعثة سوى شخص واحد فقط وهو نيبور الذي عاد من الهند عن طريق مسقط وإيران والعراق وحلب واستانبول وأوربا حتى وصل إلى الدنمارك..

هذا باختصار شديد موضوع الكتاب الذي نحن بصدده والذي يُعد من كتب الرحلات، فهو يروي بموضوعه الطريف الجاد، وبأسلوبه الروائي الجذاب تفاصيل رحلة علمية شيِّقة خطط لها العالم الألماني المشهور «يوهان داود ميشاليس» بجامعة «جوتنجن» الألمانية، ومعنى هذا أن الذي فكر في أمر تلك البعثة عالم ديني في اللاهوت، وألماني يقيم في ألمانيا ومن أعضاء هيئة التدريس بجامعة ألمانية، وأن التفكير في تلك البعثة لم يكن صادراً عن أحد المسؤلين في الدولة التي أرسلتها وتحملت نفقاتها وهي الدنمارك..

وعلينا أن نطالع سوياً العبارة التالية لإثبات تصورنا هذا :

«لقد بحرت السفينة «جرين لند» من كوبنهاجن عام ١٧٦١م ولكن البداية الحقيقية للمشروع كانت في آيار «مايو» لعام ١٧٥٦، عندما بدأ المستشرق، عالم اللاهوت الألماني المشهور «يوهان داود ميشاليس» بجامعة «جوتنجن» يتقرب من برن ستورف وزير الخارجية الدنماركي، كان ميشاليس مشهوراً بأفكاره المبتكرة، وقد ظلت أحد هذه الأفكار تعتلج في صدره حتى اقترح على وزير الخارجية تدريب بعض المبشرين الذين يذهبون كل سنة إلى ترنكبار «بالهند» ليقوموا باكتشاف جنوب شبه الجزيرة العربية»[١]..

ثم عبارة أخرى تقول «واقترح البروفسور ميشاليس في رسالة وجهها إلى وزير الخارجية على الحكومة الدنماركية أن تقدم منحاً تدريبية مدتها ثلاث سنوات لطالبين في جامعة جوتنجن، كي يحضرا بعدئذ إلى كوبنهاجن لتدريب المبشرين الذين تم اختيارهم لهذه الرحلة تدريباً أولياً متقناً»[٢]..

وبعد موافقة ملك الدنمارك على موضوع تلك البعثة المذكورة تحول التفكير إلى جعلها بعثة علمية وذلك لحب الأوربيين في ذلك الوقت للعلم وتسابق الدول الأوروبية على تحقيق الاكتشافات العلمية لتخليد ذكراهم عبر العصور، ونجد في البيان الملكي الرسمي الصادر عن مهمة البعثة بعد بدء رحلتها بأسبوع بجريدة كوبنهاجن بوست مايشير إلى ذلك :

«إن جلالة الملك في هذا الوقت العصيب، برغم مشاغله الرسمية المرهقة، يناضل دون ملل من أجل غزو آفاق جديدة للمعرفة والتقدم

---

(١) من كوبنهاجن إلى صنعاء ص ٢٤ .

(٢) نفس المرجع ص ٢٥ .

العلمي، وتحقيق مجد أكبر لشعبه، لقد أرسل بعثة من العلماء على ظهر السفينة «جرين لند» وسوف يرحل أعضاؤها عن طريق البحر الأبيض المتوسط إلى القسطنطينية، ومن هنا يرحلون عبر مصر إلى العربية السعيدة، ومن ثم يعودون منها عن طريق سوريا إلى أوروبا..»[٣] وفي مكان آخر من الكتاب نجد هذا النص :

«فقد كان من تقاليد ذلك العصر مساندة ودعم الفنون والعلوم، وكان فردريك الأكبر ملك بروسيا يقضي أوقات فراغه في مناقشات فلسفية مع فولتير وفي العزف بالناي مع يوهان سبستيان باخ، وهو بهذا قد ضرب المثل بفردريك ملك الدنمارك. لكن إذا سمح ملك الدنمارك لنفسه بالاستسلام لقضاء أوقات فراغه في المناقشات الفلسفية واللهو الفني فإن هذا لا بد أن يكلفه الكثير من صحته وقواه، ولهذا فقد أولى هو ومستشاره «ملتك» أهمية كبرى للشعبية والتقدير اللذين سيناهما الملك لدى الشعب الدنماركي من جراء الأخذ بسياسة تشجيع العلوم والفنون، وهما بهذا كانا على صواب ولم يكونا واهمين، فقد تأكد لهما أن مساندتهما للعلوم والفنون مجلبة لكسب الشهرة مستقبلًا.. كما كان يعني أيضا بما بعد الموت.. فقد كانت الرغبة لديهم أصيلة في أن تعيش ذكراهم بعدهم بوقت طويل، لأن سذاجتهم كانت كافية لأن توجد لديهم بعض الإحساس نحو التاريخ والوقت، فعلقوا أهمية كبرى في أن تكون ذكراهم عطرة لدى الآخرين، حتى لدى من عاش بعد وفاتهم بمئات السنين..»[٤]..

---

(٣) نفس المرجع ص ٢٢ ، ٢٣ .

(٤) نفس المرجع ص ٢٩ .

وعلى الرغم من أن البعثة تحولت من بعثة تبشيرية إلى بعثة علمية كل واحد من أعضائها عالم في مجال معيَّن، فإننا نجد أن الذي اختار أعضاء البعثة هو نفسه عالم اللاهوت الألماني ميشاليس الذي أشرنا إليه سابقاً.. ونجد أن عضوين مهمين في البعثة قد درسا -إلى جانب تخصصهما العلمي الدقيق- علم اللاهوت، ولعل هذا الاختيار لم يأت مصادفة..

وكان الدنماركي فردريك كرستيان فون هافن هو أول من عيِّن منهم في البعثة وكان أكبرهم، ولد عام ١٧٢٧م ، لأب كان يعمل كاتباً، ولم يعرف إلا القليل عن حياته المبكرة، عدا أنه فقد والده في الحادية عشرة من عمره، واستطاعت والدته تدبير استمرار دراسته، وأدى بنجاح اختباراً في علم اللاهوت وهو في الواحدة والعشرين[٥]...

«.. كان فون هافن في هذا الوقت قد أكمل دراسته لعلمي اللغة واللاهوت.. منذ وقت طويل»[٦]..

ويتحدث الكاتب عن العضو الثاني فورسكال هكذا :

ولد في «عام ١٧٣٢م» ويبدو أنه في سن العاشرة انخرط بجامعة أبسلا، حيث كان عليه أن يدرس العلوم الدينية.. وفي ١٣ تشرين الأول «أكتوبر» سنة ١٧٥٣م غادر البلاد ليلتحق بجامعة جوتنجن، حيث عزم على دراسة علم اللاهوت والفلسفة واللغات الشرقية على يد البروفسور ميشاليس[٧]..

ولنتحدث عن تلك الرحلة المثيرة بتفاصيل أكثر من واقع مطالعتنا للكتاب «من كوبنهاجن إلى صنعاء» المترجم إلى اللغة العربية..

---

(٥) نفس المرجع ص ٣١ .
(٦) نفس المرجع ص ٤٦ .
(٧) نفس المرجع ص ٣٦ ، ٣٧ .

القسم الأول من هذا الكتاب يتضمن سبعة فصول، وفي هذا القسم يحكي الكاتب عن بداية رحيل البعثة، وكيف أن الخمسة المشتركين في البعثة ركبوا في الرابع من شهر كانون الثاني «يناير» سنة ١٧٦١م قارباً من كوبنهاجن ليصلوا به إلى السفينة «جرين لند» الواقفة في عرض البحر لتوصيلهم إلى القسطنطينية «استانبول» عبر البحر الأبيض المتوسط، ثم يواصلون رحلتهم إلى الإسكندرية، فالقاهرة، فالسويس، ومنها يواصلون رحلتهم إلى الطرف الجنوبي لشبه الجزيرة العربية (اليمن) عبر البحر الأحمر عن طريق جدة. ثم يستطرد الكاتب في حديثه ويعود إلى بداية التفكير في مثل هذه البعثة وعن كيفية اختيار أعضائها، ويذكر أن عالم اللاهوت الألماني المشهور «يوهان داود ميشاليس» بجامعة «جوتنجن» الألمانية هو الذي فكر في موضوع تلك البعثة واستغل صداقته لوزير خارجية الدنمارك، وعرض عليه فكرته ، على أن تقوم الدنمارك بتنفيذها وتمويلها..

لاقت الفكرة هوى في نفس وزير الخارجية واستطاع أن يحصل على موافقة ملك الدنمارك، بعد ذلك اقترح ميشاليس على وزير الخارجية الدنماركي أن يتولى قيادة تلك البعثة عالم اللغات النرويجي ستروم، ولكن تسببت غيرة فون هافن الدنماركي –وهو عالم في اللغات أيضاً– في إعاقة تعيين ستروم، واستطاع فون هافن بوشايته وبأسلوبه الخاص أن يحصل على قرار تعيينه لقيادة البعثة، كما تم اختيار عضوين آخرين بالبعثة وهما كارستن نيبور الألماني، وهو عالم في الرياضيات والفلك، وفورسكال السويدي، وهو عالم في النبات والتاريخ الطبيعي، واستطاع فون هافن أن يحصل على فترة سماح لمدة سنتين اعتباراً من سنة ١٧٥٦ م بمنحة سنوية تقدر بما يعادل في وقتنا الحاضر (١٢٨٠٠) ريال سعودي وذلك للدراسة والتحضير للقيام بالبعثة، وخلال تلك المدة استطاع هافن المماطلة

والمراوغة في إطالة المدة التي حصل عليها إلى ثلاث سنوات بدلًا من سنتين وذلك بوجوده بعيداً عن الدنمارك وتجوُّله في عدة بلاد، منها فرانكفورت وستراسبورج وروما وإخفائه مكان وجوده في أي بلد منها وتنقلاته بين تلك البلاد بطريقة سرية، مما تسبب في عدم استدلال المسئولين في الدنمارك على أي عنوان له..

وعندما عاد فون هافن إلى كوبنهاجن للبدء في القيام بالرحلة، وجد أن فورسكال السويدي قد حصل على لقب البروفسور، ولم يستطع هو الحصول على هذا اللقب، كما أنه لم ينجح في تعيين المسئولين إياه رئيساً للبعثة كما كان يطمح في ذلك.. وأصيب بخيبة أمل عندما علم أن جميع أعضاء البعثة متساوون في الدرجة، أي كلهم في درجة واحدة، كما لم يسمح بأن تكون له أية علاقة بالشئون المالية للبعثة، وذلك بعد أن عين المستر نيبور أميناً لصندوق البعثة.. وأخيراً صدرت للبعثة تعليمات ملك الدنمارك بخط سيرها وهو ذهابهم أولًا إلى القسطنطينية ثم إلى الإسكندرية فالقاهرة ثم سيناء وبعد ذلك جنوباً عبر البحر الأحمر إلى مدينة المخاء على أن تمكث البعثة في العربية السعيدة سنتين وعند الضرورة ثلاث سنوات..

أما القسم الثاني من الكتاب فهو يشتمل على خمسة فصول :

في هذا القسم يحكي الكاتب الأهوال التي لاقاها أفراد البعثة على ظهر السفينة الحربية «جرين لند» بسبب هياج البحر وثورته وشدة العواصف، وبرغم ذلك فإن فورسكال كانت أعصابه هادئة ولم يتأثر بذلك وأنه كان من حين لآخر يدرس أنواع الأعشاب والكائنات الحية التي تصادفه، ومن ناحية أخرى كان نيبور يرصد بآلته الفلكية النجوم ويقيس بعد الشمس ويحاول تحديد المكان الذي توجد به السفينة، أما فون هافن فقد طلب من المسئولين الدنمارك السماح له بالنزول في هلسنجر عندما ترسو السفينة

عليها على أن يذهب براً إلى مرسيليا وهناك ينتظر وصول السفينة وعليها أفردا البعثة الباقون، وبعد أن تقابل أعضاء البعثة مع فون هافن في مرسيليا بدأت تظهر الخلافات والمشاحنات بينهم، ووجه فون هافن إهانات قاسية إلى فورسكار.. وبدأ الاثنان يتجاهران بالعداء، وعندما وصلوا إلى جزيرة مالطة بقوا بها ستة أيام جمع فورسكال خلال بقائهم بالجزيرة قائمة نباتية ضمت ٨٧ نباتاً مختلفاً.. وعندما وصلوا إلى القسطنطينية استغل فورسكال فرصة بقائهم هناك لعدة أسابيع فكان دائم التجوال من مكان إلى آخر وزار جميع الحدائق الرئيسية ليجمع منها الزهور النادرة كما زار عدة مدن على طول شاطيء بحر مرمرة وعلى طول المضايق حتى البحر الأسود، وبعد ذلك غادروا القسطنطينية على ظهر باخرة تركية وصلوا بها إلى مدينة الإسكندرية .

القسم الثالث: ويشتمل على سبعة فصول :

في هذا القسم نزل أعضاء البعثة إلى مدينة الإسكندرية وقام نيبور ببعض أبحاثه الفلكية في المدينة مستعيناً بالأجهزة الفلكية الموجودة معه، وركبوا جميعاً في ذات يوم قارباً تجولوا به في فرع من فروع نهر النيل حتى وصلوا إلى مدينة رشيد ثم واصلوا رحلتهم النيلية، وكانت فرصة لفورسكال ليجمع فيها الزهور والنباتات التي يشاهدها في طريقه وعندما وصلوا إلى القاهرة استأجر بعضهم بيتاً للإقامة به، وأقام الآخرون بمنزل القنصل الهولندي، وأخذ فورسكال يقوم برحلات صحراوية، حيث كان يضطر أحياناً إلى قضاء الليالي في القرى الصغيرة، واستطاع أن يؤلف مجموعة تضم أكثر من ١٢٠ زهرة من أنواع مختلفة معظمها كانت غير مألوفة، كما أنه تمكن في ربيع عام سنة ١٧٦٢م من كتابة بحثين في وصف

النباتات والحيوانات التي جمعها، كما ذهب فورسكال وفي صحبته نيبور إلى الأهرامات، واستطاعا تسلُّق هرمي خوفو ومنقرع وقاس نيبور ارتفاع هرم خوفو، ومكثت البعثة في القاهرة أكثر من سنة، وخلال بقائهم بها جاء الأمر الملكي إلى فون هافن بالذهاب إلى سيناء لاكتشاف الجليل الذي يطلق عليه سكان المنطقة العرب اسم جبل «المكاتب» والذي قال بعض الإنجليز عنه إنه يوجد على وجه صخرة به كتابة.. يفترض العلماء الأوربيون أن النبي موسى عليه السلام هو نفسه الذي كتبها، حين قاد شعبه للهروب من مصر عبر صحراء سيناء ..

القسم الرابع : ويشتمل على أربعة فصول :

تترك البعثة القاهرة بصحبة قافلة من العرب الذاهبين من القاهرة إلى السويس على ظهور الجمال، وتستمر هذه الرحلة حوالي اثنتين وثلاثين ساعة، وبعد وصولهم مدينة السويس يجدون فندقاً فيستأجرون غرفاً فيه للإقامة هناك .

ولم يقبل أحد من أفراد البعثة مصاحبة فون هافن في الذهاب إلى صحراء سيناء سوى نيبور وساعدهما فورسكال الذي يعرف اللغة العربية في التفاهم مع بعض مشايخ العرب لتزويدهما ببعض المرشدين العرب لمرافقتهما في رحلتهما وإرشادهما إلى الأماكن التي يريدان زيارتها ولم يستطع فون هافن في رحلته إلى سيناء تحقيق أي شيء، لأنه لم يستطع العثور على الأحجار المكتوب عليها كتابات عبرية، ولم يسمح له بدخول دير سنت كترين للاستفادة بالمخطوطات القيِّمة الموجودة بمكتبة الدير التي تُعد ثاني مكتبة في العالم إذ ذاك بعد مكتبة الفاتيكان، حيث أنها تحوي على ٣٥٠٠ مخطوط.. وعاد فون هافن إلى السويس بخفى حنين .

القسم الخامس : ويشتمل على خمسة فصول :

في الخامس من تشرين الأول «اكتوبر» سنة ١٧٦٢، ركب أعضاء البعثة قارباً من السويس حملهم إلى السفن التي أبحرت بهم حتى ميناء جدة، واضطروا إلى البقاء ستة أسابيع في جدة انتظاراً للسفن القادمة من المخاء والتي ستحملهم إلى اليمن وركبوا أول سفينة قادمة من هناك وبدأوا رحلتهم إلى اليمن على ظهر سفينة مخصصة لحمل البضائع وليست مخصصة للركوب الآدمي، ووصلوا إلى ميناء اللحية اليمني ونزلوا في مدينة اللحية بعد أن أحسن حاكمها استقبالهم وتركوا بالسفينة صناديقم المملوءة بالنماذج الثمينة من النباتات والحيوانات البحرية التي جمعها فورسكال في أثناء رحلتهم، وتعهد شاب عربي من أولاد أحد التجار الأغنياء بالمخاء بأن يجعل جمرك المخاء يحتفظ لهم بهذه الصناديق في أمان، حتى يصلوا إلى مدينة المخاء لاستلامها من الجمرك هناك .

قام حاكم مدينة اللحية بتسهيل مرور البعثة من الجمرك واستضافهم بمنزل مبني من الحجر وقدَّم لهم العشاء وأبدى استعداده لدفع نفقات سفرهم على السفينة التي جاءوا عليها من جدة، وكان لهذا الكرم وحسن الاستقبال وقع حسن على نفوس البعثة الأوروبية مما جعل نيبور يكتب في مذكراته هذه العبارة «فيما إذا كان يمكن أن يحدث مثل هذه المبادرة الطيبة من قبل السكان الأوروبيين، لمسافرين عرب في أي مكان في أوروبا»[٨]..

استطاع نيبور عمل خريطة لمدينة اللحية، كما استطاع فورسكال أن يتجول في الأراضي الشاسعة المحيطة بالمدينة بحرية وفي أمان، وأن يجمع

---

(٨) Enver Benhan Sapolyo, Osmanle Sultanlare Tarihi, Istanbul. 1961 S.98.

ما يشاء من أنواع النباتات التي يصادفها.. وكانوا جميعاً سعداء بوجودهم في اللحية..

بعد ذلك ترك أعضاء البعثة مدينة اللحية وقرروا الذهاب إلى مدينة بيت الفقيه، وفي الطريق عندما يحل الليل كانوا يبيتون في إحدى القرى المنتشرة على طول الطريق وكان الفلاحون يذبحون لهم «الخرفان» تنفيذاً لأوامر حاكم اللحية، وبعد أن وصلوا إلى مدينة الفقيه، اتخذوها مركزاً لاستكشافاتهم. فقد ذهب فون هافن مع كرامر إلى ميناء الحديدة وذهب فورسكال نحو الشرق، حيث توجد تلال البن والأراضي الخضراء، وذهب كرستن نيبور إلى الصحاري المترامية محاولًا عمل خريطة كبرى لليمن.. وفي يوم من الأيام قرر فورسكال ونيبور الذهاب إلى مدينة تعز لكي يتمكن نيبور من استكمال الخريطة التي يرسمها.. وفي طريق عودتهما إلى بيت الفقيه لمح فورسكال شجرة البلسم المكاوي الأصلية التي كان يحلم برؤيتها منذ اليوم الأول لرحلتهم، وبعد أن أخذ من الشجرة ما شاء من الأزهار والأغصان، عادا إلى بيت الفقيه .

وفي تلك الأثناء أصيب كل من نيبور وفون هافن بمرض الملاريا، فقرر أعضاء البعثة مغادرة مدينة بيت الفقيه نظراً لعدم ملاءمة جو تلك المدينة لهم .

القسم السادس : ويشتمل على ستة فصول :

نظراً لأن برنامج البعثة كان يتضمن زيارة مدينتي المخاء وصنعاء كان أعضاء البعثة في حيرة من أمرهم إلى أي من المدينتين يذهبون أولًا، وأخيراً استقر رأيهم على الذهاب إلى المخاء، ونظراً لشدة الحرارة في ذلك الوقت كان فورسكال ونيبور يذهبان في النهار، ويتبعهم باقي أفراد القافلة في أثناء الليل، وبعد أن وصلت البعثة إلى مدينة المخاء بكل جهد وعناء، قابلتهم

متاعب كبيرة من الأهالي ومن موظفي الجمرك، حيث فتح المسئولون في الجمرك الصناديق الخاصة بهم وألقوا بمحتوياتها على الأرض وقد تألم كثيراً فورسكال لهذا العمل لأنه تعب كثيراً وبذل جهداً مضنياً في جمع محتويات تلك الصناديق.. وفي مدينة المخاء توفي فون هافن بعد أن اشتد عليه المرض ودفن هناك.. وبذلك تكون البعثة قد فقدت أول عضو من أعضائها، وكان الشيء الوحيد الذي أسعدهم هو مقابلتهم لثلاثة من التجار الإنجليز الأغنياء كانوا قد قدموا مع مجموعة من السفن التجارية القادمة من الهند .

بعد هذه المعاناة وبعد موت زميلهم هافن قرر أعضاء البعثة السفر مع التجار الإنجليز إلى الهند هروباً من المرض والموت، ولكنهم أرادوا أن يستفيدوا بالوقت الباقي على عودة السفن الإنجليزية، ويقدر هذا الوقت بشهر واحد، فقرروا السفر إلى صنعاء في زيارة سريعة تنتهي قبل انقضاء الشهر، وبعدها يعودون إلى المخاء ليلحقوا بالسفن الإنجليزية .

كان عليهم الذهاب عن طريق مدينة تعز، التي بقوا بها عدة أيام ثم واصلوا رحلتهم إلى صنعاء وفي الطريق مرض فورسكال ولم يستطع مواصلة السير معهم، ومات في الطريق ودفن في إحدى القرى هناك، وفقدت البعثة بموته الرجل الثاني من أعضائها .

وعلى الرغم من أن فورسكال هذا قد مات باليمن قبل أن ينهي مهمته ودون أن يعود إلى الدنمارك إلا أنه قد استطاع أن يرسل إلى الدنمارك وإلى بعض جامعات أوروبا عدداً كبيراً من الصناديق التي ملأها بالكائنات البحرية، وبالنباتات، وبالبذور الصالحة للزراعة، وبمجموعات لابأس بها من الأعشاب والأبحاث التي كتبها ومذكراته عن الرحلة ووصفه التفصيلي للنباتات والحيوانات وأبحاث عن عادات المسلمين وعن

الديانة القبطية، وعن تاريخ اليمن القديم، وبيانات عن الأسعار والبضائع والعملة والموازين والمقاييس في كل البلدان التي مر بها .

واصلت البعثة المسير حتى صنعاء بالرغم من موت فورسكال وبالرغم من كل الظروف الصعبة التي واجهوها في الطريق، وفي صنعاء احتفى بهم الإمام وأكرمهم واستضافهم وجعلهم في أمان واستطاع نيبور أن يعمل هناك بحرِّية وأن يقيس الزوايا ويرسم خريطة للمدينة، كما زار الأسواق والمتاجر الموجودة بها وبعد أن ودَّع الإمام أعضاء البعثة، عادوا مرة أخرى إلى مدينة المخاء وفوجئوا برحيل السفن الإنجليزية من الميناء وعودتها إلى الهند، ولكن ظهرت لهم بادرة أمل عندما وجدوا إنجليزياً أخبرهم بأنه توجد سفينة إنجليزية في جدة كانت قد أرسلت إلى هناك محمَّلة بالبن وسوف تعود ويسافرون عليها إلى الهند، وعندما عادت السفينة إلى المخاء كان كل أعضاء البعثة قد أصابهم المرض. وبعد أن حملتهم السفينة وفي أثناء سيرها في المحيط مات الفنان بورنفانيد والخادم برجرن وألقى بجثتيهما في ماء المحيط، ولم يصل من أعضاء البعثة سالماً إلى بومباي في الهند سوى اثنين فقط هما نيبور وكرامر .

القسم السابع : ويشتمل على ستة فصول :

بعد أن نزل نيبور وكرامر في بومباي، توفى هناك الدكتور كرامر، وبذلك لم يبق من أفراد البعثة سوى شخص واحد هو كارستن نيبور عالم الرياضيات والفلك ومساح البعثة.وبعد أن تحسنت صحته واستعاد نشاطه ركب سفينة حربية إنجليزية قاصداً مسقط، وبعد أن قضى فيها أسبوعين، ركب سفينة إنجليزية أخرى أودعته بوشهر في إيران، ومن هناك ذهب إلى آثار بيرسيبلوليس التي ظل يزاول عمله بها مدة شهر كامل، وبعدها عاد إلى بوشهر ، ليركب سفينة تذهب به إلى البصرة التي أمضى بها أربعة

أشهر، وكتب خلال بقائه بها تاريخ المدينة الحديث، وعمل خريطة لشوارعها، ومن هناك ذهب إلى بغداد ثم إلى الموصل ثم واصل رحلته إلى حلب ومنها إلى الإسكندرية، وركب من هناك سفينة إلى جزيرة قبرص، ومنها جاء إلى ميناء يافا في فلسطين، ودخل مدينة القدس، ثم ذهب إلى عكا ومنها إلى صيدا، ثم إلى دمشق واللاذيقية وبعد ذلك ذهب إلى القسطنطينية عن طريق قونيا، وبعد أن بقى بها أربعة أشهر، غادرها متوجهاً إلى بوخارست وهي تعتبر أول مدينة أوروبية تقع عليها عيناه منذ أن غادر كوبنهاجن في بداية رحلته هذه، وأخيراً عاد كارستن نيبور إلى كوبنهاجن في تشرين الثاني «نوفمبر سنة ١٧٦٧» حيث لم يُقابل بالحفاوة والترحيب كما كان يتوقع، واضطر أن يعيش باقي حياته في مكان ريفي ناء ومهجور..

هذه باختصار هي حكاية البعثة العلمية التي أرسلتها حكومة الدنمارك لاستكشاف اليمن، كما وردت في كتاب «من كوبنهاجن إلى صنعاء» .

ونلاحظ على هذا الكتاب أن كاتبه يعتمد على الأسلوب القصصي ويبتعد عن الأسلوب المعروف في كتب الرحلات، فالكتاب في مجمله يوحي بما يشبه أن يكون قصة من تأليف الكاتب، وكأن أبطالها هم أبطال الرحلة، فبدلًا من أن يقص هؤلاء الرحالة علينا مشاهداتهم، وينقلونا إلى الأماكن التي شاهدوها، لنعيش فيها معهم فيصفون مثلًا المدن التي شاهدوها وكيفية بناء منازلهم ومعالمها، وتصوير شوارعها وحياتها، وسلوك الناس الذين اختلطوا بهم، وطرق معيشتهم، وعاداتهم الاجتماعية المختلفة، والمناسبات التي يحتفلون بها، والأعمال التي يقومون بها، وكيف يمارسونها، ويصفون الأراضي التي رأوها، والمزارع، والأشجار، والفواكه، وصفاً دقيقاً جميلًا وما شابه ذلك من أشياء . ولو تم ذلك

لكان الكاتب قد أقنع قارئه وأفاده بمشاهدات أعضاء الرحلة .

بدلًا من كل ذلك نجد أن الكاتب، يهتم بشخصيات البعثة أكثر من اهتمامه بسرد مشاهداتهم، ويخصص الجزء الأكبر من صفحات كتابه لسلوك الأعضاء الخمسة الذين اشتركوا في تلك البعثة، فيتكلم عن نزعات وسلوك كل واحد منهم على حده، نراه يصور أحدهم بالطموح والنشاط، ويظهر مافي داخل شخص آخر من الحقد والحسد، فيكيد للآخرين، لأنه أناني، يريد أن يصل هو فقط إلى كل شيء وفي سبيل تحقيق أغراضه، لا يتورع عن عمل أي شيء حتى أنه يستبيح لنفسه الاعتداء على كرامة الآخرين مستعملًا في سبيل ذلك، سلاح السب البذيء، والصفع على الوجه بدون وجه حق، ويصف الكاتب شخصاً آخر، بأنه عديم الشخصية، وسلبي، ولم يقم بأي دور يذكر في الرحلة. وبذلك يكون الكتاب وبكل أسف قد تحول من كتاب للرحلات بحكم عنوانه إلى كتاب قصصي .

نلاحظ أيضاً في الكتاب وبين ثنايا نصوصه بعض التعبيرات التي نشعر منها وعن طريق خفي أو غير مباشر، مدى حساسية كاتبه المسيحي نحو المسلمين.. فنجده، على سبيل المثال، وفي أكثر من موقع من صفحات الكتاب، يتعمد ذكر مدينة استانبول باسمها القديم «القسطنطينية» فإذا كان تاريخ تلك الرحلة العلمية هو أوائل سنة ١٧٦١م ، فإن السلطان العثماني محمد الفاتح، قام بفتح القسطنطينية في سنة ١٤٥٣م[٩]، وبعد هذا الفتح تغير اسم القسطنطينية وأصبحت تسمى استانبول، ويعني هذا أن تاريخ فتح المدينة تم قبل بدء الرحلة بحوالي ثلاثة قرون، ومع ذلك، نجد

---

(٩) كتاب «من كوبنهاجن إلى صنعاء» ص ٣٣٩ .

الكاتب لا يريد أن يعترف بذلك، ولم يحاول ذكر اسم استانبول ولو مرة واحدة .

وفي مكان آخر نجد أنه عندما رأى نيبور في ميناء مسقط سفينة عربية، يعمل عليها مرتزقة من الفرنسيين يقول عنهم «من بقايا الجيوش الاستعمارية المهزومة المشتتة، الذين لاقوا المصير الفظيع، باضطرارهم إلى العمل مع المسلمين»[١٠]...

بعد مطالعة العبارة السابقة، لست أدري لماذا عندما اضطر هؤلاء الفرنسيون إلى العمل مع المسلمين، أصبح مصيرهم مصيراً فظيعاً، فما هو ياترى المصير الفظيع الذي يتسبب فيه المسلمون لمن يعمل معهم من المسيحيين، اللهم إلا أن يكون هذا نوعاً من التعصب الديني الأعمى، وكرهاً دفيناً للمسلمين .

وهناك إشارة أخرى في الكتاب، تجعلنا نشم المزيد من رائحة الحقد على الدين الإسلامي، وذلك عندما يطالعنا النص التالي : «نتيجة لنقاش بين أفراد البعثة وبين ذلك الرجل المسلم الذي كان يعمل كاتباً في السفينة، خرج فون هافن، في أثناء النقاش من الموضوع وأشار في تهور، إلى أن الديانة المسيحية، أفضل وأحسن من الديانة الإسلامية..»[١١] ومن التعليق الذي جاء على لسان فنان البعثة العلمية ومسَّاحها نيبور على تلك الواقعة المذكورة في النص السابق نلاحظ أنه يقوم بدور المبشِّر للدين المسيحي بدهاء وبدون أن يشعر به أحد، حتى يستطيع إقناع الآخرين دون أن يجعلهم يقابلونه بعداء وكراهية، ويرفضون كلامه يقول نيبور، «لقد ذكرنا قول الرجل المسلم الفاضل، بأن على الإنسان أن ينظر نظرة

---

(١٠) نفس المرجع ص ١١١ .

(١١) نفس المرجع ص ١١٢ .

شامخة إلى كل شخص يعتقد أن دينه أحسن دين، وأنا شخصياً لا أرى من واجبي هداية الناس، ولكن، حين كنت أستفهم من بعض المسلمين العقلاء عن جوهر الدين الإسلامي، كنت أطلعهم أيضاً أثناء الحديث على أشياء كثيرة في الدين المسيحي، ودون أن أزعم بأنها أحسن من المعتقدات التي جاء بها القرآن.. ولهذا لم يغضب أحد منى..»[١٢]..

ولعلنا نحس أكثر بهذا التعصب، عندما يحكي لنا نيبور[١٣] قصة شرائه عبداً أسود من أبوين كاثوليكيين، كان يريد أن يصحبه في رحلته إلى الصين، ولكنه عندما عدل عن الذهاب إلى ذلك البلد، وأراد العودة إلى الدنمارك عن طريق البلاد الإسلامية، أطلق سراح ذلك العبد، خوفاً من أن يأخذه المسلمون منه، اعتقاداً منهم بأنه من أبوين مسلمين، وهنا يتضح لنا أن نيبور، فضل عتق هذا العبد حتى يظل على دينه المسيحي، بدلًا من أن يأخذه منه المسلمون ويحولونه إلى الديانة الإسلامية .

ونكتفي بهذه الأمثلة مغمضين أعيننا عن المحاولات العديدة الموجودة في الكتاب بقصد الإساءة إلى المسلمين في مختلف البلاد التي زارتها البعثة، والتشهير بهم، وكأن الكتاب يحكي بوادر توحي بالضحك والسخرية منهم. وكذلك المحاولة الخاصة بالنيل من شرف وعفّة المرأة المسلمة، ويبدو ذلك جلياً عندما عرض علينا الكاتب أولًا ضمن وصايا ملك الدنمارك للبعثة، ضرورة عدم تصرفهم مع نساء المسلمين، بحرية كما يتصرفون مع النساء الأوروبيات[١٤] ثم نراه يحاول أن يعرض علينا النقيض لمعنى هذه الوصية، حين يدَّعي أنه قد يحدث تجاوب بين بعض أعضاء

---

(١٢) نفس المرجع ص ٣٣٥ .

(١٣) نفس المرجع السابق ص ٧٠ .

(١٤) نفس المرجع السابق ص ١١٣ ، ١١٤ .

البعثة وفتيات تركيات مسلمات[١٥] كنّ راكبات في السفينة التركية الذاهبة من استانبول إلى الإسكندرية، وتبادلن مع أفراد البعثة الحديث والهدايا .

ومرة أخرى، يذكر نفس الشيء عن نساء مسلمات كنّ يركبن السفينة الذاهبة من السويس إلى الحج[١٦] علماً بأن نيبور في ثنايا حديثه قد جعل نفسه نموذجاً مجسداً لقلة الذوق والخلق عندما أخذ يبحث بطريقة وضيعة وغير أخلاقية في حمام الرجال بالسفينة عن طريقة يستطيع بها رؤية النساء المسلمات وهنّ في حمامهنّ المجاور لحمام الرجال[١٦] .

وأخيراً، لابد أن نسجل بالتقدير جرأة وشجاعة أعضاء تلك البعثة في إقدامهم على مغامرة كهذه، فهي تعتبر في ذلك العصر عملية انتحارية بمعنى الكلمة، ومما يثبت لنا مدى شجاعة هؤلاء الناس وإصرارهم على تنفيذ خطتهم، أنهم عندما رأوا بأعينهم شبح الموت يواجههم في اليمن، وذلك بعد أن مرض معظم أفراد البعثة وبعد أن مات عضو من أعضائها في مدينة المخاء، نجد بقية أفراد البعثة يصرون على الذهاب إلى صنعاء، وقد واجه العضو الثاني منها في الطريق مصيره المحتوم، وبرغم ذلك أيضاً واصل باقي أعضاء الفريق السير حتى مدينة صنعاء، ويضرب لنا نيبور المثل في الشجاعة عندما يرى أن جميع أعضاء البعثة قد سقطوا صرعى الواحد تلو الآخر أمام عينيه، ولم يبق منهم أحد سواه، ومع ذلك لم يقرر ترك الهند راكباً إحدى السفن التي تأخذ طريقها مباشرة إلى الدنمارك حتى يهرب من ملاقاة الموت، ولكنه يقرر

---

(١٥) نفس المرجع السابق ص ٢٠١ .

(١٦) نفس المرجع السابق ص ٢٠١ .

العودة إلى بلاده بطريق المغامرة أيضاً، والقيام برحلات أخرى خطيرة في العراق وإيران وسوريا وفلسطين وقبرص وغيرها من البلاد .

وهكذا تنتهي هذه الرحلة الطريفة التي تمثل بداية اللقاء والاحتكاك بين الشرق والغرب في عالم الرحلات ، والتي انتهت بموت أعضاء هذه البعثة في البر والبحر، ولم يعد منهم سوى واحد شأنهم مثل المئات والآلاف من هواة المغامرات والرواد ومحبي الاكتشافات قديماً وحديثًا .

• في مكتبـــة الاسكوريـــال بمدريـــد •

كانت زيارة الأندلس بالنسبة لي من أعز الأمنيات، فطالما هفت نفسي إلى مشاهدة تلك المعالم والمفاخر العربية الإسلامية. وبعد زيارة تلك المرابع الأندلسية ذهبت إلى مدريد وهي مدينة حافلة بالمعالم السياحية والمشاهد الأثرية. ومكتبة الأسكوريال... والمكتبات في كل أمة عنوان رقيها ودليل تطورها.. فهي تؤدي أصدق خدمة وأجلّها إذ تسهم في تكوين الحاضر والتهيئة للمستقبل وتُتْحِف عشاق المعرفة ورواد العلم والآداب.. بينابيع ثروة من المعارف والفنون والعلم. ومكتبة الأسكوريال من المكتبات التي تستأثر باهتمام الزائرين إذ يحرص كل فرد مهتم بالمعرفة على زيارتها... حيث إن شهرتها تجذب الناس إليها خاصةً وإنها تمتلىء بتراث ضخم من الكتب النادرة والمخطوطات القيِّمة التي تُعد ينبوعاً دائماً للحضارة الإنسانية والثقافة الفكرية..

وبعد زيارة لمدريد ومعالمها.. خرجت نحو مدريد القديمة ومراكزها الأثرية.. كما قمت بزيارة لبعض الأمكنة والميادين القديمة فيها، ذات القيمة التاريخية وجولة في ضواحيها وأطرافها البعيدة والقريبة والمركز الإسلامي الثقافي الذي له نشاط ثقافي ومجلة دورية تعنى بالبحوث التاريخية والمخطوطات باللغتين الأسبانية والعربية..

وفي صباح اليوم الثالث توجهنا نحو الأسكوريال وقطعنا حوالي خمسين كيلومتراً فوصلنا إلى تلك المنطقة التاريخية والتي يعتبرها الأسبان إحدى عجائب العالم، حيث تضم الكنيسة والقصر والمقبرة الملكية والدير والمدرسة الملحقة بها، وبها أمكنة مختلفة.. وبعد تجوال في المنطقة، توجهنا نحو مكتبة الأسكوريال الشهيرة والتي يوجد بها بقايا التراث الأندلسي الفكري.. وهي تقع في الجهة اليمنى من القصر وتضم بهواً واسعاً تعرض فيه مجموعة من المخطوطات التي تحتويها المكتبة ومنها مصحف كان لأحد سلاطين المغرب..

ومكتبة الأسكوريال ليست غنية من الناحية الكمية، فهي تحوي حوالي سبعين ألف مجلد ولكنها غنية بما تحتويه من نوادر المخطوطات العربية واللاتينية واليونانية والعبرية وغيرها، وهي تبلغ نحو عشرة آلاف مخطوط. ويبلغ ما تحتويه اليوم من المخطوطات العربية ألفي مجلد على حد تعبير أمين المكتبة.

وهذه المكتبة التي تجذب اليوم محتوياتها، جمهرة الباحثين من سائر أنحاء العالم كانت في بدايتها تتكون من المكتبة الملكية الصغيرة، ومما كان يشتريه سفراء الملك فيليب من المخطوطات النادرة من مختلف الأقطار، وضمت إليها منذ البداية بضعة ألوف من المخطوطات العربية التي جُمِعَتْ من غرناطة بعد سقوطها.. ومن سائر المدن الأندلسية، ثم زادت هذه المجموعة العربية زيادة كبيرة في عصر فيليب الثالث حينما استولت السفن الأسبانية في مياه المغرب سنة ١٦١٢م.. على سفينة مغربية كانت تنقل مكتبة سلطان مراكش، وقوامها ثلاثة آلاف مجلد في مختلف العلوم والفنون، وبذلك بلغت المجموعة العربية في الأسكوريال في أوائل القرن السابع عشر، نحو عشرة آلاف مجلد.. ثم في عام ١٦٧١م شب حريق في القصر قضى على جُلِّها من الكتب فلم يبق سوى ألفي مجلد هي التي توجد اليوم في المكتبة .

بعد تمضية بضع ساعات في داخل القصر ومشاهدة المتحف واللوحات والمكتبة توجهنا بعد ذلك إلى وادي الشهداء الذي لا يبعد إلا قليلًا من الأسكوريال، وقد بنى الجنرال (فرنسيسكو فرنكو) كنيسة داخل جبل، وأقام في قمة الجبل صليباً هائلًا تخليداً لشهداء الحرب الأهلية الأسبانية، وعمق الكنيسة داخل الجبل حوالي ٣٥٠

متراً، وعرضها ٢٥ متراً، تزين الكنيسة لوحات من الداخل وفي نهاية الكنيسة في القبة الرئيسية لوحة تحتوي على رسوم من قطع المزايكو الصغير، ويقال إن عدد القطع ثمانية ملايين قطعة، وعلى جوانب الكنيسة، تقع مدافن بعض ضحايا الحرب وقد قُبر الجنرال فرنكو في نهاية الكنيسة ثم غادرنا المنطقة وأخذنا طريقنا نحو العاصمة مدريد بين جبال خضراء، وكنت أُقوِّم انطباعاتي عن الأندلس ماضيها وحاضرها في ضوء ما شاهدته في الأسكوريال، وتذكرت ما سبق أن قرأته عن حرص الأسبان على إخفاء الآثار الإسلامية عن نظر كل باحث حيث كانوا يخشون أن يتسرَّب الإسلام إلى تفكير وروح أبنائهم فدفنوا الكتب في هذا القصر والذي صار اليوم مزاراً للسائحين .

فهرس موضوعات الكتاب

الموضوع	الصفحة
تقديم	٧
مقدمة	٩
القسم الأول : في التاريخ	١١
اهتمام المؤرخين بالجزيرة العربية	١٣
وميض من سيرة الملك عبدالعزيز (ظاهرة توطين البادية)	١٩
أسطورة القرصنة العربية في الخليج	٣٠
دارة الملك عبدالعزيز ودورها في دعم البحث العلمي	٣٩
الخصائص التاريخية للمدينة العربية	٦٥
القسم الثاني : في التراث	٨٧
التراث بين السلف والخلف	٨٩
لا تاريخ بدون وثائق	٩٧
أهمية تجميع تراثنا الجغرافي	١٠٣
الوثائق مادة علمية لتاريخ الأمم والحضارات	١١٣
في مجال الوثائق والتوثيق	١١٨
أهمية دراسة تراثنا الوثائقي	١٢٣
تراثنا بين الإهمال والتباكي	١٢٧
تراثنا من ينشره	١٤١
صور وذكريات رمضانية	١٤٧